

رحلة ابن جبير الأندلس

دراسة فن الأسلوب

د. إبراهيم عوض

آداب عين شمس

١٢
٢٨ ٩٦

١٩٩٢

مقدمة

رحلة ابن جبير من أشهر الرحلات في الأدب العربي. ولها هي ورحلة ابن بطوطة أشهرها على الإطلاق.

وقد انفتح لى من خلالها باب على دُنيا من العادات والتقاليد والأوضاع السياسية والاقتصادية وفن العمارة وشعائر الحج وطرق القوافل في مصر والجزيرة العربية والعراق والشام في عصر ابن جبير مولدة بالحياة، شتتني شدا لم أستطع له مقاومة حتى فرغت منها وأنا أسف كميف البال لأنها لم تطل أكثر من ذلك.

وزاد من لعتلى بهذه الرحلة أن ابن جبير، في طريقه من الإسكندرية إلى القاهرة، قد مرّ على مقربة من المكان الذي تقع فيه قرىتي "كلمة الغلبة" (بمحافظة الغربية) (١)، إذ كان من بين المدن والقرى التي اجتازها حينذاك قرية "برما" ("برمة" في الرحلة) المشهورة بحسبتها التي ضربت بها الأمثال، وهي تبعد عن قرىتنا بنحو ثمانية كيلومترات لاغير. كما توقف في طنطا ("طننتا" آنذاك)، وصلى في أحد جوامعها. ولعله من الجوامع التي صليت فيها أنا أيضا. فقد تلقيت تعليمي أثناء المرحلتين الإعدادية والثانوية في تلك المدينة، وكنت ولا أزال كثير التردد عليها والشعور بأنني أعثر على نفسي وأسترد ماضى حين أنجول فيها، وبخاصة في شوارعها وحواريها حيث سكنت وسرت ولعبت وحزنت وسررت في هذه المرحلة الحساسة والحلوسة من عمري.

وقد نالت رحلة ابن جيبسر اهتمام الدارسين من عرب ومستشرقين، وكلهم أثنى عليها وعلى أسلوبها، فرأيت أن أدرس هذا الأسلوب وأحلله إلى عناصره الأولى: من مفردات، وصيغ ألفاظ، وعبارات، وتراكيب، وموسيقى، وصور، ووصف، وفكاهة..

لا أدري أكان لقرىتي وجود في ذلك الحين أم لم تكن قد وُجعت بعد.

ولعل هذه أول مرة يُدرس فيها أسلوب ابن جبر بهذه المنهجية وذلك التفصيل . ورجائي
أكون قد نمت شيئا نافعا للأدب والنقد . والله الهادي إلى سواء السبيل .

مَنْ كَتَبَ رَحْلَةَ ابْنِ جَبْرِ ؟

قبل أن نتحدث عن أسلوب الرحلة لابدّ أولاً من مناقشة مدى صحة أو فساد الادعاء القائل إن
ابن جبر لم يكتب رحلته هذه بنفسه . وإنما المضمون له والمصاغة لغيره . وصاحب هذا الادعاء
هو أبو الحسن الشاذلي (١) . الذي ذكر لسان الدين بن الخطيب نقلاً عن ابن عبد الملك
المراكشي أنه " كان يقول إنها ليست من تصانيفه (أي ابن جبر) . وإنما قيد معاني
ماتصمته . فتولى ترتيبها وتنفيذ معانيها بعض الأخنئين عنه على ما تلقاه منه " (٢) . وهو كلام
واضح الدلالة على أن ابن جبر ليس هو مؤلف الرحلة التي بين أيدينا ، أي أن الأسلوب الذي
صيغت به ليس أسلوبه هو ، فدوره فيها على هذا لا يعدو أن يكون كنز ابن بطوطة ، الذي قام
بحكاية مراه وسمعه في رحلاته على ابن جبر . ومصاغ هذا الأخير بأسلوبه ماحكاه له الرحالة
المشهور . ومن هنا فلا وجه للاحتمال الذي حاول المرحوم عبد القدوس الأنصاري صرف الكلام
إليه . إذ قال إنه " ربما كان ما تحدث به أبو الحسن الشاذلي .. إنما يعني به أن هذا اتخذ عن
ابن جبر إنما قام بنسخ كتاب الرحلة بخط يده نسخاً جيلاً واضحاً خالياً من الشطب والكشط .
ليبرز نسخة الكتاب في حلة قشية بخلاف مسودته الحاوية للكشط والشطب والحواشي
والدخلات والخروجات والهوامش على ما هو معروف من صنع المؤلفين الأساتيد مع تلاميذهم
الذين لديهم وعي طيب ويحسنون الخط فيضون مسودات مشايخهم بخط جميل " (٣) . ذلك أن

١- في الطبعة الأولى للرحلة (ط . مصطفى فهمي الكبيسي بصر ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م / ص ٥ نقلاً عن ترجمة ابن جبر
في " الإحاطة " لسان الدين بن الخطيب) ذكر اسمه هكذا : " أبو الحسن الشاذلي (بالراء) لا الشاذلي (بالذال) .
وكذلك في مقدمة د. حسين نصر لرحلة ابن جبر أيضاً (بتحقيقه . صفحة / ط) على ما قال عبد القدوس الأنصاري (مع ابن
جبر في رحلته / ط ١ / الطبعة العربية الحديثة / القاهرة / ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م / ص ٤١) . وأحب أن أتبه من الآن أنني إذا
استعملت هذه الطبعة فأسسها " الطبعة الأولى " . لما إذا قلت " الرحلة " أو " رحلة ابن جبر " بدون الاكتفاء بالنص
على الطبعة أو رقم الصفحة فيكون المقصود طبعة دار صادر ودار بيروت . وهي التي سيكون جلّ اعتمادنا عليها .

٢- لسان الدين بن الخطيب / الإحاطة في أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان / مكتبة الخانجي / مجلد ٢ / ص ٢٣٠ .
٣- عبد القدوس الأنصاري / ٧٦ .

الكلام المنسوب لأبي الحسن الشاذلي إنما هو عن التصنيف لا النسخ. (١) وبالمنسوبة ، قال
قال هذا الكلام هو ابن عبد الملك لا لسان الدين بن الخطيب ، كما فهم الأستاذ عبد القدوس
الأنصاري (٢) . إنما ابن الخطيب مجرد حاك . وقد عقب لسان الدين بن الخطيب على ما نقله
ابن عبد الملك بقوله : " والله أعلم " بملفد أنه غير مطمئن له . ولم أر أحدا من القدماء ، غير
ابن عبد الملك وابن الخطيب ، قد ذكر هذا الادعاء . أما في النص الحديث فقد أورده الزركلي
في ترجمته لابن جبير في " الأعلام " . ود حسنى محمود حسين ، الذي لم يكتف بإيراد الادعاء بل
رجحه أيضا (٣) ، وكذلك الأستاذ حمد الجاسر ، الذي قال عن ابن جبير إنه " كتب بعض مشاهد
في إحدى رحلاته إلى الشرق فيما بين سنتي ٥٧٨ و ٥٨١ هـ ، فتولى أحد تلاميذه فيما يقال تدوين
الرحلة المعروفة باسمه " (٤) أما الأستاذ الأنصاري فقد فند ذلك (٥) .

إن من الصعب للغاية متابعة أبي الحسن الشاذلي ذاك على ما قاله . ذلك أنه هو الوحيد الذي
قال هذا عن رحلة ابن جبير دون سائر من كتبوا عنها . ولا أدري في أي ظرف قال الشاذلي كلام
هذا ، ولا من أين استقاه . ولا على أي أساس قاله . إنما هو مجرد دعوى خالية من أي دليل
بيته . أكثر من هذا أنه لم يذكر لنا اسم من ادعى قبله بتصنيف الرحلة ولا صلته بابن جبير . ثم
لو كان كاتب الرحلة شخصا آخر فلم لم يقل ذلك في أثناء كتابته لها ، كما فعل ابن جزي (كاتب

١- لاحظت أن العبارة المنسوبة إلى أبي الحسن الشاذلي والتي نقلها الأستاذ الأنصاري من " الإحاطة " تقول : " وتولى
ترتيبها وتنفيذ ممانيتها بعض الأخنين عنه " . ولا أدري عن أي طبعة نقل الأستاذ الأنصاري . أما الطبعة التي رجعت
إليها فتقول : " وتنفيذ ممانيتها " . وهذا هو الأليق بالكلام والبيان ، إذ المعنى " تنفذ " لا " تنفذ " .

٢- انظر عبد القدوس الأنصاري / مع ابن جبير في رحلته / ص ٦٢ .

٣- انظر عبد القدوس الأنصاري / ص ٦٣ .

٤- حمد الجاسر / ملخص رحلتى ابن عبد السلام الدومى / ص ٢ / دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع /
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / ص ١٩ .

٥- انظر " مع ابن جبير في رحلته " ص ٦٢-٦٣ .

رحلة ابن بطوطة) ، الذى أشار إلى هذا بتمتة الموضوع ، والذي عندما كان يضيف شيئا من عنده
لم يحكه له ابن بطوطة كان ينص عليه قائلا : " قال ابن جزي " .

إن الأمر على العكس من هذا تماما ، فابن جبير ينص في أول رحلته على أنه " ابتدئ
بتقريبها يوم الجمعة الموفى ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسائة على متن البحر
بمقابلة جبل شلير ، عرفنا الله السلامة بمنه " (١) ، كما يقول في آخرها : " فكانت مدة مقامنا
من لدن خروجنا من غرناطة إلى وقت إيلينا هذا عشرين كلمين وثلاثة أشهر ونصف ، والحمد لله
رب العالمين " (٢) . فهذان النصان دليل على أنه كان يسجل مشاهداته ومسموعاته وأحاسيسه
وأفكاره أولا بأول ، بأسلوبه هو على سبيل التفصيل ، لا الإجمال بنية دفعها بعد ذلك إلى من
يعيد له صياغتها . ثم إن مثل قوله في أثناء الكلام عن مشاهد المحلبة في مصر : " والمقيد (٣)
يبرأ من القطع بصحة ذلك ، وإنما رسم من أسمائهم ما وجدته مرسوما في تواريخها " (٤) ، وقوله
عن الغوص لميد اللؤلؤ في البحر الأحمر عند ميناء عذاب : " وأوان الغوص عليه في هذا
التاريخ المقيمة فيه هذه الأحرف ، هو شهر يونيه الحسمى والشهر الذى يتلوه " (٥) ، وقوله في
سياق حديثه عن الكعبة : " وقد كان المقام المطهر أخرج من وضعه المستحدث في البيت العتيق
حسبا تقم الذكر أولا له فيما سلف من هذا التقييد - " (٦) ، وقوله عن غار ثور : " وقد تقم
ذكر الغار وضقه أولا في هذا التقييد " (٧) ، وقوله وهو ببغداد : " وكنا قد شاهدنا بمكة

١- رحلة ابن جبير / دار صادر ودار بيروت / ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م / ص ٢ .

٢- الرحلة / ص ٣٢٠ . وتنبه لاسم الإشارة للقريب في قوله : " إلى وقت إيلينا هذا " ، فهو دليل مؤكد على ما نقول .

٣- أى " كتب هذه السطور " كما نقول نحن الآن .

٤- الرحلة / ص ٣٢ .

٥- الرحلة / ص ٤٦ .

٦- الرحلة / ص ١٣١ .

٧- الرحلة / ص ١٣٩ .

لأنه في فترة نشاطه الكتابي والأدبي ، فما الذي يحوجه إلى أن يسلم رحلته إلى من يصوغها له بأسلوبه ؟ إن ابن جُزَيّ مثلا ، كتب رحلة ابن بطوطة ، كان كتابا ديوانيا لدى الأمير الذي رغب في أن تُسَجَّل له تلك الرحلة ، أما ابن بطوطة فلا يمه أحد بين الكتاب أو الشعراء . لكن الأمر بخلاف ذلك تماما في حالة ابن جبير . لقد كان هو كاتب من كتاب الدواوين ، وكان فوق هذا أديبا شاعرا .

هل يكون صاحب الدعوى التي نحن الآن بصدد ما قد وهم من كلام ابن جبير عن نفسه ، في بداية تسجيله للرحلة ، بضمير الغائب (١) أن غيره هو كاتبها ؟ إنني أستبعد ذلك ، فالتنصيص يقول : " وكان لفصالح أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة حرسها الله ، للنية الحجازية المباركة ، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي " . ومن السهل ، كما هو واضح ، أن نرى في إشارة ابن جبير إلى نفسه بضمير الغائب وتأخير اسمه عن اسم مراقبه لونا من التواضع المنسجم مع مانعته من تفصيلات ترجمته وسمات شخصيته لا أكثر (٢) . وهو على أية حال سرعان ما أخذ يتحدث عن نفسه بضمير المتكلم وظل طوال الرحلة يستخدم هذا الضمير . على أن الأهم من ذلك أن في النص نفسه بوهانا لا يرد على أن ابن جبير كان يقيد حوادث رحلته تقييدا نهائيا أولا بأول ، إذ ورد فيه الدعاء إلى الله أن يتيسر الرحلة ويسهلها - إلخ . ويستحيل أن يكون هذا الدعاء قد قيل بعد انتهاء الرحلة . وهذا أمر يتن لا يقبل المجادلة .

ومثل هذا الدعاء قد تكرر في مواضع مختلفة من الرحلة ، كقوله وهو بمصر في طريق الذهاب إلى البلد الحرام : " لسهل هلاله (هلال شهر المحرم) ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس

والسبعة ... مجالس من قد ذكرناه في هذا التقييد " (١) ، وقوله عن الأمير مسعود (٢) : " تقدم ذكر غنايه في الإسلام فيما مضى من هذا التقييد " (٣) يؤكد أنه هو الذي صاغ الرحلة بأسلوبه ، (أو بتعبيره هو " قيتما ") ، وأن كان ذلك يتم أولا بأول .

كذلك فإن ناسخ مخطوطة الرحلة التي اعتمدت عليها دار صادر ودار بيروت في النشر ، وم عبد القادر بن عبد الوهاب بن عبد المؤمن القرشي ، قد صرح في آخر المخطوطة بما لا يحتمل هب من شك أو تأويل أن الرحلة من " تأليف " ابن جبير (٤) . والمفهوم أنه قد نقل نسخته من المخطوطة الأولى أو من مخطوطة نقلت عنها أو عن مخطوطة ترجع إليها . ولو كان قد ذكر في إحدى هذه المخطوطات أن مؤلف الرحلة هو شخص آخر غير ابن جبير ما فات النسخ ذلك .

ثم ما الذي يجعل ابن جبير يعهد بصياغة رحلته إلى غيره وهو الأديب الكاتب الشاعر ؟ قد يقال إن أسامة بن منقذ مثلا ، وهو الشاعر المشهور ، قد حكى مذكراته على من كتبها له (٥) . لكن ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن ابن منقذ إنما فعل ذلك في أخريات حياته بعد أن تقدمت به السن وأن المذكرات ليست مصوغة في أسلوب أدبي مشرق ، بل كُتبت كما حكيت باللهجة العامية التي لا يراعى فيها جمال صياغة ولا صحة لغة .

لما ابن جبير فلم يكن قد بلغ الأربعين بعد حين قام برحلته ، التي استغرقت عشرين وربع عام تقريبا ، وله في الرحلة أشعار كثيرة ، كما ظل ينظم الشعر إلى أخريات حياته ، بل إنه كان قد ترك لتوه الكتابة (الديوانية) لأبي سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة ، مما يدل على أنه كان

١- الرحلة / ص ٣٠٠ .

٢- هو في الحقيقة قلع أرسلان السلجوقي ابن مسعود هذا لا مسعود ذاته .

٣- الرحلة / ص ٣١١ .

٤- الرحلة / ص ٣٢٠ .

٥- انظر مقدمة فيليب حتى للمذكرات المسماة بـ " كتاب الاعتبار " / مطبعة جامعة برنستون الأمريكية / ١٩٣٠ / تحرير فيليب حتى / ص (ت ت) من مقدمة المحرور .

١- الرحلة / ص ٧ / سطر ٢ .

٢- تنبه إلى هذه الدلالة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري . انظر كتابه عن رحلة ابن جبير / ص ٦٤ .

شفيها لنا يوم القيلة - إلخ " (١).

أعتقد أن هذا كله دليل لا يتقضى على أن ابن جبير هو الذي كتب رحلته بقلمه هو وأسلوبه ، وأن ذلك كان يتم أولاً بأول .

وقد حاول د شوقي صيف أن يوفق بين كون ابن جبير هو الذي كتب الرحلة بقلمه وبين الرواية التي تشير إلى تلميذه ، فقال : " ويظهر أنه (أي ابن جبير) كتبها في أوراق منفصلة ولم يجمعها بنفسه ، بل جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته " (٢) . وهو مجرد اجتهاد منه لم يشأ أن يقطع به فقال : " ويظهر - إلخ " .

إذن فأسلوب الرحلة هو أسلوب ابن جبير نفسه . ونحب الآن أن نحلل هذا الأسلوب لتعرف على سماته التي تفرق بينه وبين غيره من أساليب الكتاب الآخرين . والحق أنني لم أصادف من توفر على درس هذا الجانب من أدب ابن جبير ، اللهم إلا ملاحظات علمة وسريعة في غالب الأحيان هنا وهناك ، من مثل قول ابن عبد الملك المراكشي إن ترسيه بنبيع (٣) ، وهو نفس ماوصف به لسان الدين بن الخطيب نشره ، مضيفاً أن كلامه المرسل سهل حسن ورحلته نسيجة وحسما (٤) . ويقول المقرئزي (ورتدها بعده المقرئ بنص ألفاظها) إنه " غني بالأدب فبلغ الغاية فيه ، وتقدم في صناعة القريض وصناعة الكتابة " (٥) . وقريب جداً من ذلك ماأورده الذهبي في " سير أعلام النبلاء " نقلاً عن الأبار ، الذي قال في ابن جبير إنه " غني بالأدب فبلغ فيها الغاية ، وبرع في النظم والنثر " (٦) .

١- ص / ١٨١ .

٢- د شوقي صيف / الرحلات / ط ٢ / دار المعارف بمصر / ٧١ .

٣- انظر " الإحاطة " / مجلد ٢ / ص ٢٣١ .

٤- انظر " الإحاطة " / مجلد ٢ / ص ٢٣١ .

٥- انظر " رحلة ابن جبير " ط ١ / ص ١٠٩ ، المقدمة ، و " نفح الطيب " / ج ٢ / ص ١٤٢ .

٦- سير أعلام النبلاء / تحقيق د بشار معروف ود محيي السرخان / مؤسسة الرسالة / ج ٢٢ / ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م / ط ١ / ص ٤٦ .

والعشرين من أبريل ونحن بمصر . يسر الله علينا مراننا " (١) . والمرام المقصود هو الحج مما يقطع بأن الحج لم يكن قد تم بل ولا مجرد الوصول إلى مكة . ولو كانت الرحلة قد أملت بعد عودته لحل حمد الله مثلاً محل هذا الدعاء ومثله قوله وهو بقوص (في رحلة النهاب) : " استهل هلاله (هلال صفر) ليلة الأربعاء - ونحن بقوص نروم السفر إلى عيذاب ، يسر الله علينا مراننا بمتة وكرمه " (٢) . وقوله عن عبور البحر الأحمر من الشاطئ المصري إلى جدة ، وكان عبوراً صعباً : " والله يسهل لنا كل صعب ويسر لنا كل عسير بعزته وكرمه " (٣) . أما بعد الوصول بالسلامة إلى إحدى الجزر في عرض البحر فقد تغيرت نغمة الكلام إلى " وله الحمد والشكر على ذلك " (٤) . وهو يشبه ما قيل عند بلوغ جدة ، إذ قال : " والحمد لله على ملن به من العصاة وتكفل به من الوقاية " (٥) . وبالمثل فعندما بلغ مكة نراه يدعو بقوله : " فأوزعنا الله شكر هذه المنة - وختم لنا بالقبول " (٦) . بما يفيد أنه كتب هذا عند أول وصوله البلد الحرام . أما عندما فرغ من أداء الفريضة فإن دعوته تصبح كالآتي : " فكانت مدة مقلنا بمكة - من يوم وصولنا إليها - إلى يوم إقلاعنا - ثمانية أشهر وثلاث شهر - جعلها الله لذاته ، وجعل القبول لها موافقاً لمرضاته - والله لا يجعله آخر العهد بحرمه الكريم بمنه " (٧) . ويشبه هذا الدعاء ، في الدلالة على تعلقه بشيء مضى وتم ، دعاؤه بعد تمام زيارته للمسجد النبوي الكريم ، ونصه : " بوأنا الله بزيارة هذا النبي الكريم منزل الكرمة . وجعله

١- ص / ٣٢ .

٢- ص / ٤١ .

٣- ص / ٥٠ .

٤- ص / ٥١ .

٥- ص / ٥٢ .

٦- ص / ٥٩ .

٧- ص / ١٦١ .

ويصف: "أنخل جتالث بالتشا الرحلة بقوله إنها " أشبه بيوميات سفر صاغها ابن جبير أسلوب بارع ، وصور فيها بكلام سهل بسيط الأحاسيس التي اعتلجت في نفسه في المواضع زارها أو عند مشاهدته الآثار التي رآها. وأسلوبه سلس جزل ينم على موهبة أدبية أصيلة " (١).

ويطيل كراتشكوفسكى نوعاً ما الكلام في وصف أسلوب الرحلة ، إذ يقول : " وتعتبر رحلة جبير من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الأدب العربي . وإذا كان وصفه للأثر مملاً للقارئ . العسلى فإن أسلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وسهولة التعبير - لما عر العام فيستهدف الصنعة والأناقة . وهو كثيراً ما يلجأ إلى السجع الذي يعالجه بالكثير المهارة دون أن يبالغ فيه أو يضطر القارئ إلى تكلف الجهد في تفهمه . كما يشحن كلامه بالاقتراس الأدبية والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة من المعرفة والاطلاع يضحى مفهوماً للقارئ " (٢).

وفي " تاريخ الشعوب الإسلامية " يقول بروكلمان واصفاً أسلوب ابن جبير في الرحلة " أسلوب بارع ، ولكنه خال على كل حال من تصنع المحترفين ، من غير أن يتنكر يوماً لتقال الفقيه " (٣).

ويستبسط شارل بلا ، كاتب مادة " ابن جبير " في الطبعة الجديدة " Encyclopaedia of Islam " (٤) خصائص أسلوب ابن جبير في الرحلة في العبارات التالية : " إن أسلوبه ، وإن كان في بعض الفقرات السردية واضحاً ملوفاً بالحيوية نحو ما هو مشاهد في طريقة المعلقين في عصرنا ، هو أسلوب يفرط في التسيق ويستعين بالسجع

- ١- أنخل جتالث بالتشا / تاريخ الفكر الأندلسي / ترجمة د حسين مؤنس / ط ١ / النهضة المصرية / من ٣١٧.
- ٢- كراتشكوفسكى / تاريخ الأدب الجغرافى العربى / ترجمة صلاح الدين عثمان حاشم / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٩٦٥م / القسم الأول / ص ٢٠١.
- ٣- تاريخ الشعوب الإسلامية / ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي / ط ٢ / دار العلم للملايين / بيروت / من ٣٣٩.
- ٤- وهي غير الطبعة الأولى التي تُرجم عنها إلى العربية.

في خلعه الأوصاف العلمية على بلد ما ، أو عند تصويره للمدن التي يمر بها ، وكذلك في التعبير عن المشاعر التي يشوفا فيه هبوب عاصفة .. ومن ناحية أخرى فإنه بارع في التقاط السمات المميزة والملاحظ البارزة التي تلفت العين في الجموع الحشدة . وفي هذه الحالات فإن أسلوبه الملون البسيط يضاف على ما يحكيه طابعاً عصبياً تلماً " (١).

وتصف كل من دائرة المعارف البريطانية (ط ١٩٧٢ م) و " دويرة المعارف " الملحقة بدائرة المعارف البريطانية الجديدة الرحلة بأنها صيغت في " أسلوب حى " (٢).

ويقول محمد عبدالله عنان إن ابن جبير قد وصف مكة والكعبة والبيت الحرام والمناسك " بإفاسة ودقة وحرارة تنيب قلب المؤمن وأسلوب رفيع من البيان الساحر الأخاذ . ولقد كتب كثير من الرحل المسلمين في وصف هذه الأماكن المقدسة وأفاضوا وأبدعوا . ولكن يندر أن نجد بين كتاباتهم مثل هذا الوصف البليغ المؤثر الذي تركه لنا ابن جبير " (٣).

وفي تأريخه للأدب المغربى والأندلسى في عصر المرابطين والموحدين يقول د عمر فروخ عن ابن جبير إن " أسلوبه في رحلته نشر وصين ، جزل الألفاظ ، سهل التركيب ، بارع السبك ، موجز بليغ ، يصدر عن شعور بمليرى ويتأثر به . والجانب القصصى في رحلته بارع جداً . كما أن أوصافه طريفة ناطقة بماتعبر عنه " (٤).

ويصف د شوقي ضيف أسلوب ابن جبير قائلاً إن " الرحلة مكتوبة بلغة سهلة بسيطة ملائمة تماماً لموضوعها . وطريقته في السرد محبة إلى النفس . وهو يصف ما يشاهده وصفاً دقيقاً ..

١- Encyclopaedia of Islam , New Edition , Vol. III , Leiden - London , 1979 , Ent. "Ibn Djubayr" , P. 755.

٢- انظر مادة " ابن جبير : " Ibn Jubayr " في كل من Encyclopaedia Britannica ط ١٩٧٢م / ج ١١

/ من ١٢٠٢ و The New Encyclopaedia Britannica Micropaedia , Vol. 5 , 271

٣- محمد عبدالله عنان / تراجم إسلامية / ط ٢ / الخانجي / ١٣٩٠-١٩٧٠م / من ٢٢١.

٤- د عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / ج ٥ / من ٦٠٩.

" ويؤكد يجمع الباحثون على أن الأسلوب الذي كتب به (ابن جبير) وصف رحلته من أفضل الأساليب التي كتبت بها الرحلات العربية القديمة " (١).

لما أنا فسيلى فى دراسة أسلوب ابن جبير هو فرز ما يميز به هذا الأسلوب فى المفردات والصيغ والعبارات والتراكيب والتصوير والتوقيع الموسيقى خطا خطا على قدر ما تسعنى ملاحظتى وانتباهى.

وترك نفسه على سجيته فلم يتكلف فى عبارة ولا فى فكرة ، وأدى مداخله من عوالم وأحاسيس إزاء بعض الحوادث والمواقف أداء صادقا صريحا " (١).

وقد خلع عبدالقدوس الأنصارى على أسلوب ابن جبير فى الرحلة صفات " الجمال والإبداع و " الوصف الأدبى الممتاز " (٢) ، و " الروعة " و " البلاغة العربية المرموقة " (٣) و " البلاغة النضرة الوارفة الظلال ، والوافرة الجمال " (٤) ، و " الإيجاز غير المخل " فى مواضع والإطناب فى وصف ما " يحوز إعجابه العميق " فى مواضع أخرى (٥) و " الحيوية فى وصف أم البحر " بطريقة " تجعل القارئ يشعر بمشاطرته فى علفته " (٦) ، و " سيطرة روح المر والنسيب عليه فى بعض الأحيان " (٧) ، و " وجود مصطلحات خاصة قد تغض على بعض أنما القراء " لما لأنها ألفاظ مهجورة أو أجنبية دخيلة أو علمية (٨) ، و " الإغراق فى المبالغة والتهويلات لجذب الأنظار (٩).

هذا ما وقع لى من وصف أسلوب ابن جبير فى الكتب التى حصلت فى يدي وأنا أعد هذا البحث وهى صفات علمية فى الغالب كما هو بين . بيد أنها كلها تجمع أو تكاد على الإعلاء من شأن أسلوب الأسلوب على غيره من أساليب الرحلات القديمة وهو ما لخصه د. محمد محمود محمدين فى قوله

١- د شوقي ضيف / الرحلات / ٧١-٧٢

٢- ص / ٢٩٦

٣- ص / ٢٩٨

٤- ص / ٢٩٩

٥- ص / ٣٠٤

٦- ص / ٣٠٨

٧- ص / ٣٢

٨- ص / ٣١٥

٩- ص / ٣٤٨

١- د محمد محمود محمدين / الجغرافيا والجغرافيون بين الزمان والمكان / دار العلوم للطباعة والنشر / ١٤٠٢هـ -

١٩٨٢م / ص ١٥٢

المفردات

ونبدأ بالمفردات . وأول ما يميز به الأسلوب الجبرى فى هذا الجانب هو تكرار ألفاظ بعينها على مدار الرحلة تكرراً يلفت النظر : ومن هذه الكلمات الفعل " قيد " (بمعنى " كتب " أو " سجل ") ومشتقاته .

جاء فى أول سطر فى الرحلة : " ابتدئ بتقييدها (أى كتابتها) يوم الجمعة الموفى لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمسائة " (١) . ويتحدث عن نفسه وأنه لا يستطيع القطع بشئ فى موضوع المحادثة المنقونين فى مصر : " والمقيد (بصيغة اسم الفاعل ، أى كاتب السطور أو مؤلف الكتاب . يقصد بذلك نفسه) يبرأ من القطع بصحة ذلك " (٢) . ويقول عن مشاهد الملحاء والعلماء بمصر أيضاً إنها " أكثر من أن تضبط بالتقيد (أى التسجيل) أو تتحصل بالإحصاء " (٣) . ومثلها فى المشاهد الموجودة بجمع دمشق : " والمشاهد المباركة فى هذه البلدة أكثر من أن تضبط بالتقيد " (٤) وفى مواعيد الغوص على اللؤلؤ فى البحر الأحمر : " وأوان الغوص عليه فى هذا التاريخ المقيمة فيه هذه الأحرف (يقصد : " فى الوقت الذى كان يكتب فيه تلك السطور ") . وهو شهر يونيه المعجمى والشهر الذى يتلوه " (٥) . وعن اقتراح أحد المحسنين من مسلمى الأعاجم على أمير مكة فى ذلك الوقت أن يكلف واحداً من لئنه بتسجيل ما ينقده هذا المحسن فى تجديد بشر زمزم وبينائه ، حتى إذا فرغ هذا المحسن من التجديد المطلوب أعطى الأمير مقدار ما أنفق : " وقال : ... ولك على فى ذلك شرط . وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة فى ذلك ... فاهتز الأمير طمعا . وألزمه مقيدا يحصى قليل

١- الرحلة / ص ٧.

٢- ص ٢٢.

٣- ص ٢٤.

٤- ص ٢٥٤.

٥- ص ٤٦.

الاتفاق وكثيره . والمقيد يسود طوليره بالتقييد " (١) . كل ذلك ولعلب الأمير المذكور يتحلب طمعا وجشعا . وفي النهاية ، بعد أن تم الترميم والتحسين ، اختفى ذلك المحسن وعاد إلى بلاده ، دون أن يعطى الأمير شيئا . وقد لجأ إلى هذه الحيلة لما كان يعلمه من جشع الأمير وأنه لن يمكنه من فعل ما ينتوى من الخير إلا بالرشوة . وعن كثرة عند الهواج في موكب حرم الأمير المار ذكره وحرم قواده : " إلى غير ذلك من هواج لم نستطع تقييد عدتها عجزا عن الإحصاء " (٢) . وفي الإشارة إلى شيء سلف الكلام عنه في مكان سابق من الرحلة : " حسبما تقدم الذكر ... فيما سلف من هذا التقييد (أى الكتاب) " (٣) . " وقد تقدم ذكر هذا الغار وصفته أولا في هذا التقييد " (٤) . " المتقدمة الذكر في هذا التقييد " (٥) " وقد تقدم ذكر غنائم في الإسلام فيما مضى من هذا التقييد " (٦) . وقال معقبا على ملأه من وصف النساء النصرانيات وملابسهن في " بلارمة " عاصمة " صقلية " : " ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ، ويؤدي إلى لباطيل اللغو ، ونعوذ بالله من تقييد يؤدي إلى تفنيد " (٧) .

وقد وجدت عددا من المعاجم اللغوية لاتذكر لهذه الكلمة هذا المعنى الذى أكثر ابن جبير استعمالها فيه ، ففي " صحاح " الجوهري مثلا : " القيد : واحد القيود . وقد قيست الدابة . وقيدت الكتاب : شكلته ... ويقال للفارس الجواد : قيد الأوابد ، لأنه يمنع الوحش من الفولت

لسرعة " (١) . وفي " معجم مقاييس اللغة " لابن فارس : " القيد : معروف ، ثم يستعار في كل شيء يخس . يقال : قيدته أقيده تقييدا " (٢) . وفي " القاموس المحيط " : القيد : جمع أقيد . وقيد الأسنان اللثة . ويقال للفارس : " قيد الأوابد " ، لأنه يلحق الوحش بسرعه . وتقييد الكتاب شكله . وقيد الإيمان الفتك . أى منع من الفتك بالمؤمن " (٣) . ونفس الحكم يصدق على " لسان العرب " و " أساس البلاغة " ، و " أقرب المسوارد " للشرطوني ، و " محيط المحيط " للبستاني ، و " المعجم الوسيط " و " المنجد " إلخ .

ومع هذا فقد كانت هذه الكلمة تستعمل في النصوص العربية القديمة في هذا المعنى ، معنى الكتابة والتسجيل وما أشبه . لما الآن قلنا تستخدم فيه . إنما أصبحت تستخدم في معناها الأصلي ، وهو ربط الإنسان (أو الحيوان) ربطا ملديا لمنعه من الحركة أو على الأقل من مغادرة المكان ، أو ربط الشخص معنويا لإلزامه بأمر معين أو منعه عن عمله . وهذه بعض نصوص صادفتها في عدد من الكتب العربية القديمة وردت فيها هذه الكلمة :

جاء في الحديث النبوي : " قيدوا (هذا) العلم بالكتاب " (٤) . وقال علي بن موسى بن سعيد (صاحب " المغرب ") عن أبيه إنه كان مولما " بالتقييد والمطالعة للكتب " (٥) . وفي " مستفاد الرحلة والاعترا ب " للقاسم بن يوسف التجيبي السبتي استعملت هذه الكلمة في هذا

١- ص / ١٠٥

٢- ص / ١٠٧

٣- ص / ١٣١

٤- ص / ١٣٩

٥- ص / ٢٠٦

٦- ص / ٣١١

٧- ص / ٣٠٧

١- المحتاح / مادة " قيد " .

٢- معجم مقاييس اللغة / مادة " قيد " .

٣- القاموس المحيط / مادة " قيد " .

٤- القاموس / مقدمة / ٤٢ .

٥- نظر المقرئ / مجلد ٢ / ص ٩٩ .

المعنى مرارا (١) كما استعمل ابن جزى ، كاتب رحلة ابن بطوطة ، هذه الكلمة فعلا واسما فى هذا المعنى (٢) .

وفى " نفح الطيب " فى كلامه عن ابن عطية : " رحل إلى المشرق فرؤى وقيد - ويقيد شواردا المعانى وغربتها " (٣) .

وثمة كتاب منسوب لأحد المغاربة (وهو عز الدين مجيد بن عبدالسلام الهوارى المنستولى ، من القرن السابع والثامن الهجرى) اسمه " تقليد على مختصر ابن الحاجب " (٤) .

وفى " الرحلة الحجازية " لمحمد السنوسى (تونسى من العصر الحديث) : " لتبت الأيدي إلى مسودات التقليد " (٥) . و " تعلّيت من بذل الهمة ما استطعت من جمع شمل ما انتثر من تقاليد هذا النموذج المعبر " (٦) .

ومن الكلمات التى يكثر ابن جبير من استعمالها فى رحلته كلمة " جفيل " (بمعنى " متلىء " ، " مزدحم " و " فخم " ، " هائل " ، وهى " فعيل " من " حافل : فاعل " ، التى لم ألحظ استعماله لها ، إمّا لعدم وإمّا لقلّة الشدّة .

مثال ذلك قوله عن زحام المصلين يوم الجمعة فى أحد المساجد بطنطا (التى يسميها

" طننته ") ، ولعله مسجد السيد أحمد البدوى المشهور : " فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطننته ، وهى من القرى القسيحة الآهلة ، فأبصرنا بها مجعا حفلا ، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جمعة " (١) ، وقوله عن " المية " (موضع بين قلوب والقاهرة) : " وهو موضع أيضا حفيل " (٢) ، وقوله عن القاهرة : " وهى مدينة السلطان الحفيلة المتسعة " (٣) ، وقوله عن مقبرة الإمام الحسين رضى الله عنه بالقاهرة : " قد بنى عليه بنيان حفيل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به " (٤) ، وقوله فى وصف كلام : " كلام مسجوع حفيل الدعاء والثناء " (٥) ، وقوله عن لزحام السوق التى كانت على أيلمه بين الصفا والمروة وكان على الساعين بين هذين المشعرين أن يخوضوا فى زحلمها خوضا ليؤدوا منسكهم : " وما بين الصفا والمروة مسيل هو اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامة " (٦) ، وهو نفس الوصف الذى وصف به أسواق مدينة " الحلة " العراقية ، إذ قال : " ولهذه المدينة أسواق حفيلة جمعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية " (٧) ، وسوق قرية " صرصر " (العراقية أيضا) : " وبهذه القرية سوق حفيلة ومسجد جامع كبير جديد " (٨) ، وأسواق الجانب الشرقى من بغداد : " والشرقية حفيلة الأسواق ، عظيمة الترتيب ، تشتمل من الخلق على بشر لا يحصىهم

١- انظر " مستفاد الرحلة والاغتراب " / تحقيق عبدالحفيظ منصور / الدار العربية للكتاب / ليبيا - تونس / ١٤٩٥هـ - ١٩٧٥م / من ٤٥٩٢٠٤٣٧١٤٥ وإن كان قد استخدمها أيضا بمعنى ضبط الكلمات المنبسة بالشكل . انظر ص / ٢٣٦٨٠٦٥٣٧ مثلا .

٢- انظر " رحلة ابن بطوطة " / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م / من ٣٨٢١٣ وإن كان قد استعمالها أيضا بمعنى ضبط الكلمات بالشكل لمنع الالتباس . انظر كراتشكوفسكى / الأقطاب الجغرافى العربى / القسم الأول / من ٤٢٥ ٢٧٨/٢

٤- انظر عمر غروخ / تاريخ الأقطاب العربى / ح ٦ / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٨٢م / ص ٦٠

٥- الرحلة الحجازية / تحقيق على الشنوفى / ح ١ / الشركة التونسية للتوزيع / ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م / من ٤٢

٦- ص / ٤٢

١- الرحلة / ص ١٨

٢- ص / ١٨

٣- ص / ١٨

٤- ص / ١٨

٥- ص / ٢٥

٦- ص / ٨٥

٧- ص / ١٨٩

٨- ص / ١٩٢

إلا الله تعالى الذي أحصى كل شيء عدداً (١) ، وقوله في وصف ليلة الأول من أحد الشهور العربية في المسجد الحرام : " وكنت ليلة لستهلال هلاله من الليالي الحفيلة في المسجد الحرام " (٢) ، وقوله في سياق وصفه لمسجد مولد النبي في مكة : " وبإزائه (أي بإزاء مكان ولادته صلى الله عليه وسلم) محراب حفيل القرنصة " (٣) ، وقوله في الكلام عن قبر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : " وفي هذا المشهد بناء حفيل على ما ذكر لنا " (٤) وهو مقاله عن مشهد " عون ومعين " : " وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد حفيل البنيان داخل قبر متسع السنام " (٥) ، وقوله في الحديث عن مستشفى : " مارستان حفيل " (٦) ، ثم قوله في الإعجاب بولاية دعى إليها في عكا : " فأضاف (رئيس إحدى المياع بعكا) جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة ، وأحضرهم صغيراً وكبيراً في غرفة متسعة بمنزله وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها لهم " (٧) إلخ .

من هذه النصوص ، وهي مجرد أمثلة ، نرى مدى غرل ابن جبير بهذه الكلمة ، فهو من ناحية يكثر من استخدامها ، ومن ناحية أخرى يستعملها في سياق لا تستخدم فيه عادة . إن من المؤلف وصف سوق مثلاً بأنه حفيل . لكن ابن جبير يصف بهته الكلمة المقبرة والولاية والكلام ، وكذلك العمائر أيضاً ، لا على أنها أسكنة تحفل بالناس ، أي يحتشدون فيها ، بل بوصفها أثراً فنيا يملأ النفس دهشة وإعجاباً .

وتبرز كلمة " البسيط " (بمعنى " الأرض المبسوطة " ، أي السهل الممتد أو الأرض الممهدة الفضاء) أيضاً بين مفردات معجم ابن جبير . وقد يؤنثها : " بسيطة " . كما قد ترد عنده مجموعة : " بسائط " . وأحياناً يصف " البسيط " بأنه " أفيح " . وهذه الكلمة ، كلمة " أفيح " ، هي أيضاً من الكلمات التي تكررت في الرحلة على نحو يلفت النظر . وقد كانت مرتبطة في كل المواضع التي صدفها فيها على نحو أو على آخر مع كلمة " بسيط " . وأحياناً ما يستخدم " البسيط " وصفاً لا اسماً وهذه أمثلة على ذلك : يقول في دمنهور (عاصمة محافظة البحيرة الآن في مصر) : " وهو بلد مسور في بسيط من الأرض أفيح متصل من الإسكندرية إليه إلى مصر . والبسيط كله محراث (أرض تزرع وتُحراث) يعمه النيل بفيضه . والقرى فيه يمينا وشمالاً لاتحصى كثرة " (١) . ويقول عن تجمع الحجيج في عرفات : " فتكلم جمع الناس بعرفات .. و .. وصل أمير الحاج العراقي فحضر أبنته في البسيط الأفيح ما يلي الجانب الأيمن من جبل الرحمة في استقبال القبلة " (٢) . ويقول عن " عسنان " : " وهي بسيط من الأرض بين جبال " (٣) ، وهو مقاله عن " حُلَيْص " (قرية من عسنان) : " وهي أيضاً في بسيط من الأرض .. وفي البسيط حصن آخر قد أثر فيه الخراب " (٤) . ويقول في الكناية عن كثرة التجمع الحاشد وشدة ازدحامه : " يفص بهم البسيط الأفيح ، ويضيق عنهم الميهه الصحيح " (٥) . ويقول عن إحدى مراحل رحلة العودة إنهم قد نزلوا " في بسيط من الأرض " (٦) . ويقول بعد ذلك مباشرة ، مستخدماً

١- ص / ٢٠٤ .

٢- ص / ١٣١ .

٣- ص / ١٤١ .

٤- ص / ١٨٩ .

٥- ص / ٢٠٢ .

٦- ص / ٢١٠ .

٧- ص / ٢٢٥ .

١- ص / ١٨ .

٢- ص / ١٥٢ .

٣- ص / ١٦٢ .

٤- ص / ١٦٢ .

٥- ص / ١٦٢ .

٦- ص / ١٦٥ .

اللفظة وصفاً : " ثم رحلنا في مهمه أفصح بسيط ممتد مد البصر " (١) . ويقول عن " نجد " : " وما أرى أن في المعصور أرضاً أفصح بسيطاً ولا أوسع أنفاً ولا أطيب نسيماً - ولا أحسن اعتدالاً في كل الأزمان مكن أرض نجد " (٢) . وعن قرية " القراش " العراقية يقول : " وحولها بسيط أخضر جميل المنظر " (٣) . وعن مدينة حمص السورية : " موضوعة في بسيط من الأرض - أفصح أغبر " (٤) . ثم في كلامه عن " ثنية العقاب " (قرب دمشق) : " وجزناً ثنية العقاب ، ومنها يشرف على بسيط دمشق وغطتها " (٥) . لما في النص التالي فإنه يستخدم اللفظ لسماء : مؤنثاً : " ومثينا في بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أنماها ولا يبلغ مداها " (٦) . كما استخدمه مرتين لسماء مجموعاً في قوله : " والطريق من الحلة إلى بغداد أحسن طريق وأجملها في بسائط من الأرض وعمائر تتصل بها القرى يمينا وشمالا . ويشق هذه البسائط أغصان من ماء الفرات تسرب بها وتسقيها " (٧) . ومرة في قوله عن دجلة والفرات : " والبسائط والقرى والمزارع متصلة بين هذين النهرين الشريفين المباركين " (٨) . ومثلها في وصف المدخل إلى بغداد : " والمدخل إليها على بسطين وبسائط يقصر الوصف عنها " (٩) .

وفي " الصحاح " للجوهري : " البَسَاط (بالفتح) : الأرض الواسعة . يقال : مكان بسيط

وبَسَاط " (١) . وفي " معجم مقاييس اللغة " لابن فارس " البَسَاط : الأرض . وهي البسيطة . يقال : مكان بسيط وبَسَاط . وهو بسيط الجسم والباع والعلم " (٢) . وفي الفيروزباني : " البَسَاط (بالفتح) : المنبسطة المستوية من الأرض كالبيطة ، والأرض الواسعة . وثكسرو كالبيط - والبسيطة : الأرض " (٣) .

وقد كان من تأثير كثرة استعمال هذه الكلمة ، فيما يبدو ، في رحلة ابن جبير ، التي رجع محمد رشيد رضا إليها واقتبس منها فيما كتبه عن رحلته إلى أرض الحجاز للحج ، أن وجدت هذا الأخير قد استخدمها في وصف عرفات ثلاث مرات على الأقل : (هكذا : " بسيط عرفات ") (٤) . والذي جعلني أعزو هذا إلى تأثير ابن جبير أن رضا لم يستعمل هذه اللفظة ، فيما تنبّهت ، على مدى رحلاته كلها التي جمعت في كتاب بعد وفاته ، إلا في هذه الصفحات التي تلت ما نقله من كلام ابن جبير المتقدم ذكره عن عرفات ، وفيه أنها " بسيط من الأرض " (٥) . وأكد هذا عندي أنه في كلامه عن نفس موضوع عرفات ، في سياق إشارته إلى كتاب " دليل الحاج " لمحمد باشا صادق ، عدل عن كلمة " بسيط " إلى قوله : " سطح البقعة المستوية من عرفات " (٦) ، متأثراً أغلب الظن بعبارة محمد باشا صادق نفسه .

ومن الألفاظ التي تكررت في رحلة ابن جبير كلمة " تملدي " ، التي يستعملها بمعنى " استمر " وهذه بعض الشواهد على ذلك : " وتملدي عصف الرياح واشتدت حلقة الظلمة وعمت

١- ص / ١٦٥ .

٢- ص / ١٨٢ .

٣- ص / ١٩١ .

٤- ص / ٢٣١ .

٥- ص / ٢٢٢ .

٦- ص / ١٨١ .

٧- ص / ١٩٠ .

٨- ص / ١٩٢ .

٩- ص / ١٩٣ .

١- الصحاح / مادة " بسط " .

٢- معجم مقاييس اللغة / مادة " بسط " .

٣- القاموس المحيط / مادة " بسط " .

٤- رحلات الإمام محمد رشيد رضا / جمع وتحقيق د يوسف إيس / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ط ١ /

١٩٧١ / ص ١٥٩-١٦٤ .

٥- المرجع السابق / ص ١٥٥ .

٦- المرجع السابق / ص ١٥٩ .

الآفاق " (١) " وتمادت تلك السحابة المباركة إلى قريب المغرب ، وتملأى الناس على تلك الحال من الازدحام على تلقى ماء الميزاب بالأيدى والوجوه والأفواه " (٢) . " وظهر من تزامهم مظهر من السرو اليمينين . وتملأين على ذلك صدرا من النهار ، ونفسحن فى الطواف والججر، وتشفين من تقيل الحجر واستلم الأركان " (٣) . " وتملأى مقلم (أى بقاء) سيف الإسلام فى البيت الكريم مدة طويلة " (٤) . " يقوم ، حثام التملأى فى الشهوة ؟ وإلام تستنون فى طرق الهفوة ؟ " (٥) . " فلما كان يوم الخميس بكر الناس بالمعبد إلى منى وتمادوا منها إلى عرفات " (٦) . " فلما كان ظهر يوم الاثنين إثر الصلاة أفلعنا من خليس مرتحلين ، وتملأى سيرنا إلى العشاء الآخرة " (٧) . " فأقلعنا منها (من المدينة المنورة) ظهر يوم السبت المذكور ، وتملأى السير بنا إلى إثر صلاة العشاء الآخرة " (٨) . " والزولرق فيها لاتحصى كثرة ، فالناس ليلا ونهارا من تملأى العبور فيها فى نزمة متصلة رجالا ونساء " (٩) . " وتملأى سيرنا إلى أن لوتقع النهار " (١٠) . " على أن القدر المحمود لم يسبب لنا إلا محبة الأشبه (أى الأحسن) منهم ومن شكرناه على طول المحبة وتمليها من مكة ، شرفها الله ، إلى

- ١- ص / ٥٠
- ٢- ص / ٩٥
- ٣- ص / ١١٦
- ٤- ص / ١٢٦
- ٥- ص / ١٤٧
- ٦- ص / ١٥٠
- ٧- ص / ١٦٥
- ٨- ص / ١٦٧
- ٩- ص / ٢٠١
- ١٠- ص / ٢٠٧

الموصل " (١) . " فتملأى سيرنا إلى أول الظهر " (٢) . " وأقمنا بها يوم الأحد المذكور ويوم الاثنين بعده . ورحلنا منها وتملأينا إلى العشى . ثم رحلنا عند المغرب وأسرينا طول ليلتنا ، وتملأى سيرنا إلى الضحى " (٣) . " وتملأى مقلنا فيه مدة اثنى عشر يوما لعدم استقامة الريح " (٤) . " وتملأى (الريح اللينة) وانتشرت بفضل الله تعالى " (٥) . والملاحظ أن السياقات التى وردت فيها هذه الكلمة هى فى الغالب سياقات حركة من سير أو سفر أو هبوب ريح .

وكلمة " المصنع " هى أيضا من الكلمات التى تكرر ورودها فى الرحلة بمعنى " البناء " كالتصو والمعد مثلا ، أو بمعنى " الحوض الذى يحفظ فيه الماء " . يقول واصفا مشهد الحسين رضى الله عنه فى القاهرة : " وعلقت عليه قناديل فضة ، وحُف أعلاه كله بأشكال التفليح فمبا فى مصنع شبيه الروضة يقيد الأبصار حسنا وجمالا " (٦) . ويقول فى مدينة إخميم المصرية : " وبهذه المدينة آثار ومصانع من بنيان القبط وكنائس معسورة إلى الآن بالمعاملين من نصارى القبط " (٧) وقال عن المعبد المصرية التى يسميها ، كما كان العرب القلماء يسمونها ، " البرابى " : " وكذلك يعرف كل هكل عندهم وكل مصنع قديم " (٨) . وقال عن جدة : " وبخارج هذه المدينة مصنع قديمة ثدل على قنم اختطاطها ،

- ١- ص / ٢١٣
- ٢- ص / ٢١٥
- ٣- ص / ٢٢٢
- ٤- ص / ٢٨٤
- ٥- ص / ٢١٩
- ٦- ص / ١٩
- ٧- ص / ٢٦
- ٨- ص / ٢٦

ويُذكر أنها كان من مدن الفرس " (١) . " فكم له (ملك مصقية) فيها (أى فى بالرم عاصمته) .
لاغيرت به . من مقاصير ومصانع ، ومناظر ومطالع " (٢) . " ومن أعجب مشهدها بها (أى ببالرم)
من أمور الكفران كنيسة تعرف بكنيسة الأنطاكي ... ويقع القطع بأنها أعجب مصانع الدنيا
المزخرفة ، جدرها الداخلة ذهب كلها " (٣) .

ويقول : " ثم نزلنا يوم الأربعاء - بموضع يعرف بالنقرة ، وفيها بئر ومصانع كالصهاريج
الغظام . وجدنا أحدها مملوءا بماء المطر " (٤) . " ونزلنا ليلة الخميس الثالث عشر
لمحرم - على ماء يعرف بالقارورة ، وهي مصانع مملوءة بماء المطر " (٥) . " وفي يوم
الخميس المذكور - بالحاجر ، والماء فيه فى مصانع . وربما حفروا عليه حُقرا قريبة العنق
يسمونها أحفارا ، واحدها حُقرا " (٦) . " وأصبحنا على قيد يوم الأحد - والمياه فيها بحمد
الله موجودة فى مصانع كثيرة " (٧) . نزلنا ضحوة يوم الخميس الموافق عشرين محرم ،
والثالث لماية (مايو) . بموضع يعرف بالثعلبية - وبإزاءه مصنع كبير الدور من أوسع
مايكون من الصهاريج وأعلاما " (٨) . " وفى ضحوة يوم الجمعة - نزلنا بموضع يعرف ببركة
المرجوم ، وهي مصنع . وقد بنى له فيما يعلوه من الأرض مصب يؤدي الماء إليه على بُعد -
وكان هذا المصنع مملوءا من ماء المطر ، فغمر الناس وعمهم ، والحمد لله . وهذه المصانع

والبرك والآبار والمنازل التي من بغداد إلى مكة هي أشار زبيلة ابنة جعفر بن أبى
جعفر المنصور ، زوج هارون الرشيد وابنة عمه " (١) . " وفى ضحوة يوم السبت بعده نزلنا بموضع
يعرف بالشقوق ، وفيه مصنعان ألفيناهما مملوءين ماء عذبا صافيا ... وأحد هذين المصنعين
مهرج عظيم الدائرة كبيرها لا يكاد يقطعه السليح إلا عن جهد ومشقة - ومن لطائف صنع الله
تعالى بوفده وزوار حرمه أن كانت هذه المصانع كلها عند صعود الحاج من بغداد إلى مكة دون ماء
فأرسل الله من سحب رحمته ما أترعها ماء مَعْدَا لَصَدْر الحاج " (٢) . " وتنا بموضع يعرف
بالتنوير . وكان فيه أيضا مصنع مملوء ماء - واجتونا - بربالة - وفيها قصر مشيد
من قصور الأغراب ومصنعان للماء وآبار - ونزلنا - باليشين ، وفيها مصنعان
للماء " (٣) . " وأجزنا يوم الأربعاء - بموضع فيه آثار بناء يعرف بالقرعاء ، وفيه أيضا مصنع
ماء - وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها " (٤) .

من هذه النصوص يتبين أن ابن جبير استخدم كلمة " مصنع " فى معنى " البناء " كالقصر
والحصن وما أشبه ، ومعنى " حوض الماء " كليهما وبعض المعاجم تنص على أن " المصنع "
إمسا - البناء فقط قصرا كان أو حصنا . أما الحوض الذى يجمع فيه ماء الطر
فيسمى " المصنعة " (بفتح النون وضما) ، بزيادة تاء (٥) .

ثرى هل تجوز ابن جبير فاستخدم كلمة " المصنع " فى المعنيين كليهما ؟ لقد أشار مهش
الكتب وشارح ألفاظه فى الهمش الأول من الصفحة الثانية والثمانين بعد المائة فى شرح

١- ص / ٥٢.

٢- ص / ٢٠٥.

٣- ص / ٢٠٦.

٤- ص / ١٨١.

٥- ص / ١٨١-١٨٢.

٦- ص / ١٨٢.

٧- ص / ١٨٣.

٨- ص / ١٨٤.

١- ص / ١٨٤-١٨٥.

٢- ص / ١٨٥.

٣- ص / ١٨٥.

٤- ص / ١٨٦.

٥- انظر مادة " صنع " فى " المحاح " ، وفى " القاموس المحيط " ، وفى " مختار الصحاح " ، وفى المنجد .

كلمة "مصانع" (من قول ابن جبير: "وهي مصانع مملوءة بماء المطر") قائلا: "المصانع الواحدة مصنعة: ما يجمع فيها ماء المطر كالحوض". ولم ينتبه أو لم يهتم بأن ينتبه إلى أن ابن جبير كلما استخدم مفرد هذا الجمع لم يستخدمه قط بتاء بل بدونها.

مرة ثانية، هل تجوز ابن جبير فاستخدم كلمة "مصنع" في المعنيين كليهما؟ (١) لا، فإن هناك معالجم أخرى نصت على أن اللفظتين كليهما تعنيان الحوض وشبهه الصهريج يجمع فيه ماء المطر (٢). بل إن "أساس البلاغة" مثلا يذكر أن "المصنعة" تعني "القصر والقرية"، أي أنها تشترك مع "المصنع" في المعنيين كليهما: معنى "البناء" ومعنى "حوض الماء".

هذا، ولعل القارئ قد لاحظ من النصوص السابقة أن كلمة "الصهريج" هي أيضا من الكلمات التي تكثر في أسلوب ابن جبير. وهي موجودة في نصوص أخرى.

وقد أشار د. عبدالرحمن حميدة، وهو مغربي، أن كلمة "صهريج" هي استعمال مشرقى، على حين أن أقطار المغرب العربي تقول "ماجن" (٣). فإذا محنت هذه الملاحظة فإن ابن جبير (وهو ينتمي إلى المغرب الإسلامي) قد تنكب باطراد الكلمة المغربية "ماجن" ولجأ في كل الأحوال، كما رأينا، إلى كلمة "صهريج" المشرقية وكلمة "مصنع".

ومن المفردات التي تكررت في الرحلة أيضا كلمة "دور"، وأحيانا كلمة "دائر" (بمعنى "محيط الشيء أو قطره")، وذلك في النصوص التالية وغيرها: "ومنتهى دور الجزيرة (أي

قطر جزيرة سردينية) - إلى أزيد من مائة ميل" (١). وجاء في وصف أحد المعابد الفرعونية في مدينة إكسيس المصرية: "قد قام هذا الهيكل على أربعين سارية - دور كل سارية منها خمسون شبرا" (٢). وقال في البيت الجرم: "ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلى بالفضة المنجبة المستحسنة" (٣) وقال في وصف أحد الجدران فيه: "ودور الجدار خام كله مجزوع ببيع الإصاق" (٤). وفي وصف بلاط الحجر في المسجد الحرام أيضا: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

البحر في مدينة صقلية: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

البحر في مدينة صقلية: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

البحر في مدينة صقلية: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

البحر في مدينة صقلية: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

البحر في مدينة صقلية: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

البحر في مدينة صقلية: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

البحر في مدينة صقلية: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

البحر في مدينة صقلية: "وهو مفروش بالرخام المجزوع المقطع في دور الكف إلى دور الدنار إلى مافوق ذلك" (٥). وفي بئر زمزم: "ودوره أربعون شبرا" (٦). وفي محراب المسجد: "وسر دائر المحراب كله بمسليير حديدية الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٧). "فجعل دائره الأعلى كله شمعا" (٨). وفي وصف أحد المصانع (أي أحواض الماء) المنتثرة على الطريق: "وبازائه مصنع كبير الدور من أوسع ما يكون من الصهاريج وأعلما" (٩). وفي جامع مدينة حران: "وفي الصحن أيضا قبة رابعة عظيمة قد قلمت على عشر سوار من الرخام دور كل سارية تسعة أشبار، وفي وسط القبة عمود من الرخام عظيم الجرم دوره خمسة عشر شبرا" (١٠). وفي وصف بعض الأعمدة التي تحمل قبة جامع

- ١- ص ١٠.
- ٢- ص ٢٦.
- ٣- ص ٦٠.
- ٤- ص ٦٤.
- ٥- ص ٦٤.
- ٦- ص ٦٦.
- ٧- ص ١٢٨.
- ٨- ص ١٢٩.
- ٩- ص ١٨٤.
- ١٠- ص ٢٢١.

دمشق والتي يسميها "أزجلاً" : "فيكون دور كل رجل منها اثنين وسبعين شبرا". وفي حوض
رأسها في جامع دمشق : "ودور كل منها نحو الأربعين شبرا" (١). وفي قبة الرصاص في الجامع
المذكور : "ودور هذه القبة الرصاصية ثمانون خطوة" (٢) - إلخ.

إن "الدور" مصدر "دار يدور" واسم منه أيضا ، "والدائر" اسم فاعل من نفس الفعل . ولم
أجد في المعاجم التي رجعت إليها بالمعنى الذي استخدمتها فيه ابن جبير (٣) . ولست
أقصد بهذا تخطئه ، ولكنني أشير فقط إلى أن في استعماله للغة كما هو واضح حرية لاتجعله
يقف عند ما أثبتته المعاجم فقط . والمعاجم على كل حال إنما تورد ما قاله الأدباء الكبار
من شعراء وكتاب . وكان ينبغي ألا تقف عند تسجيل استعمالات الأدباء القدماء فقط ، فإنهم
لا يمثلون كل اللغة ، لأن اللغة لم تتوقف عند العصور القديمة ، بل هي مستمرة الحرك
والتطور . ولا أدري لماذا يُنظر إلى المتنبي مثلا والجاحظ وابن المقفع والشريف الرضي
والبهاء زهير وشوقي والعقاد والمنفلوطي وأحمد حسن الزيات ... إلخ على أنهم أدنى معرفة
باللغة من أمراء القيس وطرفة والأعشى وحسان والفوزدق وجريب ؟ إن أولئك يعرفون اللغة
كما كان هؤلاء يعرفونها ، بل ربما كان أولئك أكثر تعمقا فيها بحكم ثقافتهم الأوسع وإلمامهم
بما جد في ميادين علوم اللغة وغيرها ، مما لم يكن هؤلاء القدماء يلمون ولا بعشر معشاره . ثم إن

١- ص ٢٤٦.

٢- ص ٢٦٦.

٣- بالنسبة لكلمة "دور" ، ورد في "أساس البلاغة" التي : "وتفسح دور علمته وأقولها" : كما ورد في "تكملة
المعاجم العربية" لدوزي : "ودور الكواكب : مدله" . ولعلها أقرب شيء إلى استعمال ابن جبير .

أما "دائر" فلم أجد في أي من المعاجم التي رجعت إليها والتي سوف أذكر أسفلا بعد قليل عند ومولي إلى
كلمتي "قبلي" و "جولي" اللتين تكرر استعمال وحالتهما ، اللهم إلا في "تكملة المعاجم العربية" لرينولد
دوزي . جاء فيه : "دائر : حافة ، حاشية ، إطار ، سياج ، حائط ، سور ، نطاق (و) دائر المدينة : شارع عريض
تكتنفه الأشجار يحيط بالمدينة" .

أولئك عرب كما كان هؤلاء عربا ، واللغة لغتهم كما كانت لغة هؤلاء . ينبغي إذن ألا نخطئ ابن
جيب لأنه استخدم كلمتي "دور" و "دائر" في معنى لم تورد المعاجم لهما ، إذ كل ما قلناه
وحالتهما الأندلسي ، رحمه الله ، هو أنه توسع في استعمالهما . واللغة لاتأبى هذا ، بل هي في
جانب كبير منها قائمة عليه . إنما لو رفضنا التوسع في الاستعمال اللغوي كباب من أبواب
إغناء اللغة فإنها ستبقى ضيقة خائفة لاتقوم بحاجة مستعملها .

وبالنسبة فإن ابن عبد السلام الدرعي المغربي ، وهو رحالة مغربي شهير جاء بعد ابن
جيب بقليل ، ونقل عنه في رحلته وترجم له ، قد استخدم هذه الكلمة بهذا المعنى ، وذلك في
قوله : "ودور (المهريج) الكبير نحو الثلاثين ذراعا" (١) .

وقريب من ذلك استخدام أبي دلف (رحالة مشرقى عاش في القرن الرابع الهجري) في رحلته
لكلمة "استدارة" بهذا المعنى . قال : "وشامت بحيرة تكون استدارتها نحو جريب" (٢) .

ولم ننسأ في مجال الهندسة والعمارة فإن في رحلة ابن جيب كلمتين أخريين ترددان
وتتصلان بهذا المجال ، وهما كلمتا "التكسير" و "التدريج" ، بمعنى " (حساب) مساحة
شيء ما " . وهذه بعض أمثلة :

فمن ذلك قوله عن المسجد الحرام : "والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات ... ذرعا في
الطول أربعائة ذراع ، وفي العرض ثلاثمائة ذراع ، فيكون تكسيه محققا ثمانية وأربعين
مرجعا" (٣) . وقوله عن مسجد رسول الله عليه السلام : "وأقيت بخط ... أبي جعفر الفنكي
القطبي أن ... طول مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة ذراع ، وعرضه مئتان ... ،
فيكون تكسيه أربعة وعشرين مرجعا من المراجع المغربية ، وهي خمسون ذراعا في مثلها ،

١- انظر حمد الجاسر / ملخص رحلتى ابن عبد السلام الدرعي المغربي / ط ٢ / دار الرفاعي / ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م / ص ٥٣ .

٢- رسالة الثانية لأبي دلف / نشر وتحقيق بولماكوف وخالدون / ترجمة د محمد خير مرسى / ط ١ / عالم الكتب /

وطول مسجد بيت المقدس سبعمائة وثلثون ذراعا ، وعرضه أربعمائة وخمسون ذراعا - فيكون تكسيه من المراجع المذكورة مائة مرجع وأربعين مرجعا وخمس مرجع " (١) ، وعنونه للفصل الذي خصه لقياس أطوال مسجد دمشق : " ذكر تدريعه ومساحته وعند أبوابه وشمسيته " (٢) ، وقوله تحت ذلك مباشرة : " ذرعه في الطول - مائتا خطوة - ، وذرعه في السعة - مائة خطوة وخمس وثلاثون خطوة - فيكون تكسيه من المراجع المغربية أربعة وعشرين مرجعا ، وهو تكسير مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم " (٣) .

وقد وجدت أبادلف مثلا يستخدم هذه الكلمة أكثر من مرة في " الرسالة الثانية " (٤) ، وكذلك صاحب كتاب " مجموع المقترق " (٥) .

وهذه الكلمة رغم قدم استعمالها في هذا المعنى ، كما نرى ، لا توجد في معجم ك " القاموس المحيط " ولا في " المعجم الوسيط " ولا " الصحاح في اللغة والعلوم " . لما " لسان البلاغة " فكل ماورد فيه : " كسر : ضرب الحساب الكسور بعضها في بعض " ، وهو معنى يقترب إلى حد ما من المعنى الذي نحن بصدده . وجاء في " تاج العروس " أن " التكسير " قد يستعمل بمعنى " المساحة " . كما جاء في " محيط المحيط " للبستاني : " والتكسير عند المهتمين يستعمل بمعنى المساحة " . كما ذكر هذا المعنى في " المنجد " ، وهو نفس المعنى الذي استعملها فيه ابن جبير . كما أن المستشرق فانيان Fagnan قد ذكر في معجمه " إضافات إلى المعاجم العربية : Additions aux dictionnaires arabes " شيئا قريبا من هذا ، إذ فسر " يكتّر " بأنها " يضرب عددا في عدد : multiplier " ، وفسر " مكتر " بأنه " المربع carré cube " .

١- ص ٨١

٢- ص ٢٢٦

٣- ص ٢٢٦-٢٢٧

٤- ص ٧٨٤٨٣٢ مثلا

٥- انظر " نفح الطيب " للمفري / تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الكتاب العربي / بيروت / ج ٢ / ص ٨٤

ومعروف أن " المساحة " تتأني من ضرب العدد الذي يمثل " الطول " في العدد الذي يمثل " العرض " ، وإذا كان " الطول " يساوي " العرض " فإن المساحة تكون على شكل " مربع " . وابن جبير يستخدم أحيانا ، بدل كلمة " العرض " ، كلمة " السعة " ، كما في النصوص التالية :

" طسوله مائتا ذراع وعشرون ذراعا ، وسعته مائة وستون ذراعا " (١) . وفي وصفه لباب البيت الحرام : " وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا " (٢) . وفي مقام إبراهيم عليه السلام : " وهو حجر مغشى بالفضة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقدار شبرين " (٣) . وسعته ثلثا شبر ، وطوله شبر وعقد " (٤) . في ارتفاعه أزيد من شبر ، في سعته شبران أو أزيد قليلا " (٥) . " وطول الغار ثمانية عشر شبرا ، وسعته أحد عشر شبرا في الوسط منه " (٦) .

وقد لاحظت أن ابن جبير قد تكرر استخدامه للفعل " كال " في قياس أطوال الأشياء كنوع من التوسع في التعبير ، وإلا فـ " كال " معناها في الأصل قياس الحب والنقيق وما أشبه بالكيل .

جاء في وصف أحد الهياكل المصرية القديمة : " والسورى كلها منقوشة من أسفلها إلى أعلاها وقد انتصب على رأس كل سارية منها إلى رأس صاحبها التي تليها لوح عظيم من الحجر المنحوت ، من أعظمها ما كلنا فيه ستة وخمسين شبرا طولا وعشرة أشبار عرضا وثمانية أشبار لارتفاعا " (٧) . ويقول في الكلام عن المسجد الحرام : " وبين الركن العراقي وبين أول

١- ص ٢٦

٢- ص ٦٠

٣- ص ٦٢

٤- ص ٦٦

٥- ص ٦٩

٦- ص ١٤٠

٧- ص ٣٦

جدوا الجحر مدخل إلى الجحر سعة أربع خطا، وهي سمت أذرع محصنة كلنهما باليد (١). وعن الكعبة: "فدل ذلك على أن الكعبة المقدسة في وسط المسجد، وكان يظن بها الانحراف إلى جهة باب الصفا، فاخبرونا جواربها المباركة بالكيل، فوجدنا الأمر صحيحا" (٢).

ومن الكلمات التي يكثر من استعمالها ابن جبير لفظا "القبلى" و "الجوفى". أو "القبلة" و "الجوف"، وذلك في كلامه عن الجهات الجغرافية (٣). فلما "القبلة" والنسبة إليها (قبلى) فمفهوم أمرهما. ولما "الجوف" فيبدو أنه في الأصل جوف المسجد (أى الجهة المقابلة للقبلة). وقد لوحظ أنه استخدم كلمة "القبلى" و "الجوفى" في كثير من الأحيان للدلالة على الجنوب والشمال على الترتيب ولكن كيف تدل كلمة "قبلى" على الجنوب واتجاه القبلة كما نعرف يتغير حسب موقع كل بلد؟

إن الأستاذ عبد القدوس الأنصارى، رحمه الله، يرى أن تفسير ذلك هو أن ابن جبير قد جرى في هذا "على تعبير أهل المدينة المنورة ومافى شمالها من المدن، لأن القبلة تقع في جنوبهم فيسون مايقع جنوبهم باسم "القبلة" تسمية للمحل باسم الحال فيه، فهو من المجاز المرسل ويبسود لنا أن هذه الصيغة من ملتقطات ذاكرة ابن جبير من لهجة أهل المدينة ولا تزال" (٤). وعلى هذا التفسير فينبغى ألا يكون ابن جبير قد استعمل هذه اللفظة قبل وصوله إلى المدينة المنورة والمدن التي في شمالها، ملما نعرف أنه كان يكتب رحلته أولا بأول على شكل أشبه باليوميات. وكذلك ينبغى ألا يكون استخدمها في معنى "الجنوب" في البلاد التي لاتقع فيها الكعبة في جنوبها. فهل هذا صحيح؟

١- ص/٦٢.

٢- ص/٨٦.

٣- انظر على سبيل المثال ص/ ٢٥٤، ٢٥٢، ٢٤٢، ٢٣٩، ٢٣٨، ٢٣٧، ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٣٣، ٢٣٢، ٢٣١، ٢٣٠، ٢٢٩، ٢٢٨، ٢٢٧، ٢٢٦، ٢٢٥، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٢، ٢٢١، ٢٢٠، ٢١٩، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٦، ٢١٥، ٢١٤، ٢١٣، ٢١٢، ٢١١، ٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٧، ٢٠٦، ٢٠٥، ٢٠٤، ٢٠٣، ٢٠٢، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٩، ١٩٨، ١٩٧، ١٩٦، ١٩٥، ١٩٤، ١٩٣، ١٩٢، ١٩١، ١٩٠، ١٨٩، ١٨٨، ١٨٧، ١٨٦، ١٨٥، ١٨٤، ١٨٣، ١٨٢، ١٨١، ١٨٠، ١٧٩، ١٧٨، ١٧٧، ١٧٦، ١٧٥، ١٧٤، ١٧٣، ١٧٢، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩، ١٦٨، ١٦٧، ١٦٦، ١٦٥، ١٦٤، ١٦٣، ١٦٢، ١٦١، ١٦٠، ١٥٩، ١٥٨، ١٥٧، ١٥٦، ١٥٥، ١٥٤، ١٥٣، ١٥٢، ١٥١، ١٥٠، ١٤٩، ١٤٨، ١٤٧، ١٤٦، ١٤٥، ١٤٤، ١٤٣، ١٤٢، ١٤١، ١٤٠، ١٣٩، ١٣٨، ١٣٧، ١٣٦، ١٣٥، ١٣٤، ١٣٣، ١٣٢، ١٣١، ١٣٠، ١٢٩، ١٢٨، ١٢٧، ١٢٦، ١٢٥، ١٢٤، ١٢٣، ١٢٢، ١٢١، ١٢٠، ١١٩، ١١٨، ١١٧، ١١٦، ١١٥، ١١٤، ١١٣، ١١٢، ١١١، ١١٠، ١٠٩، ١٠٨، ١٠٧، ١٠٦، ١٠٥، ١٠٤، ١٠٣، ١٠٢، ١٠١، ١٠٠، ٩٩، ٩٨، ٩٧، ٩٦، ٩٥، ٩٤، ٩٣، ٩٢، ٩١، ٩٠، ٨٩، ٨٨، ٨٧، ٨٦، ٨٥، ٨٤، ٨٣، ٨٢، ٨١، ٨٠، ٧٩، ٧٨، ٧٧، ٧٦، ٧٥، ٧٤، ٧٣، ٧٢، ٧١، ٧٠، ٦٩، ٦٨، ٦٧، ٦٦، ٦٥، ٦٤، ٦٣، ٦٢، ٦١، ٦٠، ٥٩، ٥٨، ٥٧، ٥٦، ٥٥، ٥٤، ٥٣، ٥٢، ٥١، ٥٠، ٤٩، ٤٨، ٤٧، ٤٦، ٤٥، ٤٤، ٤٣، ٤٢، ٤١، ٤٠، ٣٩، ٣٨، ٣٧، ٣٦، ٣٥، ٣٤، ٣٣، ٣٢، ٣١، ٣٠، ٢٩، ٢٨، ٢٧، ٢٦، ٢٥، ٢٤، ٢٣، ٢٢، ٢١، ٢٠، ١٩، ١٨، ١٧، ١٦، ١٥، ١٤، ١٣، ١٢، ١١، ١٠، ٩، ٨، ٧، ٦، ٥، ٤، ٣، ٢، ١.

الخ

٤- مع ابن جبير في رحلته / ص ٢٠٩/ ٢٠٨

لقد وصلت الرحلة إلى المدينة المنورة عند الصفحة السابعة والستين بعد المائة، ومع ذلك فإننا نقرأ قوله يصف موقع أبى الهول في الجزيرة في الصفحة التاسعة والعشرين، أى قبل أن يصل إلى المدينة، بل قبل أن تظا رجله أرض الجزيرة العربية بوقت طويل: "وجهه إلى الأهرام، وظهره إلى القبلة مهبط النيل". وبرغم الخطأ في تحديد اتجاه أبى الهول بالنسبة للأهرام وبرغم اضطراب العبارة فيما يبدو بالنسبة للنيل فمن الواضح أن ابن جبير يربط بين القبلة والجنوب، رغم أن قبلة مصر ليست إلى الجنوب، بل إلى الجنوب الشرقى كما هو معلوم.

وعند كلامه عن عذاب (ميناء مصرى قديم على البحر الأحمر) فى صفحة ٤١ يقول: "أخرجنا جميع رحالنا من زاد وسواه إلى المبرز، وهو موضع بقبلى البلد"، وإن كنا فى الحقيقة لاتدرى أى اتجاه يقصد هنا، لأن السياق لايساعد على ذلك. المهم أنه استخدم كلمة "قبلى" قبل وصوله إلى المدينة المنورة بل إلى الجزيرة العربية. فإذا كان استعمالها فى معنى "الجنوبى" فهو دليل على أنه لم يجر فى هذا على عرف أهل المدينة ومافى شمالها من المدن، بل على عرف أهل مصر، وإن كان استعمالها بمعنى "الغربى" مثلا فهو دليل على أنه لم يكن يستخدم هذه الكلمة دائما بمعنى "الجنوب".

وفى عرفات نجد ابن جبير ينبّه إلى أن "القبلة فى عرفات هى إلى مغرب الشمس، لأن الكعبة المقدسة هى إلى هذه الجهة منها" (١).

ذلك، ولا أذكر أنى صادفت كلمة "قبلى" (ولاكلمة "جوفى") فى غير هذه المواضع الثلاثة. وسبب ذلك فيما أحسب هو أنه لم يصف أى مسجد قبل ذلك (وهو الموضع الذى يهتم فيه غالبا بتحديد جهات أقسامه وأجزائه) فيما عدا المسجد الحرام، السذى لايمكن أن يقال فيه "قبلى"، إذ لايمكن نسبته إلى نفسه، لأنه هو نفسه القبلة. إنما كان يستخدم فيه كلمات

١- ص/١٥٢.

إذن فتفسير الأستاذ الأنصارى لاسم استعمال ابن جبير لمصطلح "القبلى" غير مقنع فيما يبدو. ويؤكد هذا أننا فى مصر نطلق لفظة "القبلى" على الجنوب، مع أن قبلتنا ليست إلى الجنوب، بل إلى الجنوب الشرقى. وليس هذا الاستعمال المصرى استعمالاً حديثاً أو مقصوراً على العلة، فقد صاغت مثلاً عند عرس الدين خليل بن شاهين الظاهرى (وكان نائب السلطان بالخرق فى عهد الملك الأشرف وتزوج أخت زوجته) فى كتاب "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" (هكذا: "القبلى والبحرى") (٢) كذلك فإن على باشا مبارك يستعمله فى تحديد مواقع البلاد فى "الخطط التوفيقية".

كذلك فقد وقعت على لفظة "القبلى" مستعملة عند عدد من الكتاب غير ابن جبير مقصوداً بها الجنوب، رغم أن قبلتهم ليست إلى هذه الجهة بالضبط. ومن الصعب القول إنهم جميعاً قد أخذوا هذا الاستعمال عن أهل المدينة المنورة أو أهل المدن الواقعة شمالها.

يقول يعقوبى عن أهل القيروان: "ولهم واد يسمى وادى السراويل فى قبة المدينة" (٣).

ويقول ابن حيان القرطبى: "ويأوى ليلة إلى بيت فى ديرة والده محمد بجوفى المسجد الجامع" (٤). ويقول أيضاً: "من أبواب القصر القليلة" (٥). ويقول أبو عبيد

١- لما كلمة "الجوفى" فى النص التالى فتعنى "الشمال"، ذلك أن الكلام فيه عن مواقع مدن لاسمجد ويؤكد هذا أنه لم يستعمل فى مقابل "الجوفى" هنا "القبلى"، بل "الجنوب": "وهذه البلاد - المعروفة بديار ربيعة، وحدثنا من نصيبين إلى الفرات مع مايلى الجنوب من الطريق وديار بكر التى تليها فى الجانب الجوفى - ليس فى ملوكها من يناهض صلاح الدين" ص/٢٢٢. ومثله فى ذلك النص التالى أيضاً: "ولها (أى منبج) قلعة حصينة فى جوفها" ص/٢٢٤.

٢- ص/٢٢٥.

٣- انظر ص/ ٣ من كتابه "البلدان" / ٢٤ / النجف الأشرف / ١٩٥٧م.

٤- المتبس من أبناء أهل الأندلس، لابن حيان القرطبى / تحقيق وتقديم د. محمود على مكي / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة / ١٣٩٠م - ١٩٧١م / ص ٣٥.

٥- لى قصر الخلافة بقرطبة (المتبس) / ص ١٥٩.

"شمال" و"جنوب" و"شرق" و"غرب"، أو يقول مثلاً: "الركن العرفى" و"الركن الشلمى" و"الركن اليمانى" (١).

هذا قبل وصوله إلى المدينة. لما بعد تركه لها فإننا نجده مثلاً فى حديثه عن جامع الكوفة يقول: "وهو جامع كبير، فى الجانب القبلى منه خمسة أبلطة (أبهاء)، وفى سائر الجوانب بلاطان". وفى الزاوية من هذا البلاط القبلى المتصل بآخر البلاط الغربى شيء مسجد صغير". ويتصل بهما فضاء متصل بالجدار القبلى من المسجد". وفى الجهة الشرقية من الجامع بيت صغير... وفى جوفى الجامع على بعد منه يسير سقاية كبيرة من ماء الفرات (٢). فهل يراد بالجانب "القبلى" هنا الجنوب وبـ "الجوفى" الشمال؟ لا أظن. ذلك أن الحديث هنا عن مسجد فى الكوفة، وقبة مساجد الكوفة ليست إلى الجنوب، بل إلى الجنوب الغربى. إنما التجوز فى كلام ابن جبير هو، فيما يبدو لى، فى إشارته هنا إلى "الشرق" و"الغرب"، لأنه إذا كان الجدار القبلى للمسجد هو إلى الجنوب الغربى، والجوفى إلى الشمال الشرقى، فإن الجدارين الآخرين هما إلى الشمال الغربى (لا الغرب) والجنوب الشرقى (لا الشرق). ومثله فى هذا قوله: "ويسكن فى إحدى الزوايا الجوفية من جامعها المكرم (جامع مدينة نصيبين) الشيخ أبو القظان" (٣).

لما لفظ "القبلى" فى قوله عن نصيبين أيضاً: "وعلى النهر المذكور جسر معقود من صم الحجارة يتصل بباب المدينة القبلى" فلا أظنه يعنى إلا "الجنوب"، إذ الكلام عن موقع

١- انظر على سبيل المثال ص/ ٦٧، ٦٨، ٦٩. ومن الطريف أن التجيبى فى "مستند الرحلة والاغتراب" قد استخدم الصفة "قبلى" فى تحديد أحد الجدران بمكة نفسها. ويبدو أنه كان يقصد بذلك الجهة الجنوبية.

٢- ص/ ١٨٨، ١٨٧.

٣- ص/ ٢١٥.

ويذكر أحمد عبدالرحمن السامري ، نقلا عن كتب التاريخ ، أن أهل طليطلة ، رغم سقوطها في أيدي الأسبان في أواخر القرن الحادي عشر ، قد توارثوا (حتى النصارى منهم) بعض الشعائر الإسلامية ، كتحر النبلح يوم عيد الأضحى ، والامتناع عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير . وتحديد حدود الشيء من ناحية الجنوب بالقبلة (١) ، وإن عاد فقال إن ما كانت السلطات الأسبانية النصرانية تستدل به على أن المسلم الذي عمده القساوسة قسرا كان لا يزال مسلما في قلبه أن يستقبل المشرق في صلته ، أي القبلة (٢) على أية حال ، فالقبلة في الأندلس كانت إلى الجنوب الشرقي .

وهناك رواية أوردها كما قرأتها ، دون تعليق رغم استغرابي لها ، تقول إن اتجاه محراب جامع قرطبة (حتى الآن) نحو الجنوب ، ويقال إن الحكم أراد أن يوجه القبلة الاتجاه الصحيح ، ولكن القاضي نصحه بأن يتيها على ما كانت عليه ، حيث صلى إليها خيار الأمة وعلماءها منذ موسى بن نصير ، وأن الأفضل اتباع لا الابتداع (٣) .

وفي "معجم المصطلحات الجغرافية" للدكتور يوسف تروني (٤) وجدت في مادة "قبلي" الآتي : "قبلي : ١- من القبلة وفي مصر يقصد بها الاتجاه الجنوبي أو الجنوبي-الشرقي ٢- رياح محلية جنوبية حارة من نوع السيروكو أو الخماسين تهب على ليبيا وشمال إفريقيا"

ولم أجد فيه كلمة "جوفى" ، ولا وجدت في "معجم المصطلحات الجغرافية" (إصدار مجمع اللغة العربية) (٥) ، الذي لم يورد في مادة "القبلي" إلا الآتي : "القبلي : ربح محلية ساخنة"

١- رحلة مصورة إلى بلاد الأندلس الفردوس المفقود / دار الفكر بدمشق / ط١٤٠٣م ١٩٨٢م / ص ١٠٩ .

٢- ص ١٦٥ .

٣- أنظر د. عبدالعزيز النولتلي / مسجد قرطبة وقصر الحمراء / دار الجنوب للنشر / تونس / ص ٧٨ ، وأحمد عبدالرحمن السامري / رحلة مصورة إلى بلاد الأندلس / ص ٧٠-٧١ .

٤- طدار الفكر العربي / ١٩٦٤ .

٥- الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية / القاهرة / ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

البكري (القرن الخامس الهجري) : " وهي (أي تلمسان) مدينة مسورة .. ولها خمس أبواب: ثلاثة منها في القبلة .. وفي الشرق باب العقبة ، وفي الغرب باب أبي قررة ومدينة أرشقول .. لها من الأبواب باب القسوح غربي ، وباب الأمير قبلي ، وباب مرنم شرقي .. وأصنع جهات جوفها .. ولها ربض من جهة القبلة إلى الجوف " (١) .

كما استعمل ابن بطوطة أيضا عبارة "من القبلة إلى الجوف" بنفس المعنى عند ابن جبير (٢) وورد عنده عبارة "الباب الجوفى" ، أي "الشمالي" (٣) .

ويقول لسان الدين بن الخطيب : " ولم يكن إلا كذا ولا حتى تدعى التبا من عرب القبلة " (٤) : وقد فسر محقق الكتاب (دمختر العبادي) في الهامش كلمة " القبلة هنا هكذا : " المقصود بكلمة القبلة هو الجنوب ، وتقابلها كلمة الجوف بمعنى الشمال " (٥) وقال ابن الخطيب أيضا عن مقبرة المعتمد بن عباد بالمغرب " وهو بالمقبرة القبلة " (٦) .

وقد تكرر استخدام تعبير "من القبلة إلى الجوف" في "نفح الطيب" للمقري (٧) .

وفي أنشاء حديث د. السيد عبدالعزيز سالم (وهو أستاذ مصري متخصص في التاريخ الأندلسي) عن تصميم المدارس السنية في المغرب نسراه يقول : " وتحيط به (أي بعمارة المدرسة) من الشمال والشرق غرف صغيرة ضيقة أعدت لإقامة الطلبة . أما الجهة القبليّة التي كانت تقع عادة قبالة المدخل الرئيسي فكانت تشتمل على المصلى " (٨) .

١- أبويعيد البكري / كتاب المسالك والممالك / مكتبة المثنى ببغداد / ٧٦-٧٨ .

٢- رحلة ابن بطوطة / ص ٣٧٢٨٨٥٧ .

٣- ص ٩٢ .

٤- ابن الخطيب / نفاضة الجواب / تحقيق د. أحمد مختار العبادي / دار الكتاب العربي للطباعة والنشر / ص ٢٢٩ .

٥- نفس المرجع السابق والصفحة ٢٨ .

٦- نفس المرجع / ص ٥٧ .

٧- أنظر مثلا ص ٨٧٨٤ حيث ترد على الترتيب في نصين لصاحب كتاب "مجموع المقترق" ولبن يشكوال .

٨- من كتابه "مدارس فاس" ، نقلا عن د. حسن الباشا / مدخل إلى الآثار الإسلامية / دار النهضة العربية / القاهرة / ١٣٧٩م / ص ١٦٣ .

تربة تهب من الجنوب . يغلب استعمال المصطلح في ليبيا والمغرب .

أما في المعاجم اللغوية فلم أجد " القبلى والجوفى " بهذا المعنى في " القاموس المحيط " ولا " معجم مقاييس اللغة " لأن فارس ، ولا في " جوهرة اللغة " لابن دريد ، ولا في " المغرب في ترتيب المغرب " للمطوذي ، ولا في " أساس البلاغة " للزمخشري ، ولا في " المشوف المعلم في ترتيب الإصلاحيات على حروف المعجم " للعكبري ، ولا في " معجم متن اللغة " لأحمد رضا ، ولا في " الإفصاح في فقه اللغة " لموسى والصيدي ، ولا في " أقرب الموارد " للشرتوني ، ولا في " المعجم الوسيط "

وكذلك الحال في " لسان العرب " . ومع ذلك فقد ورد في هذا النص الهام (مادة " قبل ") : " وفي حديث ابن عمر : " ما بين المشرق والمغرب قبلة " أراد به المسافر إذا التبتت عليه قبلته ، فلما الحاضر فيجب عليه التحري والاجتهاد . وهذا إنما يصح لمن كانت القبلة في جنوبه أو شماله ويجوز أن يكون أراد به قبلة أهل المدينة ونواحيها فإن الكعبة جنوبها " وأهمية هذا النص تكمن في قراءته في ضوء الرواية التي أوردتها قبل قليل عن كون قبلة جامع قرطبة كانت إلى الجنوب وليس إلى الكعبة بالضبط .

وفي " إضاءة الراموس وإضافة الناموس على إضاءة القاموس " لمحمد بن الطيب بن محمد الفاسي : " القبلى منسوبة إلى القبلة وهي جهة الصلاة وناحية الكعبة المشرقة " . هذا كل ما هنالك

وفي " محيط المحيط " للبستاني : " والعلمة تستعمل القبلة لجهة الجنوب .. والقبلى : نسبة إلى القبلة " .

وفي " تكملة المعاجم العربية " لرينهارت دوزي : " جوفى : شمالي . ويكثر المصنفون المغاربة من استعمالها وريح جوفى : ريح الشمال " وهو الوحيد ، من بين المعاجم التي رجعت إليها ، الذي وجدت فيه هذا ويتفق عبدالقدوس الأتصاري معه في ذلك ، إذ يقول : " يقصد ابن جبير بالجهة الجوفية الجهة الشمالية وهذه الصيغة حملها معه في رحلته من بلاده .

التي تسمى جهة الشمال جوفاً " (١) .

وفي " المنجد " : " الجنوب .. النقطة المقابلة لنقطة الشمال ، وتسمى القبلة " . والغريب أنني عثرت فيه على ذلك بالصادفة ، إذ لم أجد في مادة " قبل " ، بل في مادة " جنب " .

وفي " الصحاح في اللغة والعلوم " (لنديم وأسماء مرعشلي) وردت " القبلى " (مادة " قبل ") بمعنى : " ريح محلية ساخنة تهب من الجنوب . ويغلب استعمال المصطلح في ليبيا والمغرب العربي " . وواضح أنه نقل هذا التعريف من معجم المجمع اللغوي للمصطلحات الجغرافية . أما " الجوفى " (مادة " جوف ") فقد ورد فيه الآتي : " شيء جوفى : واسع الجوف " .

ومن بين الكلمات التي تبرز في الرحلة كلمة " بلاط " . وقبل أن أشرح معناها أسوق الشواهد عليها :

قال في وصف المسجد الحرام : " والمسجد الحرام يطيف به ثلاثة بلاطات على ثلاث سوار من الرخام منتظمة كأنها بلاط واحد .. ومليين البلاطات فضاء كبير .. وعدد سواريه الرخامية أربعمائة سارية وإحدى وسبعون سارية ، حاشا الجمية التي منها في دار الندوة .. وهي داخلة في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال . وفضاءها متسع يُنخل من البلاط إليه . ويتصل بجدار هذا البلاط كله مصاطب تحت قسّى حنيا يجلس فيها الناسخون والمقرئون وبعض أهل صناعة الخياطة . والحرم محقق بحلقات المدرسين وأهل العلم . وفي جدار البلاط الذي يقبله أيضا مصاطب تحت حنيا على تحت الصفة ، وهو البلاط الآخذ من الجنوب إلى الشرق . وسائر البلاطات تحت جدرانها مصاطب دون حنيا عليها .. وعند باب إبراهيم مدخل آخر من البلاط الآخذ من الغرب إلى الجنوب .. وباب الصفا يقابل الركن الأسود بالبلاط الذي من الجنوب

١- مع ابن جبير في رحلته / ص ٢٠٩/ ٢٠٨

إلى الشرق . وفي وسط البلاط المقليل للباب ساريتان مقلبتان الركن المذكور " (١) .
 أعلى بلاطات الحرم سطح يطيف بها كلها من الجوانب الأربعة " (٢) .
 وفي وصف جامع خزان : " والجامع المكرم سقف بجوائز الخشب والحنيا . وخشبه على
 طوال لسعة البلاط . وسعته خمس عشرة خطوة وهو خمسة أبطاء " (٣) .
 وفي جامع حلب : " وهذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها ، وقد أطاف بصحنه الواسع بلا
 متسع مفتوح كله أبواباً قصرية الحسن إلى الصحن ... والبلاط القبلي لامقصورة فيه " (٤) .
 وفي جامع دمشق : " وبلاطاته المتصلة بالقبلة ثلاثة مستطيلة من الشرق إلى الغرب ، سعة كل
 بلاط منها ثمانى عشرة خطوة ... وقد قلعت على ثمانية وستين عموداً ... ويستدير بالصحن بلا
 من ثلاث جهاته ... سعة عشر خطاً ... وفي الجدار المتصل بالصحن المحيط بالبلاط
 القبلي عشرون باباً متصلة بطول الجدار . والبلاط المتصل بالصحن ، المحيط بالبلاطات
 ثلاث جهات ، على أعمدة " (٥) .

وفي الكلام عن " بالرم " : " وفي خروجنا من القصر المذكور سلكننا بلاطاً متصلاً مشيناً
 مسافة طويلة ، وهو مسقف ، حتى انتهينا إلى كنيسة عظيمة البناء ، فأعلمنا أن ذلك البلاط
 مشى الملك إلى الكنيسة " (٦) .

والآن بعد هذه النصوص ، لمعنى " البلاط " عند ابن جبير ؟ يقول د. أحمد مكي

الأندلسيين كانوا يطلقون " البلاط " على " البناء المحسن " (٧) ، فهل هذا معناه فى هذا

النصوص ؟ كلا . فهل يكون معناها ملجأ فى " تاج العروس " و " محيط المحيط " من أن
 " البلاط " هو " الأرض المستوية الملساء ، وكل أرض فرش بالحجارة والآجر " ؟ ولا ذلك أيضاً
 لقد وردت هذه الكلمة فى رحلة ابن بطوطة (١) وفى " مستفاد الرحلة والاغتراب " للتجيبى
 السبتي (٢) . لكن النصوص التى وردت فيها فى هذين الكتالين لاتساعد على فهم المراد منها
 بالضبط . ولولا أننى عثرت فى " نفح الطيب " للمقرئ على النص التالى لظلمت متجيراً فى
 معناها . وهذا النص هو قوله عن جامع قرطبة إن " عند أبهائه ... تسعة عشر بهواً ، وتسمى
 البلاطات " (٣) .

وقبل وصول ابن جبير (فى طريق العودة) إلى الشام ، نراه يستعمل كلمة " فندق " للبيت
 الذى ينزله المسافرون : " وكان نزولنا بها (بالإسكندرية) بفندق يعرف بفندق الصغار ،
 بمقربة من الصبابة " (٤) . " وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الشاء فى زقاق القناديل بمقربة
 من جامع عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور " (٥)
 " وكان نزولنا فيها (فى قوص) بفندق ينسب لابن العجمى بالمنية ، وهى روض كبير خارج
 المدينة ... على باب الفندق المذكور " (٦) " وفيها (أى حلة) فنادق مبنية بالحجارة
 والطين " (٧) وقال عن دار الخيزران بمكة : " وينحل إليها على حلق كبير شبيه الفندق " (٨) .

١- ص / ١١٤٩١ مثلاً .

٢- ص / ٢٤٢، ٢٤١، ٦٩ مثلاً .

٣- نفح الطيب / مجلد ٢ / ص ٨٢ .

٤- ص / ١٢ .

٥- ص / ١٩ .

٦- ص / ٤٦ .

٧- ص / ٥٢ .

٨- ص / ١٤٥ .

٧- د. أحمد مكي / الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة / دار المعارف / ط ٢ / ١٩٧٩م / ص ٤٢ .

لما في العراق والشام فكان يقول " الخان " بدلا من ذلك : " وفي هذه القرية المذكورة (قرى الفرائش العراقية) خان كبير يدور به جدار عال له شرفات صفار " (١) . " وبنى أيضا داخل (الموصل) وفي سوقه قيساريه للتجار كأنها الخان العظيم " (٢) . " وفي محلات الطريق (من الموصل إلى نصيبين) خانات " (٣) " فكان نزولنا بها (أي بنصيبين) في خان خارجها " (٤) " فإن لها (لحلب) رباطا كبيرا فيه من الخانات مالا يحصى عنده . فكان نزولنا برباطه في خان يعرف بخان أبي الشكر " (٥) " ثم نزولنا (بعد تركهم قنسرين) مريخ بموضع يعرف بباقليين في خان كبير يسمى بخان التوكان فخلات هذا الطريق كأنها القلعة لمتناعا وحصانة . ثم رحلنا من هذا الموضع وبنا بموضع يعرف بـتقنى في خان وثيق على الضفة المذكورة " (٦) " فنزلنا برباطها (أي " حماة ") في أحد خاناته " (٧) . " وربطها كبير الخانات والديار " (٨) " فوصلنا إلى مدينة حمص . فنزلنا بظاهرها بخان السيل " (٩) " وبها (أي قرية القارة) خان كبير . فأرحنا بالخان المذكور . وأسرينا الليل كله فومنا إلى خان السلطان مع الصباح . وهو خان بناء صلاح الدين . وفي هذا الخان ماء جار يتسرب إلى سقاية في وسط الخان " (١٠)

١- ص / ١٩١.

٢- ص / ٢١٠.

٣- ص / ٢١٣.

٤- ص / ٢١٥.

٥- ص / ٢٢٨.

٦- ص / ٢٢٩.

٧- ص / ٢٢٩.

٨- ص / ٢٣٠.

٩- ص / ٢٣١.

١٠- ص / ٢٣٣.

وهذه الكلمة " خان " فارسية الأصل (١).

وقد خصص عبدالقدوس الأنصاري في كتابه عن رحلة ابن جبير ، للفنادق والخانات في هذه الرحلة فصلا مستقلا . والذي يهمنا ما قاله هو قوله إنه قد توصل من دراسة رحلة ابن جبير أن أهل الشام وأهل العراق وديار بكر يسمون ما يعرف لدى أهل مصر والحجاز بالفندق " خانا " . وقد اهتمت في ذلك بما جاء في " لسان العرب " و " تاج العروس " (٢) . إذن فابن جبير قد جرى في استعمال " الفندق " تارة و " الخان " تارة أخرى على العرف اللغوي في البلاد التي نزل فيها أو مر بها .

ومن الكلمات التي يكثر ابن جبير من استعمالها " الخوانق " و " الزوايا " و " الربط " . وهذا راجع إلى اهتمامه بالأولياء والصالحين والمنقطعين للعبادة في أبنية لهذا الغرض (٣) . وقد ذكر ابن جبير نفسه أن الخوانق والربط شيء واحد . قال وهو في العراق : " فالأيمن (أي النهر الأيمن) يشق خانقة مبنية للصوفية والغرباء بإزاء العين ، وهي تسمى الرباط أيضا " (٤) . وقال وهو بالشام : " ولما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهي برسم الصوفية " (٥) . وما يفهم منه أن " الزوايا " هي الخوانق والربط قوله عن نورالدين زنكسى : " ومن مناقب نورالدين . أنه كان عَيْنَ للمغاربة الغرباء المتزيمين زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافا كثيرة " (٦) . لكن يبدو أن الزوايا كانت جزءاً من المساجد

١- انظر " محيط المحيط " و " تاج العروس " و " المنجد " .

٢- مع ابن جبير في رحلته / ص ١١١.

٣- يمكن العثور على الكلمة الأولى في ص / ٢٤٨، ٢٤٤، ٢١٨، ٢٠٦، ٢٦٢، ٢٦٢، ٢٠٦ وعلى الكلمة الثانية في ص / ٢٢٠، ٢١٥، وعلى الثالثة في ص / ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٤٨، ٢٣٨، ٢١٨، ٢٠٦، ٢٠٦، ٢٠٦.

٤- ص / ٢١٨.

٥- ص / ٢٥٦.

٦- ص / ٢٥٧.

وليست مستقلة .

كما قال السيوطي . السلطان صلاح الدين يوسف . ورتب للفقراء الولدين أوزانها معلومة .
وقال المقرئزي : إن الخوانك حدثت في حدود الأربعمئة من منى الهجرة " (١) .

وفي معجمه المسمى " قلموس الفارسية : فارسي - عربي " يقول د. عبد النعيم محمد حسنين :
" خنقاه : ما كان يجتمع فيه الصوفية للذكر والعبادة ، التكية " (٢) .

وقد تحرفت هذه الكلمة في العلمية المصرية إلى " الخنكة " .

ولنفس السبب الذي تكرر من أجله فسسى رحلة ابن جبير كلمات " خانقة " و " رباط " و " زاوية " . وهو اهتمامه بزيارة الصالحين والعباد والزاهدين ، فرى كلمة " المشهد " .

تكرر في الكتاب هي وكلمة " قور " . والمقصود بـ " المشهد " : البناء الذي يضم قبر الأولياء أو من يعتقد الناس فيهم الولاية .

يقول في بداية كلامه عن القاهرة : " فأول ما نبداً بذكره منها الآثار والمشاهد المباركة التي يبركها يسكنها الله عز وجل . فمن ذلك المشهد العظيم الشأن - حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب . رضي الله عنهما . وهو في تلوت قضة مدفون تحت الأرض قد بنى عليه بنيان خيل " (٣) .

" بتنا بالجبانة المعروفة بالصراخة ، وهي أيضا إحدى عجائب الدنيا لما تحتوي عليه من مشاهد الأتياء - وآل البيت - والمحابة والتابعين والعلماء والزهاد - والأولياء " (٤) .

ويقول عن بلدة " زريوان " العراقية : " ومن فضائل هذه القرية أيضا أن بالشرق منها بمقدار نصف فرسخ مشهد سلمان الفارسي " (٥) . وعن البصرة : " وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد خيل البنيان داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب : هذا قبر عون ومعين ، من أولاد أمير

الأولياء " (٤) .

ويقول عن بلدة " زريوان " العراقية : " ومن فضائل هذه القرية أيضا أن بالشرق منها بمقدار

نصف فرسخ مشهد سلمان الفارسي " (٥) . وعن البصرة : " وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد خيل البنيان داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب : هذا قبر عون ومعين ، من أولاد أمير

الأولياء " (٤) .

ويقول عن بلدة " زريوان " العراقية : " ومن فضائل هذه القرية أيضا أن بالشرق منها بمقدار

نصف فرسخ مشهد سلمان الفارسي " (٥) . وعن البصرة : " وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد خيل البنيان داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب : هذا قبر عون ومعين ، من أولاد أمير

الأولياء " (٤) .

ويقول عن بلدة " زريوان " العراقية : " ومن فضائل هذه القرية أيضا أن بالشرق منها بمقدار

نصف فرسخ مشهد سلمان الفارسي " (٥) . وعن البصرة : " وفي الطريق إلى باب البصرة مشهد خيل البنيان داخله قبر متسع السنام عليه مكتوب : هذا قبر عون ومعين ، من أولاد أمير

الأولياء " (٤) .

ولعله قد لوحظ أن ابن جبير يقول : " خانقة " (على وزن اسم الفاعل) خالعا على الكلمة ثريا

غريبا ، أي أنه عرب الكلمة الفارسية " خنقاه " ، التي كثيرا ما جمعا عند غيره كما

في أصلها الأعجمي ، بالقاف حينا ، مثل المقدسي ، الذي يقول عن نفسه : " وأكلت مع الصوفية

الهوائس ومع الخنقائين الثرائد " (١) ، والقاسم بن يوسف التجيبي (٢) ، ود حسن البدر

الذي يجمعها على " خنقاوات " (٣) ، وبالكاف حينا آخر (الخوانك) ، كبن خلدون (٤) . وفي

رحلة ابن بطوطة وردت على النحويين كليهما : معربة (٥) ، وبشكلها الفارسي ، بالقاف (٦) .

وقد ذكر مترجم " وصف إفريقيا " للحسن بن محمد الوزان ، بعد أن شرح معنى " الخانقاه

بأنها " زاوية الصوفيين " ، أنها " تكتب في أيلنا خطأ على شكل خنقة " (٧) ، وهو ما تنقله

النصوص الجبيرية التي سقناها آنفا ، فهي تدل على أن " خانقة " ليست وليدة أيلنا هذه

يفهم من كلام المترجم .

وفي أصل هذه الكلمة يقول محمد كرد علي : " الخانقة كلمة فارسية ، قيل : أصلها خونكاه ،

الموضع الذي يأكل فيه الملك ، وهي زوايا الصوفية " ، ويمضي فيذكر تاريخ نشوئها في الإسلام

قائلا إنها " لم تعهد على هذا النمط إلا في القرون السادس . وأول من بناها من الملوك بمصر

الهامش هكذا : " الخانقاه بالكاف أو القاف : مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة " .

١- كراتشكوفسكي / الأدب الجغرافي العربي / القسم الأول / ص ٢١٢ .

٢- أنظر " مستفاد الرحلة والاغتراب " / ص ١٠٢ . وهو يجمعها على " خنقات " / ص ٤ .

٣- مدخل إلى الآثار الإسلامية / ص ١٧٣ .

٤- التعريف بحياة ابن خلدون شرقا وغربا / تحقيق محمد الطنجي / القاهرة / ١٩٥١م / ص ٢٣٦ . وقد شرحها المحقق

الهامش هكذا : " الخانقاه بالكاف أو القاف : مسكن للصوفية المنقطعين للعبادة " .

٥- ص ٣٧ من الرحلة .

٦- ص ٥٩ .

٧- د عبد الرحمن حميدة / وصف إفريقيا / ص ٦٠٨ / ١٧١ .

يتنسم . وهذا الهواء الذي يسميه البحريون الفليني (١) . فلما ... شارفنا مدينة
مدينة ... دهمنا زعقات البحرين بأن المركب قد أمانه الريح بقوة إلى أحد البرين (٢)
والبحريون قد صموا العشارى (زورق النجاة) لإخراج المهم من رجالهم ونسلهم
وأسبابهم (٣) .

وكان قد ذكر هذه الكلمة من قبل حين حديثه عن قصد الصليبين الإسكندرية لولا " أن دفع الـ
عليتهم بمراكب عموت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجل
المخاربة البحرين ، فلهقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم (٤) .
وقد ذكر صاحب " محيط المحيط " أن كلمة " بحرى " تطلق عرفا على " الملاح " .

أما فى طريق الذهاب فقد استخيم كلمة " النواتية " وهو يعبر البحر الأحمر من عيـ
إلى جدة : " وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية فى التصرف بالجبلية أثناءها لم
ضخما " (٥) . وقد جاء فى " محيط المحيط " : " النوتى : الملاح - فى البحر خاصة . والجمع
نوتى ونوتية " . ولما بالنسبة لأصلها فقد قدم احتمالين : إما أنها من " نات ينوت : تمليل
ضعف " ، وإما أنها مصربة عن اليونانية " (٦)

وهناك تسمية أخرى لـ " ريان السفينة " ، هى " الناخذاه " وقد وردت هذه التسمية فى غزوة
أحد كتب الرحلات القديمة ، وهو " عجائب الهند برّه وبحره وجزائره لبزرك بن شهر

الناخذاه " . كما ورد عند ابن بطوطة أيضا تسمية رئيس السفينة بـ " الناخذاه " (١) . وهذه
التسمية لم يستعملها ابن جبر قط .

كما تكررت لفظة " الوظيفة (ة) " مرات فى الرحلة بمعنى " الراتب " أو " الكفـ
السنوية " . قال عما خصه صلاح الدين الأيوبي لأبناء السيل المغاربة المارين بمصر من
الخبز يوميا : " ولهذا كله أوقاف من قبله . وأكد على المتولين لذلك متى نقصهم من
الوظائف المرسومة شىء أن يرجعوا إلى صلب ماله . ولما أهل بلده ففى نهاية من الترفيه
واتساع الأحوال ، ولايلزمهم وظيف البتة " (٢) . وعن تسخير لشارى الروم فى بناء القلعة
وغيرها : " وللسلطان أيضا بمواضع آخر بـيان ، والأعلاج (الروم) يخضعونه فيه . ومن يمكن
لستخلمه من المسلمين فى مثل هذه المنفعة العمة مرفه عن ذلك كله . ولاوظيفة فى شىء من
ذلك على أحد " (٣) . وعن إزالة صلاح الدين الأيوبي ضريبة الحجاج التى كان الفاطميون قد
فرضوها عليهم : " ومن مفاخر هذا السلطان - إزائه رسم المكس المضروب وظيفه على
الحجاج مدة دولة العيدين " (٤) وعن نفس الموضوع ، أثناء حديثه عن أهـل " عيذاب "
(عيسى البحر الأحمر) : " لهم على كل حمل طعام - ضريبة معلومة خفيفة المونة ، بالإضافة
إلى الوظائف المكوسية التى - ذكرنا رفع صلاح الدين لها " (٥) . وفى نفس الموضوع ،
فى أثناء كلامه عن العنت الذى يلقاه الحجاج على أيدي أمير مكة : " رفع (صلاح الدين) ضرائب
المكوس عن الحجاج ، وجعل عوض ذلك مالا وطعما يأمر بتوصيلهم إلى مكـ
لـمكـسـة . فتسـى أبطـأت عنهم تلك الوظيفة المترتبة لهم على هذا

١- ص/٢٨٦

٢- ص/٢٩٢

٣- ص/٢٩٤

٤- ص/٢٥

ص/٥١

٦- انظر " محيط المحيط " / مادة " نوت "

١- ص/٢٧٩

٢- ص/١٦

٢- ص/٢٥

٤- ص/٢٠

٥- ص/٤٥

الأمير إلى ترويع الحجاج" (١). وفي نفس الموضوع أيضا عند ذكره دعاء الحجاج لصالح الدين في الحرم: "وحق ذلك عليهم لما - رفعه من وظائف المكوس عنهم" (٢). وعن تكليف كل سفينة مابطة في النيل بأن تحمل بعض الحجارة من سور "أصتا" (مدينة في ضعيد مصر): "وكان لها سور عتيق هدمه صلاح الدين، وجعل على كل مركب منحدر في النيل وظيفة من حمل صخره إلى القاهرة، فنقل بأسره إليها" (٣). وعن ماثرة جمال الدين وزير صاحب الموصل في جلب الماء إلى عرفات: "وكان من أشرف أفعاله أن جلب الماء إلى عرفات وقاطع عليه العرب - بوظيفة من المال كبيرة على ألا يقطعوا الماء عن الحجاج" (٤).

وجاء في "المصاحح" أن "الوظيفة: ما يقدر للإنسان في كل يوم من طعام أو رزق"، وهو قريب مما جاء في "محيط المحيط". ولم يرد فيهما "الوظيف" إلا بمعنى "مستحق الذراع والسبق من الخيل والإبل ونحوهما".

لما في "تاج العروس" فللمصنف "الوظيف" عدة معان من بينها (وهو معنى "الوظيفة" أيضا): "ما يقدر لك في اليوم وكذا في السنة والزمان المعين - من طعام أو رزق ونحوه، كشراب أو علف للدابة. يقال: له وظيفة من رزق، وعليه كل يوم وظيفة من عمل" ثم ذكر عن أحسنهم أن في أصلها خلافا، وأن الأظهر أنها مؤنثة.

وأما معجم "Additions aux dictionnaires arabes" للمستشرق فانيان (Fagnan) فقد فسر "الوظيف" بـ "taxe arbitraire"، أي "الضريبة الاعتسافية"، وهو معنى قريب ما استخدمها فيه ابن جبير.

وقد قابلتني كلمة "الوظيف" بنفس هذا المعنى في عهد كنه الرسول عليه السلام لبعضهم.

- ١- ص/٥٤.
- ٢- ص/٧٣.
- ٣- ص/٣٣.
- ٤- ص/١٠٢.

وفيه: "في الوظيفة التي وظفها عليهم" (١). وكذلك عند لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة: "وذلك في قوله على لسان بلكين بن بلحيس بن حبوس: لا يلزمها وظيف بوجه، ولا يكلف منها كلفة" (٢).

وقد قال شارح الألفاظ الصعبة في الكتاب (٣) عند كلمة "وظيف": "لعله أراد بالوظيف: الوظيفة، أي ما يقدر لهم من رزق ونحوه"، وهو ما يفيد أنه لم يجد كلمة "وظيف" في المعاجم التي رجع إليها، فاعتمد على التخمين.

وجاء في "مستفاد الرحلة والاعتساب" للتجيني السبتي عن أبي الفتح لاجين (من الماليك): "ولم يسقط ما كان يؤخذ منهم (أي الحجاج) في جميع بلاده من الوظائف والضرائب" (٤).

ومثل كلمة "وظيف" تكرر في الرحلة كلتا "إجراه" و "جراية"، اللتان تقابلانها في المعنى فـ "الوظيفة" يفرضها الحاكم على الناس، أما "الجراية" فإنه يفرضها لهم: "ومن مناقب هذا البلد (الإسكندرية) - المدارس والممارس (المساكن المجانية) الموضوعة فيه لأهل الطلب والتعب، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه، ومدرسا يعلمه الفن الذي يريد تعلمه وإجراه يقوم به في جميع أحواله" (٥). وعن تزيين بعض المتقربين لصالح الدين أن يلغى منحة الخبز المقررة للحجاج: "ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذون جراية الخبز ولا حاجة لهم بها" (٦).

- ١- الأصفهاني / المجموع المفيث في غريب القرآن والحديث / تحقيق عبدالكريم المزباوي / منشورات جامعة أم القرى - معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي / ط١/١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م / ج٢/ ص ٤٣٢.
- ٢- الإحاطة في أخبار غرناطة / تحقيق محمد عبدالله عنان / مجلد ١/ ط٢/ الخانجي / القاهرة / ٤٣٢.
- ٣- ص/١٦/٢.
- ٤- ص/٢-٨.
- ٥- ص/١٥.
- ٦- ص/١٦.

«والصبيان أيضا (الذين يتعلمون فيه القرآن) على قراءتهم جارية معلومة » (١).

وواضح أن « الإجراء » والجارية « مأخوذتان من الفعل « أجرى » في مثل قولنا « أجرى فلان على فلان مائة جنيه في الشهر » ، أي خصمها له للإتفاق منها . وقد كان الأزهر يوزع على طلبته « جارية » من الخبر . وقد صوّد طه حسين ذلك تصويرا حيا أسرا في الجزء الثاني من « الأيام » . بل إنني أعرف أنه منذ وقت غير بعيد كان الأزهر يوزع على طلبته كل يوم وجبة طعام دسمة من الجبن والبيض والحلاوة الطحينية والفواكه . وربما لاتزال هذه الوجبة توزع على طلبته حتى الآن . وفي « الصحاح » : « الجارية : الجارية من الوظائف » وقد ضبطت فيه بكسر الجيم . وهو نفس ما عرّفها به « محيط المحيط » و « المنجد » وإن كانا قد ضبطا الجيم بالفتح كلاهما (٢).

هذا وقد استختم ابن جبير الفعل « أجرى » في سياق آخر غير سياق المال والطعام . ومن ذلك قوله في الدعاية التي بثها الصليبيون في الشام عن عزمهم قصد المدينة المشرفة وإخراجه صلى الله عليه وسلم من قبره إنهم « أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم » (٣).

وبسبب من شعور ابن جبير النيني نجده يكاد يروى في كل شيء آية من الآيات الإلهية . ومن ثم تكرر هذه الكلمة في الرحلة :

يقول عن حبوط مؤامرة الصليبيين لنش قبر الرسول عليه السلام وسرقة جثته الشريفة .
واتتهائهم بوقوعهم في أيدي الأسطول المصري : « وكانت آية من آيات العناية

ولكن صلاح الدين رأى « ألا يقطعوا عن العادة التي أجريناها لهم » (١) . وعن مشاهد الأتية والصحابة والتابعين في قراقة مصر : « قد وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها ، ومنظرها منظر عجيب . والجريات متصلة لقولها في كل شهر » (٢) . وعن مشاهد أهل البيت والمالحين في القاهرة : « وكل بها قومة يسكنون فيها ويحفظونها - والجريات متصلة لقولها في كل شهر » (٣) . وعن المشاهد الموجودة بالقراقة (في القاهرة أيضا) : « والإجراء على كل موضع منها متصل من قبل السلطان في كل شهر - وحقق عندنا أن الإجراء على ذلك كله نيف على ألف دينار مصرية في الشهر » (٤) . وعن صلاح الدين وما فعله للمغاربة : « وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر » (٥) . وعن مآثر صلاح الدين أيضا أنه « أمر بعارة محاضر (مدارس) ألزمها معلمين لكتاب الله عز وجل . يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجرى عليهم الجارية الكافية لهم » (٦) . وعن المكافأة المخصصة لمن يقرأون في جامع دمشق بعد العصر من سورة « الكوثر » إلى آخر القرآن : « وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم يعيش منه أزيد من خمسة إنسان » (٧) . وعن نفس المسجد : « وللمالكيسة زاوية للتدريس في الجانب الغربي . يجتمع فيها طلبة المغاربة . ولهم إجراء معلوم » (٨) . وعنه أيضا

١- ص ١٧

٢- ص ٢٠

٣- ص ٢٢

٤- ص ٢٤

٥- ص ٢٦

٦- ص ٢٧

٧- ص ٢٤٤

٨- ص ٢٤٥

١- ص ٢٤٥

٢- لورد فانيان (Fagnan) في مادة « جرى » . في معجمه « Additions aux dictionnaire arabes »
تعبيراً يتصل بهذه الكلمة . هو « صاحب الجارى » وفسره بـ « payeur » و « trésorier » ، أي « أمين الصندوق » .

٢- ص ٢٥

الجبارية " (١).

وعن عدم ضيق الحرم بالحشود الحاشدة : " ومن آياته أن بابہ الكريم يفتح فسى الأيسلم
المعلومة المذكورة ، والحرم قد غص بالخلق ، فيدخله الجميع ولا يضيق عنهم بقدرة الله عز
وجل .. ولله الآيات الينات والبرهين المعجزات ، سبحانه وتعالى " (٢) .

وبعد وصف خسوف القمر فى مكة يعقب قائلا : " والله يلهنا الاعتبار بآياته " (٣) .

وعن جمرة العقبة وكيف أنها رغم ملتراكم فيها من حصى الرمى على توالى النهور قد ظلمت
كما هى لم تتحول إلى جبل من الجبال : " ولولا آيات الله الينات فيها لكأنت كالجبال
الرواسى لما يجتمع فيها على تعاقب النهور وتوالى الأزمنة " (٤) .

وعن تعجبه من اتساع مكة لأعداد الحجاج الهائلة : " فمن الآيات الينات أن يسع هذا الجمع
العظيم هذا البد الأمين الذى هو بطن واد سعة غلوة أو دونها .. وملهذه البلدة المكرمة فيما
تختص به من الآيات الينات فى اتساعها لهذا البشر المعجز إحصاؤه إلا كما شبهتها العلماء
حقيقة بأنها تتسع لو فودها اتساع الرحم لمولودها " (٥) .

وعن اللون الأحمر فى جبل قلسيون بدمشق وأنه آثار دم هايل : " وهى من آيات الله تعالى
وآياته لاتحصى " (٦) .

وعن صنعة الفن فى عمارة مسجد دمشق : " فسبحان مسن ألهم عباده إلى هذه الصنائع

المجبية .. ومظهر آياته على أيدى من يشاء من خلقه " (١) .

وعن تحطيم الموج لما كان النصارى فى سفينة العودة قد ألقوه فى البحر لتخفيف حملها :
" فأصبح فى اليوم الثانى وقد جطته الأمواج جذازا ، ورمست به إلى البر أفذاذا ، فعاد عبوة
للناظرين بولاية للمتوسمين " (٢) .

وقد تكرر استخدام ابن جبير لكلمتى " مجمع " و " مجتمع " ، بمعنى " حشد من الناس " أو
" احتشادهم " :

" ثم بكرنا منها (من قرية " برما ") (٣) . يوم الثلاثاء وهو يوم عيد النحر من سنة ثمان
وسبعين وخمسائة المؤرخة ، فشاهدنا الصلاة بموضع يعرف بطنقة (أى طنطا) .. فأبصرنا بها
مجما حفيلا ، وخطب الخطيب بخطبة بليغة جلعة " (٤) .

" وذلك أنا لما حللنا الإسكندرية فى الشهر المؤرخ أولا علينا مجتمعا من الناس عظيما
برزوا لمعلنة أسرى من الروم أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أنسابها وحولهم
الطول والأبواق " (٥) .

" والعمرة فى هذا الشهر كله (شهر رجب) متصلة ليلا ونهارا ، رجالا ونساء . لكن المجتمع كله
إنما كان فى الليلة الأولى : وهى ليلة الموسم عنهم " (٦) .

" وفى هذا الجمع المبارك (جامع دمشق) مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من
القوان دائما ، ومثله إثر صلاة العصر .. ويحضر فى هذا المجتمع .. كل من لا يجيد حفظ

١- ص / ٢٦٦ .

٢- ص / ٢٩٥ .

٣- تقع فى منتصف الطريق تقريبا بين قريتنا " كلمة الغابة " و " طنطا " عاصمة محافظة الغربية بصر .

٤- ص / ١٨ .

٥- الرحلة / ٢٤ .

٦- ص / ١١٢ .

١- ص / ٢٥ .

٢- ص / ٧٦ .

٣- ص / ١٢١ .

٤- ص / ١٢٦ .

٥- ص / ١٤٨ .

٦- ص / ٢٤٢ .

القرآن . وللمجتمعين على ذلك إجراء كل يوم " (١) .

" وعند فراغ المجتمع السبهي (لقراءة القرآن إثر الصبح والعصر في جامع دمشق)
القراءة صباحا يستند كل إنسان منهم إلى سارية ، ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن " (٢) .
" ومع ذلك فقد استخدم ابن جبير كلمة "مجتمع" بمعنى "مكان الاجتماع" في النص
التالية :

" والنفسد إلى عذاب من قوس على طريقتين - ومجتمع هاتين الطريقتين على مقربة من
دقناش المذكور . ولهما مجتمع آخر على ماء يعرف بشاغب " (٣) .
" وكفى بهذا المجتمع الكريم والمتظم الشريف " (٤) .
" ولم يكن من المتاجر إلا أولن الموسم ، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب " (٥) .
" منى في تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق - ، لأنها مجتمع أهل الآفاق " (٦) .
" ويسمون هذه السوق المجتمع إليها من الجهات البازور " (٧) .

وشمة كلمة أخرى لها معنى قريب من ذلك تكررت بضع مرات في الرحلة ، هي كلمة
" الموضوع " التي يستعملها ابن جبير بدلا من " موضع " أحيانا :
يقول ابن جبير عن قرية زريبران العراقية : " وحسبك من شرف موضوعها أن دجلة تسير
شرقيها ، والفرات يمقي غربيها ، وهي كالعروس بينهما ، والبساط والقرى والمزارع من

بين نهين النهرين الشريفين المباركين " (١) .

ويقول عن لاسم مدينة " رأس العين " العراقية : " هذا الاسم لها من أصلق الصفات ،
وموضوعها به أشرف الموضوعات . وذلك لأن الله تعالى فخر أرضها عيونا وأجراها ماء
معينا - " (٢) .

وعن حلب يقول : " ولما البلسد فموضوعه ضخم جدا ، خفيل التركيب ، بديع الحسن ، واسع
الأسواق كبيرها " (٣) .

وعن حماة : " وموضوع هذه المدينة في واحة من الأرض عريضة مستطيلة كأنها خندق عميق " (٤) .
وفي حمص : " وتجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بُعد ، في بسيطها ومنظرها وهيئة
موضوعها ، بعض شبه بمدينة إشبيلية من بلاد الأندلس " (٥) .
وفي دمشق : " حلت من موضوع الحسن بالمكان المكين ، وتزينت في منصفها أجمل
تزيين " (٦) .

ومن الألفاظ التي تكررت في الرحلة على نحو لافيت كلمة " تبلدر " (أو " بلدر " أو
" لبتدر ") : " وتبلدر الناس إلى الحجر فوقوا تحت الميزاب المبارك متجودين عن
ثيابهم " (٧) . " وكانوا يرمون بالحرايب إلى الهواء ويبلدرون إليها لققا بأيديهم وهي قد
تعوبت ألسنها على رؤوسهم " (٨) . " فلما - لم يبق حول البيت المبارك أحد من الرجال

١- ص / ١٩٢

٢- ص / ٢١٧

٣- ص / ٢٢٦

٤- ص / ٢٢٠

٥- ص / ٢٢٢

٦- ص / ٢٢٤

٧- ص / ٩٥

٨- ص / ١٠٩

١- ص / ٢٤٤

٢- ص / ٢٤٥

٣- ص / ٤٢

٤- ص / ٩٦

٥- ص / ٩٧

٦- ص / ١٥٢

٧- ص / ٢١٧

تبادر النساء إلى الصعود " (١) . " فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والى يبادرون إليه تبركا يغسلون أوجهم وأيديهم فيه " (٢) . " وهذه الليلة المباركة ، أغنى النصف من شعبان ، عند أهل مكة معظمة للأثر الكريم الولد فيها ، فهم يبادرون فيها إلى البر من العمرة والطواف والصلاة " (٣) . " فأسرع ففى الفراغ من الطواف وبادر منزله " (٤) . " وحضر القراء بين يديه (بين يدي خطيب المسجد الحرام) . وفى فصول الخطبة يتدرون القراءة فيسكت خلال إكمالهم الآية التى لتزعوما من القرآن يعود إلى خطبته " (٥) . " فابتدوا القراءة بنغمات عجيبة وتلاحين مطربة مشجية " . " وبادروا للحين بمالئهم من مرافق الأذى يبيعونها من الحاج " (٦) . " وبادر التائبون سقوطا على يسده ووقوعا " (٨) . " أخذ هذا الإلمام الغريب الشأن فى إبراز خطبة مبتدرا " (٩) . " وفى أثناء مجلسه ذلك يتدرون المسائل ، وتطير إليه الرقاع " (١٠) . " وبس العيون بإرسال النمسوع " (١١) " خاف الإفحام فابتدر القيام ، ونزل عن المنبر .

عجلا " (١) . " فيلورد الناس للصلاة بهنين الموضعين المباركين " (٢) . " فلذا عض الحاج فيه (أى فى الخبز) اختطفه من أيديهم وتبادرن لأكله تبركا بأكل الحاج له " (٣) . " وبادرنا إلى النزول فى الزوارق ، والأمواج لشقتها لايمكنها الوصول إلى المركب " (٤) .

١- ص/١١٦

٢- ص/٢٤٨

٣- ص/٢٥٩

٤- ص/٢٩٥

١- ص/١١٦

٢- ص/١١٦

٣- ص/١١٩

٤- ص/١٢٥

٥- ص/١٢٩

٦- ص/١٢٨

٧- ص/١٨٥

٨- ص/١٩٥-١٩٦

٩- ص/١٩٢

١٠- ص/١٩٨

١١- ص/١٩٨

صيغ المفردات

فلذا انتقلنا إلى صيغ المفردات في لغة الوحلة لفت انتباهنا ميل ابن جبير إلى استخدام
عند غير قليل من الصيغ غير المألوفة : مثلا الفعل " وقد - يقْد " (بمعنى " يُضَيء ") من الصيغ غير
النائعة ، إذ الشائع استعمال " أوْقد " (المبنى للمجهول) في هذه الحالة . ولكن ابن جبير
أثر في عدد من المواضع استعمال مجرد الثلاثي اللازم على مزيد المتعدي المبني للمجهول :

يقول عن الطريقة التي كانت متبعة في المسجد الحرام لإعلام أهل مكة أن وقست السحور
لا يزال ساريا : " وقد نصبت في أعلى الصومعة (التي في الركن الشرقي من المسجد الحرام)
خشبة طويلة في رأسها عود كالفرع وفي طرفيه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان من
الزجاج كبيران لا يزال يقدان مدة التحجير " (١) .

وفي نفس الموضوع : " وفي ديار مكة كلها سطوح مرتفعة ، فمن لم يسمع نداء التحجير ممن
يعد مسكنه من المسجد يبصر القنديلين يقدان في أعلى الصومعة . فلذا لم يبرهما علم أن
الوقت قد انقطع " (٢) .

ويقول عن مغارة في جبل قلسيون (بدمشق) : " والسَّرج من الشمع والقنائل تقيد
في المغارة " (٣) .

وعن نفس المغارة يقول : " وعلى هذه المغارة أيضا مسجد مبني ، وأبصرنا فيه السَّرج تقيد
نهرا " (٤) .

وقد استخدم ابن جبير كلمة " وقيد " (الشموع الموقدة) المشتقة من هذا الفعل الثلاثي قال

١- ص ١٢٢ .

٢- ص ٣٤٥ .

٣- ص ٢٤٧ .

٤- ص ٢٤٨ .

عن بالرم عاصمة صقلية ومن بها من المسلمين : " ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحلكهم " (حلقوا) .

وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون في وقيدته في هذا الشهر المبارك " (١) .

وليس معنى هذا أنه لم يستعمل " أوقد " ، فقد استعملها مرارا ، لكنني قصصت أن من ميله إلى

تنكيب المؤلف لجوئه إلى " وقد يقد " في عدة مواضع .

وفي " الصحاح " : " وَقَدَّتِ النَّارُ تَقْدُ وَقُودًا (بالضم) وَوَقْدًا وَقِنَّةً وَوَقْدَانًا ، أَيْ تَوَقَّدَتْ

وَفِي " تَاجِ الْعُرُوسِ " : " وَقَدَّتِ النَّارُ وَقُودًا مِثْلَ : قَبَلْتُ الشَّيْءَ قَبُولًا " ، وكذلك " وَقَدَّتِ

تَقْدُ وَقُودًا ، كَ (وعد) " . وفيه أيضا : " كُلُّ مَا أَوْقَدْتُ بِهِ فَهُوَ وَقُودٌ وَوَقْدٌ (بالكسر) وَوَقِيدٌ " ، وقد

أن عبيد ابن عمر قرأ : " وقيما الناس والحجارة " .

وفي " المنجد " : " وَقَدَّ يَقْدُ : تَلَأًا . وَوَقَدَّتِ النَّارُ : اشْتَعَلَتْ - وَالْوَقْدُ وَالْوَقِيدُ وَالْوَقْدُ

مَاتَرَقَدَتْ بِهِ النَّارُ " .

وقد وجدت في " نفح الطيب " من كلام الفتح بن خاقان : " ونارها تقد " (٢) . كما صادفتني

" الوقيد " في نص للإدريسي يقول فيه إنه كان بمسجد قرطبة على يمين المحراب مخزن تح

فيه العدد والطلسوت والحسك الخاص بـ " وقيد الشموع " في كل ليلة - إلخ (٣) .

ومن خروج ابن جبير أحيانا عن المؤلف إكثاره من استعمال صيغة " لستفعل " حيث تستخ

عادة صيغة أخرى .

يقول عما حسسنت له في مكس الإسكندرية : " ولستنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن

المغرب وطلع المركب " (٤) (بدل " أنزل ") .

ويقول عن نفس الموضوع : " ثم استحللوا بعد ذلك هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا " (٥) (بدل

١- ص / ٢٠٥ .

٢- نفح الطيب / مجلد ٥ / ٢٤٤ .

٣- انظر د أحمد رمضان أحمد / الرحلة والرحالة المسلمون / دار البيان العربي / جدة / ص ١٧١ .

٤- ص / ١٢ .

٥- ص / ١٢ .

ويقول عن أحد مساجد الإسكندرية : " وشاهدنا من شأن مبناه عجباً لا يستوفيه وصف واصف " (١)

(بدلا من " يوفيه) .

ويقول عن عدل صلاح الدين : " ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل أن الناس في بلاده

لا يخلعون لباس الليل تصرفا فيما يعينهم ، ولا يستشعرون لسواده هيبة تنهيمهم . على مثل ذلك

شاهدنا أحوالهم بمصر والإسكندرية " (٢) (بدلا من " يشعرون ") .

وعن شعور الحاج حول الكعبة : " فكنت عشية عظيمة استشعرت النفوس فيها الفوز بالرحمة

نقة بفضل (بفضل الله) وكرمه " (٣) .

ويقول عن قمع منفلوط وجودته : " فالتجار يصعدون في المراكب لاستجلابه " (٤) (بدلا

من " جلبه ") . " ولستجلبت معها إلى المسجد حقلين من المتاع للصدقة " (٥) .

ويقول عن عظمة النقوش والتصاوير الفرعونية في أحد المعابد : " يحسب الناظر استعظاما

له أن عمر الزمان لو شغل بتروقيشه وتروميحه وتزيينه لفاق عنه " (٦) (بدلا " إعظاما له ") .

ويقول في التقييب الشديد الذي يقوم به رجال الجمارك بالإسكندرية في أمتعة القلمين

على المينة : " وهذا أقبح مايؤثر في الأحاديث الملعنة . وقد نهى الله عن التجسس ، فكيف

عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه من حال لا يريد صلاحها أن يطلع عليها ، إما استحقارا أو

لستفلا دون بخل بواجب يلزمها " (٧) (بدل " احتقارا ") .

١- ص / ١٥ .

٢- ص / ٣١ .

٣- ص / ٩٥ .

٤- ص / ٢٥ .

٥- ص / ١٧٧ .

٦- ص / ٢٨ .

٧- ص / ٢٩ .

ويقول عن " الشقايف " . التي نوضع على الإبل ويركب فيها اثنان متقابلين : " ومن مثل
من يستجيز اللعب بالشطرنج ، أن يلعب عليه تفكها وإجمالاً للنفس لآعبه " (١) (بدا
من " يجوز " أو " يجيز ")

ويقول عمن زعيم قبائل البجاة الذين كانوا يسكنون عيذاب : " ومستلبه مع الوالى
البلد " (٢) (يقصد مكان نيابته ، أى إقامته . وذلك بدلا من " منبه ") .

وعن شدة الإضاءة فى المسجد الحرام : " فاستار العظيم كله حتى لاح فى الهواء كالم
العظيم من النور " (٣) (بدلا من " أنار ") .

" فجاءت الحال غريبة فى الاختصار ، خارجة عن محض التعاليم والاستكبار ، داخلية من
التواضع والاستصغار " (٤) (بدلا من " التكبر " و " التصغر ") .

وعن تجار الكوفة الذين ينتظرون الحجاج : " وبها يتلقى الحجاج كثير من أهل الكوفة
مستجلبون إليهم البقيق والخبز والتمر والأدم والفواكه " (بدل " جالبون ") .

ويقول عن الطرق الموصلة إلى بغداد وتكليف الجنك بحراستها : " وعلى أكثرها خيام
رجال محترسون للطريق ، اعتناء من الخليفة بسبل الحاج دون اعتراض منهم لاستنفاع بك
أو سواها " (٥) (بدل " انتفاع ")

وعن أحد سدة الكعبة : " صودر .. بخمسائة دينار مكية استقرضا ودفعها " (٦) (بدل
من " اقترضها ") .

-
- ١- ص ٤٢
 - ٢- ص ٤٨
 - ٣- ص ١٢٩
 - ٤- ص ١٨٦
 - ٥- ص ١٩١
 - ٦- ص ١٤٤-١٤٥

وعن خطيب شحاذ يوقف الخطبة حتى يجمع رجاله الأموال من المصلين وهو فوق المنبر :
" والخطيب جالس على المنبر يلحظ هؤلاء المستجدين المستسعين على الناس " (١) (بدلا
" الساعين ") .

وعن سير الحجاج بعد تركهم مدينة " الحلة " المراقية : " لايعرج المستعجل على المتعذر ،
ولا المتقزم على المتأخر " (٢) (بدل " المتعجل " ، التي تمشى صيغتها مع صيغ الصفات
الأخرى فى النص) . " كاد يلتقى طرفاه خفوقا واستجالا " (٣) . " بداراً للرحيل
واستجالا للقيام " (٤) .

وعن بغداد : " لاحسن فيها يستوقف البصر ويستلعى من المستوفز العقلة (التوقف) والنظر
إلا دجلتها " (٥) (بدلا من " المتوفز ") .

وعن أسواق حلب : " فكل سرق منها تقيد الأبصار حسنا ، وتستوقف المستوفز تعجبا " (٦) (بدلا
من " المتوفز ") .

وعن أهل بغداد وتفضيلهم لمدينتهم على كل مدينة أخرى : " لايستكرومون فى معمر البسيطة
مثنى غير مثرام " (٧) (بدل " يكرمون ") .

وعنهم أيضا ومعلمتهم للغريب : " لايجد (الغريب) من أهلها إلا من يعلمه بنفاق ، أو يهش
إليه مشاشة لتفان واسترفاق " (٨) (بدل " لرتفاق ") .

-
- ١- ص ١٨٠
 - ٢- ص ١٩٠
 - ٣- ص ١٢٢
 - ٤- ص ١٩٠
 - ٥- ص ١٩٢
 - ٦- ص ٢٢٧
 - ٧- ص ١٩٤
 - ٨- ص ١٩٤

وعن الخليفة العباسي : " وهو ميمون النقية عندهم (عند العلة) ، قد استسعدوا بأبيه وخادمه
وعديلا وطيب عيش " (١) (بدل " سعدوا) . وعن سلجوقه ، زوجة نور الدين بن قرا أرسلان ، ملك آمد
" ومن شرف خاتون هذه ، واسمها سلجوقه ، أن صلاح الدين استفتح آمد بلك زوجها نور الدين
فترك البلد لها كرامة لأبيها ، وأعطاهم المفاتيح " (٢) (بدلا من " فتح ") .
وعن أهل قنشرين لما فتحت الأندلس : " يذكر أن أهل قنشرين عند استفتح الأندلس نزلوا
جيان تأسا بشبه الوطن وتعللا به " (٣)
وعن قلع أرسلان وفتحته : " استفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلدا " (٤) .
وعن مدينة " بزاعة " السورية : " رملها أحد ملوك الزمان ففاظته باستعابها " (٥) (بدلا
من " صعوبتها " أو " تصعبها ") .
وعن جامع دمشق : " أحرکه الحريق مرتين - فلتحال رونقه " (٦) (بدلا " حال ") .
وعن بلاد الشام : " وشأن هذه البلاد أعجب من أن يستوفى في الحديث عنه " (٧) (بدلا
" يوفى ") .
وعن دمشق : " وجيلة الأمر أن منظرها والوقوف على هيئة وضعها وعظيم الاستعداد فيها - من
أغرب ما يحدث به من عجائب الدنيا " (٨) (بدلا " الاقتدار ") .

وعن نذر نذره نور الدين زنكي : " وقد كان نور الدين ، رحمه الله ، نذر في موضة إصابته تفريق
أثنى عشر ألف دينار في فداء أسرى من المغاربة . فلما استقبل من مروضه أرسل في فدائهم " (١)
(بدل " أبل ")
وعن محاولة قياس الماء في زمزم : " استصحب الدلو وأدلاه " (٢) (بدل " اصطحب ")
وعن أحد التجار في مكة : " وكان قد استصحب الخف النفيس الخطير مسع نفسه إلى
البر " (٣) .
" وأصبح الناس بها مقيمين - لإرواء الإبل واستصحاب الماء " (٤) . " فبادروا الابتياح
لذلك يشق الخيام التي يستصحبونها لمشاراة الأعراب لأنهم لا يبيعونهم إلا بها " (٥) .
وعن شاب اسمه عبد المسيح فلبوه في صقلية ، فلما انفرد بهم صارحهم بأنه مسلم : " واستهسى
بنا بعض ما استصحبناه من الطرف المباركة من مكة والمدينة ، قدسهما الله " (٦) .
" والناس - يرجعون الظنون في مقصد هذا الأسطول الذي يحاول هذه الطلغية (ولیم ، ملك
صقلية) تعيره - ويستصحب معه نحو مائة سفينة " (٧) .
وعن طبول مجلس الملك بحاضرة صقلية : " والمجلس قد أخذ استطالة تلك الساحة كلها ،
فجئنا من طوله وإشراف مناظرة ، فأعلمنا أنه موضع غذاء الملك مع أصحابه " (٨) (بدلا

١- ص/ ٢٨٠
٢- ص/ ١١٩
٣- ص/ ١٤٨
٤- ص/ ١٦٣
٥- ص/ ١٨٢
٦- ص/ ٢٩٩
٧- ص/ ٣١٠
٨- ص/ ٣٠٤

١- ص/ ٢٠٣
٢- ص/ ٢٠٧
٣- ص/ ٢٢٨
٤- ص/ ٢٠٧
٥- ص/ ٢٢٤
٦- ص/ ٢٤١
٧- ص/ ٢٦١
٨- ص/ ٢٦٧

من "كول"

وعن أمير من أمراء اليزنطيين وفد على صقلية متذكرا : " فاستخضر عن أمر الملك الصقلي غيلام . واستنطق واستفهم " (١) (بدل " أخضر ") .

وعن رجل مسلم بصقلية طلب من الحجاج الملتزم بذلك البلد أن يثروا بينهم على من يتزوج ابنته ويأخذها بعيدا عن أرض الكفر ، فلما وجد الرجل المطلوب : " أعناه على استغنام هذه الفرصة المؤدية إلى خير الدنيا والآخرة " (٢) (بدل " اغتنام ") .

وهناك أفعال أتى بها ابن جبير على صيغ أخرى غير " استعمل " ، والمادة إيرلجها على غير الصيغة التي استخدمها أو استعمال كلمة أخرى مكانها .

من ذلك الفعل " تأجر " (واشتقاقته) ، السندى تكرر في الرحلة بضع مرات . والمباعدة استخدم " احتسب " مكانه :

"وما شاهدناه أيضا من معاخر هذا السلطان (يقصد صلاح الدين) المارستان الذي بمدينة القاهرة . وهو قصر من القصور الرائعة حسنا واتساعا لبرزه لهذه الفضيلة تأجرا واحتسابا " (٣) " وكثير من الناس المتأجرين (المبتغين الأجر والثواب) من يعينه على ما هو بسيله " (٤) " وكان بعض الحجاج المتأجرين المشفقين يبل ثوبه بذلك الماء المبارك ويخرج إليهم ويصبره في أيدي البعض منهم . فيتلقينه شربا ومسحا على الوجوه والأبدان " (٥) " ومن الأمور المحظورة في هذا الحرم الشريف . أن النفقة فيه ممنوعة لايجد المتأجر من ذوى اليسار إليها ميلا في تجديد بناء أو إقامة حطيم أو غير ذلك مما يختص

بالحرم المبارك " (١) . " والنساء المشيلات المتأجرات كثير يسابقن الرجال في تلك السيل المباركة " (٢) . " ألفى في يوم من الأيام - رجلا أسود مريضا مطروحا بموضعه . فتأجر فيه والتزم تريضه وخلعته " (٣) . " وللفقراء - وقف وضعه بعض المتأجرين الموقنين برسهم " (٤) . " ولما قتيكه (أي وليه ملك صقلية) - فهم مسلمون ، منهم إلا من يصوم الأشهر تطوعا وتأجرا " (٥) . " فتأجر هذا الرجل المرغوب إليه (الرجل الذي قبل تزوج الفتاة الصقلية المسلسلة ، التي مر ذكرها قبل قليل) بقبول ذلك وأعناه على استغنام هذه الفرصة " (٦) .

هذا وقد عثرت على صيغة أخرى غير شائعة من نفس المادة يصدق بها المعنى ذاته ، وهي صيغة " اتجر " ، وذلك في قول محمد بن عبدالله النسيوي الطائفي في زينب أخت الحجاج وبعض النسوة التي خرجن معها حاجات على أقدامهن :

أعان الذي فوق السماوات عرشه مسواشي بالبطحاء مؤتجرات وعلى نفس صيغة " تأجر " جاء ، عند ابن جبير ، الفعل " تانس " ، بدلا من " استانس " : " يذكر أن أهل قنشرين عند لفتح الأندلس نزلوا جيان تأنسا بشبه الوطن وتعللا به " (٧) . وهناك صيغة " افتعل " ، التي تكرر استعمال ابن جبير لها في موضع " فعل " : " ويرتقبونها

١-ص/١٠٤

٢-ص/١١٠

٣-ص/٢٦٢

٤-ص/٣٦٤

٥-ص/٣٩٩

٦-ص/٣٦٦

٧-ص/٣٢٨

١-ص/٣١١

٢-ص/٣١٦

٣-ص/٣٦

٤-ص/٨٩

٥-ص/٩٥

ارتقاب الساعة " (١) (بدلا من " يرقب ") : " يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة " (٢) .
 " فنزلنا مرتقين لانتشار الضوء " (٣) " فبحسب التشب فيه . ليكسوه هذا الظن
 الفاضح " (٤) (بدل " النشب ") . " أقمنا نرتقب الصباح " (٥) . " وسيرة هذا الأمير (طشتكين .
 أمير الحج) بالرفق بالحاج والاحتياط عليهم والاحتراش لبقعتهم وسائقهم وضم نشر ميمتهم
 وميسرتهم سيرة محمودة " (٦) (بدل " الحراسة ") . " ولرتجينا مع الصباح فرجة تخفف عنا
 بعض منزل بنا " (٧) (بدل " رجونا ") " أطلقت عليه أيدى الانتهاب " (٨) (بدلا من
 " النهب ") " والذي انتهب له أكثر " (٩) . " ولولا ذلك لانتهب جميع مافي المركب انتهابا " (١٠)
 (بدلا من " نهب نها ") " داره التي ابتناها " (١١) (بدلا " بناها ") " لأذكي عيون
 الاحتراش عليه خوفا من اغتيال يلحقه " (١٢) " وزاد البحر امتياجا " (١٣) (بدلا من " هياجا لو
 هيجانا " - مصدر الثلاثي المجرد) . " فلجىء إلى استعمال الشرع المخار فلخنت الريح أحدا

ومزقته . وكسوت الخشبة التي ترتبط الشرع فيها " (١) (بدلا من " ترتبط " الثلاثي المبني
 للمجهول) . " فلأخذهم الله باجرائهم عليه " (٢) (بدلا من " جرائهم ") . " ضُخف عدة المركب
 واختلاها واقتصلها المرة بعد المرة " (٣) (بدل " لتصلها " ، بل بدلا من " لتكسارها ") .
 " وجعلوه سببا إلى استلاب الأموال " (٤) (بدل " سلب ") . " فلما فرغ من السبعى استلئت السيوف
 لئله " (٥) (بدلا من " سلت " والصيغتان بالبناء للمجهول) . " ثم بعد ذلك ليلة ثلاث
 وعشرين . وكان المختتم (أى الصبي الذى ختم القرآن) فيها أحد أبناء المكين ذوى
 اليسار " (٦) " فكان المختتم فيها الإمام الحنفى " (٧) . " وطائفة التزمت الحجر المبارك
 للصلاة على انفرد " (٨) (بدلا من " لسزمت ") " وكل من وقفه الله . يلتزم . ضيحة من
 الضياع . يلتزم الإملة " (٩) . " لهم فى ذلك طريقة مباركة ملتزمة " (١٠) " وفى هذه الأيام
 يفتح البيت الكريم كل يوم للأعاجم العراقيين والخراسانيين " (١١) (بدل " يفتح ") . " وحصل
 المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها . إلى ما اكفيت (أخذ) من الأمتعة والنخل " (١٢)

- ١-ص/١٠
 ٢-ص/٢٥
 ٢-ص/٥٢
 ٤-ص/٥٥
 ٥-ص/١٠٩
 ٦-ص/١٢٧
 ٧-ص/١٢٩
 ٨-ص/١٢٠
 ٩-ص/٢٥٩
 ١٠-ص/١٩٥
 ١١-ص/١٥٨
 ١٢-ص/٢٧٢

- ١-ص/٥٧
 ٢-ص/٥٧
 ٢-ص/٥٨
 ٤-ص/٩٤
 ٥-ص/٢٩٤
 ٦-ص/١٩١
 ٧-ص/١٠
 ٨-ص/١٣٣
 ٩-ص/١٤٨
 ١٠-ص/٢٩٥
 ١١-ص/١٤٨
 ١٢-ص/٢١١
 ١٣-ص/١٠

"فاحتازت كل يد ملحوت" (١) (بدل "حازت") . "هؤلاء يفتكهم أطلوهم وجيرانهم" (٢) (بدل من "يفتكهم") .

ولست أقصد أن ابن جبير قد أخطأ ، بل أقول إنه تنكب الصيغة الأشيع . ومع ذلك فقد يكون هناك غرض بلاغى أو أسلوبى قصده من وراء صنيعة هذا

وعلى وزن "انفعل" جاءت الأفعال "انجفل" و "انحشد" و "اندفع" : الأول بدلا من "جفل / أجفل" (بمعنى "نفر أو فرّ مسرعا") ، والثانى بدلا من "احتشد" ، والثالث بدلا من "دفع" (بالبناء للمجهول) : "انجفل بين يديه" (٣) . "فانجفل الجميع إليها" (٤) . "خرج إلى العرة فى احتفال لم يسمع مثله انحشد له أهل مكة على بكرة أبيهم" (٥) . "وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم . وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالا ونساء" (٦) . "فلذا ختموا القرآن دعوا له وانصرفوا واندفع لكل واحد منهم رطل من الخبز" (٧)

ويتكرر عنده استخدام صيغة المطاوعة "تفعل" حيث تستخدم عادة صيغة أخرى ، كما يتضح من النصوص التالية :

"ويسو الله علينا فى التخلص (أى الخلاص) من بحرهما" (٨) . "فكنا لاتخلص (نخلص ، أى ننفض) إلا بين هوالهين وبين قوائم الإبل الكثيرة الزحام" (٩) . "فكان مرأى هائل مسموعا

رائعا لم يتخلص (يخلص أى يمكن) للطائفين بسببه طواف ولا للمصلين صلاة لعلو تلك الأصوات واشغال الأسماع والأذنان بها" (١) "فسألنا له من الله عز وجل التخلص مما هو فيه" (٢) "فإن رضيها تزوجها ، وإن لم يرضها زوّجها من رضى لها من أهل بلده ، ويخرجها مع نفسه راضية بفراق أبيها وإخوتها طمعا فى التخلص من هذه الفتنة ورغبة فى الحصول فى بلاد المسلمين . فطالب الأب والإخوة نفعا لذلك لعلمهم يجدون السيل للتخلص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم" (٣) .

"وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان" (٤) "وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا سوى زلاد لطريقهم" (٥) . "يدرسونه (أى قشر جوز الهند) إلى أن يتخيط ويقتلون منه لمراسا يخطون بها المراكب" (٦) . أى يصبح خيوطا .

"قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق - أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا" (٧) . "وكانوا يرمون بالحراش إلى الهواه ويبادرون إليها لققا بأيديهم وهى قد تصوبت أستها على رؤوسهم وهم فى زحام لا يمكن فيه المجال" (٨) . أى اتجهت ، من "صوته قصوب" .

١٨٨/ص

٢١٤/ص

٢-ص/٢١٥-٢١٦ . لما فى النص التالى مثلا فقد استخدم صيغة مجرد الثلاثى : "خلص أخلصا فلى ذلك الزحام على معربة" ص/١١٩ كما أنه فى النص التالى قد استخدم "تخلص" بمعنى "خلص" ، بالتشديد : "وتخلصوا من أسرى المسلمين عددا كثيرا" ص/٢٧٢ .

٤-ص/١٣

٥-ص/١٣

٦-ص/٤٧

٢-ص/٩٨

٨-ص/١٠٩

١-ص/٢٧٢

٢-ص/٢٨٠

٣-ص/١٠٩

٤-ص/١١٤

٥-ص/١٠٨

٦-ص/١٢٨

٧-ص/٢٦٣

٨-ص/١٠

٩-ص/١٠٨

"أخذ في الرجوع وقد توتب العسكران بين يديه" (١).

"وبالجملة فالشهر المبارك كله معمر بأنواع العبادات من العسرة وسواها. ويختص أوله ونصفه من ذلك بحظ متميز" (٢).

"تشوشت المغارب، وتعرضت شعرة من الحاجب، فأبصروا خيالا غنوه هلالا" (٣).

"وغلدر الكل متندما على نفسه متحبا" (٤).

"ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبة تنصير إلى الفقهاء المترسين بها" (٥).

"وهم يعرفون به (أبى بلقصب "الصاحب") كل محتشم متعين عندهم من غير الجند" (٦).

من "عينه فتعين".

ومن الميـسغ المتشيرة في الرحلة والمستعملة في موضع صيغة أو عبارة أخرى عادة صيغة

"فعل / تفعيلا".

من ذلك "لزم (بدلا من "ألزم") : "لزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول لم

لا" (٧).

ومن ذلك كلمة "مُرقب" (بدلا من "مراقب محروس") : "فليف به مُرقبا على السلطان لولا ثم

على القاضي" (٨).

ومن ذلك كلمة "حَلَسَق" : "وهو (أبى مسجد بن طولون) من الجوامع العتيقة الأتيقة الصنعة

الواسعة البينان، وجعله السلطان مأوى للغرباء من المغاربة : يسكنونه ويحلقون فيه" (١).

(بدلا من "يتحلقون"، أبى يشكلون حلقات للتدريس). "وإن طال طريقه بهذا التحليق فيهن

لما يلقى بعذاب ونحوها" (٢) (بدلا من "الطواف (في رحلة طويلة)". "وقد سدّ عليهم بنيات

الطريق القادمة إلى بلادهم، ولم يبق لهم إلا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ويبعد مداه

عليهم بتحليق يعترض فيه" (٣) (بدلا من "السير في طريق طويل دائري").

ومن "جَمَعَ تجييعا" : "فجميع جوامع البلدة المجمع فيها أحد عشر" (٤). "والمدينة

(الموصل) جلمعان - ويجمع في هذين الجلمعين - ، ويجمع أيضا في جلمع الرّبض" (٥).

"والجلمع الآخر (في مدينة "رأس العين" العراقية) داخل البلد. وفيه يجمع أهله" (٦).

ومن "حَجَر" : "وهذا الموضع الذي لم يحجر عليه هو الذي تركت قريش من البيت" (٧) (أبى

لم تب عليه سورا أو حازرا).

ومن "التوريق والتشجير والتقييب" : "وبازائها رختان متصلتان بحداد الحجر ...

أحدث الصانع فيها من التوريق الرقيق والتشجير والتقييب ما لا يحدثه الصنع اليدين في

الكاغد قطعاً بالجلمين" (٨) (والمقصود : رسم الأشجار وأوراقها وقضبانها).

١-ص/٣٦

٢-ص/٤٨

٣-ص/٢٢٢

٤-ص/٢٠٤

٥-ص/٢١١

٦-ص/٢١٩

٧-ص/٦٢

٨-ص/٦٤

١-ص/١٠٩

٢-ص/١١٢

٣-ص/١٤٦

٤-ص/٢٠٠

٥-ص/٢٠٥

٦-ص/٢٢٥

٧-ص/١٢

٨-ص/١٢

ومنه "التفصين" : "ويتصل بينهما رخام أبيض صلقى اللون .. قد أحدث الله عز وجل في أصل خلقته أشكالا غريبة مائلة إلى الزرقة مشجرة مفضنة" (١) (أى على شكل أشجار وأغصان) .
 "أعد له ثريا مصنوعة من الشمع مفضنة" (٢) "وأوقدت الثريا المفضنة ذات الفواكه" (٣) .
 "أحضر .. من ثريات الشمع أربعا مختلفات الصنعة : منها مشجرة مفضنة مشرة بأنواع الفواكه .. ومنها غير مفضنة" (٤) .

هذا وقد استعملت الكلمة مصطلحا أدبيا في الأندلس . قال د. إحسان عباس في أثناء حديثه عن أصل تسمية "الموشح" : "ولقد يوضع هذه التسمية اصطلاح آخر اختاره أحد النقاد الأندلسيين وهو يتحدث عن نوع من النثر ، وذلك هو اصطلاح "المفصن" ، الذى استعمله ابن عبد الغفور فى كتاب "إحكام صنعة الكلام" .. ، وقد سماه كذلك لأنسه ذو فروع وتولد . ومثاله .. : "وقد يكون من النعم والإحسان ما يمد من الفم واللسان ، ومن النعماء والمعروف ما يسر بالأسماء والحروف" . فالتفصن فى رأيه هو المقابلة بين "النعم (و) النعم / الإحسان (و) اللسان / النعماء (و) الأسماء / المعروف (و) الحروف" . وهو ترتيب تقريعى كما ترى ذو شبه بالتوشيح ، أى هو تجزئة فى وحدتين أو ثلاث أو أكثر ، ومقابلة هذه الوحدات بأخرى شبيهة بها فالموشح فى الشعر ذو أغصان ، والمفصن فى النثر ذو فروع وأغصان كذلك" (٥) .

١-ص/٧١ .

٢-ص/١٢٧ .

٣-ص/١٢٨ .

٤-ص/١٢٩ ويتصل بهذا الاستعمال قوله عن الطريق بين الحلة وبندك : "ويشق منه البساط أغصان من ماء الفولت" / ص ١٩٠ . وكذلك قوله عن حوض فى وسطه أنبوب يدفع الماء بقوة : "وحوله أنابيب مغلقة ترمى الماء إلى علو ، فيخرج منها كضبان اللجين ، فكانهما أغصان تلك الفوحة المائية" / ص ٢٤٣ .

٥-ص/ د. إحسان عباس / تاريخ الأدب الأندلسى / عصر الطوائف والمرابطين / دار الثقافة / بيروت / ط ١٩٨١م / ص ٢٢٠-٢٢١ .

ومنه "التعليب" : "والشَّرع مصلبة" (١) . أى مركبة على شكل صليب .

ومنه "الثنين" : "وهذا المقياس (مقياس النيل) عمود رخام أبيض ممتن" (٢) . أى ذو ثمانية أركان

ومنه "التركين والتقطيع والتشريف" : "ورؤوسها (ورؤوس أعمدة الهيكل الفرعونى) فى نهاية من العظم والإتقان ، قد نحتت نحتا غريبا ، فجاءت مركبة بديعة الشكل" (٣) (أى لها أركان) . وهو (أى سطح الحرم) كلمة مشرفة بشرفات مبسوطة مركبة" (٤) . "كأن الشرفات المذكورة بنيت شقة واحدة ، ثم أحدثت فيها هذه التقاطيع والتراكيب ، فجاءت عجيبة المنظر والشكل" (٥) . "وللصوامع أيضا أشكال بديعة .. ، مركبة من الأربعة جوانب بحجارة رائعة النقش عجيبة الوضع" (٦) . "ففى تخاريم فى الجص مستطيلة الشكل كأنها محاريب" (٧) . "التخاريم القرنية" (٨) . "وظاهرها .. تقاطيع فى الجص" (٩) .

ومنه "الترخيم" : "وفى جوفى الروضة المقلمة (بمسجد المدينة حوض صغير مرخم" (١٠) . أى مكسو بالرخام . "وقد قلت (البلاطات المتملة بقبلة جامع دمشق) على ثمانية وستين عمودا ،

١-ص/٢٩٠ .

٢-ص/٢٩ .

٣-ص/٣٦ .

٤-ص/٧٦ .

٥-ص/٣٦ .

٦-ص/٧٢ .

٧-ص/٨٢ .

٨-ص/٨٢ .

٩-ص/٨٢ .

١٠-ص/١٧٠ .

منها .. اثنتان مرخمة (كذا) .. وأربع أرجل مرخمة أبدع ترخيم " (١).

وبالمناسبة ، فقد ورد هذا الفعل ، فيما صدف ، في قول أبي إسحاق الإليري ، يحرض على اليهود الذين طغوا وبغوا في إحدى فتوات التاريخ الأندلسي :

ورخمهم قودهمو دأهم وأجرى إليها نير العيون

وفي " الاعتبار " لأسامة بن منقذ عن أمير شاب من الصليبيين كان قد نافق بدخوله الإسلام وبقي مظاهرا به سنين طويلة : " وتعلم الترخيم من مرخم كان يرخم دار والدي " (٢).
ومنه " التاريج " بدل " الأريج " (٣).

ومنه " التخشيع " : " ودعاؤهم كثير التخشيع في النفوس " (٤) ، أي يؤثر فيها تأثيرا شديدا فتخشع له . " فلتنع .. (رفيق ابن جبير في الرحلة ، أحمد بن حسان) من المنام لستماعا بحس ذلك المسوع ومافيه من التشويق والتخشيع " (٥) " قام الخطيب فمدع بخطبة تحرك لها أكثر النفوس من جهة الترجيع لا من جهة التذكير والتخشيع " (٦) " فعنما يصل إلى فصل من تذكير أو تخشيع يرفعون أصواتهم بيارب يارب " (٧) . " فخطب خطبة بليغة وإلى فيها الاستغفار ووعظ الناس وذكرهم وخشعهم وحضهم على التوبة والإتابة لله عز وجل " (٨).

ومنه " التشهير " : " فبنى ذلك المبنى عليه (على منزل حواء أم البشر عند جدة) تشهيرا

لبركه وفضله ، والله أعلم بذلك " (١) ، أي إعلانا عن ذلك .

و " التمسيس " : " أذكي عيون الاحتراس عليه خوفا من اغتيال يلحقه بتيسيس من ابن عمه النثر عليه " (٢) (بدلا من " التمس ")

و " التفويز " ، أي قطع المفازة ، وهي الصحراء المهلكة : " يفوزون بصحراء عذاب " (٣) .
" وفوزنا بحر يوم الجمعة .. وسرنا في الصحراء حيث جن علينا الليل " (٤) .
ومنه " التموليل والتسويد " ، أي ملادة الآخرين بـ " يمولاي " و " ياسيدي " : " ومخططة لمل هذه الجهات (دمشق) قاطبة بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد " (٥).

و " التسويح " : " واعترضنا في نصف الطريق شجرة بلوط عظيمة الجرم متسعة التسويح " (٦) .
و " التقيف " ، بمعنى " الاعتقال " : " فقام ابن عم له في الملك وقتل الزوج المذكورة وثقف الابن المذكور ، ثم لبنا للنثر المذكور عطفته الرحم على الابن المعتقل فأطلق سبيله " (٧) .
و " التغيست والتكيب " : " وربما قصد بها التعنيت والتكيب " (٨) (بدلا من " الإعنات " و " النكب ") .

و " التبييل " : " وهذا الجبل .. قلما يخلو من التبييل والزمادة " (٩) . (بدلا من ..

٥٢/ص

٣١١/ص

٤١/ص

٤٢/ص

٣٨/ص

٢٧٢/ص

٣١١/ص

١٥٩/ص

٣٦٠/ص

٢٣٧/ص

٢- الاعتبار / ص ١٢٠-١٢١

٢- ص ٧٧

٤- ص ١١٣

٥- ص ١٢٠

٦- ص ١٢٨

٧- ص ١٢٩

٨- ص ١٢٨

” التبتل “

و ” التحلية والتسمية “ ، بمعنى ” الوصف “ : ” ويقول المنادى .. : ” أبقى الله الملكة خاتون ، ابنة الملك الذي من أمره كذا أو من شأنه كذا “ ، ويحلي به حلاه ، إعلنا باسمها وإظهارا لفضلها ولستجلابا للدعاء لها من الناس “ (١) . ” وتقباء الجنائز يرفعون أصواتهم بالدعاء لكل واصل للعزاء من محتشمي البلدة وأعيانهم ويحلونهم بخططهم الهائلة (أى ألقاب الشرف التى لهم) “ (٢) . ” وهذه المدينة ، مدينة ، رأس جزيرة صقلية . وهى كبيرة المدن والعملات والضياع ، وتسميتها تطول “ (٣) .

و ” التلزم “ : ” فلزموا أداة زكاة ذلك “ (٤) (بدل ” ألزموا “) .

و ” التعشير “ : ” وكل من سولم (من سوى الموحدين) من الملوك فى هذا الأوان - يعشرون تجار المسلمين ، كأنهم أهل فمة لديهم “ (٥) . أى يفرضون عليهم العشر .

و ” التبريج والتشريف “ (له بروج وشرفات) : ” وهى حصن كبير مبرج مشرف “ (٦) .

و ” التزجية “ (بدلا من ” الإزجاء “) : ” وسرنا ذلك اليوم كله بريح تزجى المراكب تزجية

حيثة “ (٧)

و ” التمكيس “ (بمعنى ” فرض المكوس “) ، وقد تكررت. وهذه أمثلة عليها : ” ولتتهينا إلى

حصن كبير من حصون الإفرنج يعرف بتبينين ، وهو موضع تمكيس القوافل “ (٨) ” ومكس الناس

١-ص/١٦٤

٢-ص/٢٦٧

٣-ص/٢٩٦

٤-ص/١٣

٥-ص/٥٦

٦-ص/١٨٣

٧-ص/٣١٧

٨-ص/٢٧٤

تمكيسا غير مستقصى “ (١) . ” قال لنا ... : تحفظوا بما عندكم يا حجاج من العمال الممكسين

لئلا يقعوا عليكم . وظن أن عندنا تجارة تقتضى التمكيس “ (٢) .

ويدخل فى الصيغ غير المألوفة استعمال ابن جبر ” بوقات “ جمع لـ ” بوق “ . وهذه أمثلة

على ما نقول :

جاء فى كلامه عن ثبوت الهلال فى مكة : ” وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير أمر بضرب الطبول

والدبابب والبوقات ، إشعارا بأنها ليلة الموسم “ (٣) .

وفى الإشارة إلى الإعلان عن خلة خلعا أخو صلاح الدين على أمير مكة : ” وفى ضحوة يوم

الخميس بعده كنا أيضا بالحجر المكرم ، فلذا بأصوات طبول ودبابب وبوقات قد قرعت الأذان

وارتجت لها نواحي الحرم الشريف “ (٤) .

وفى الإشارة إلى الإعلان عن ركوب الخاتون ونزولها فى قافلة الحجاج العائدين : ” ولها

الريات والطبول والبوقات تضرب عند ركوبها وعند نزولها “ (٥) .

وقال فى وصف عرس صليبي فى صور : ” واصطفوا ساطين عند باب العروس المهداة ،

والبوقات تضرب والمزمار وجنح الآلات اللهوية “ (٦) .

وعن احتفال المسلمين فى أطرابلس بصقلية بالعيد : ” وخرج أهل البلد إلى مصاتهم مع

صاحب أحوكله وانصرفوا بالطبول والبوقات “ (٧) .

لقد أخذ نقاد المتنبى عليه جمع كلمة ” بوق “ على ” بوقات “ ، وقالوا إنه كان المفروض أن

١-ص/٢٧٤

٢-ص/٢٠٤

٣-ص/١٠٨

٤-ص/٢١٦

٥-ص/٢٠٦-٢٠٧

٦-ص/٢٧٨

٧-ص/٣١٠

يجمعها جمع تكسير على "أفعال" مثلا أو غيرها . وقد رد المتنبى على هذا الانتقاد بقوله إن هذه الكلمة مولدة ولم يسمع لها جمع إلا بالألف والتاء . والذي يرجع إلى "الوساطة بين المتنبى وخصومه" مثلا يجد أن الجدل الذي أثارته هذه الصيغة الجمعية قد استغرق ثلاث صفحات (١) . وقد عدت هذه الصيغة الجمعية في كتابي عن "لغة المتنبى" علامة من العلامات الدالة على ميل المتنبى في كثير من الأحيان إلى التكبر عن المؤلف في الألفاظ والمصيح . رغبة منه في إدهاش السامعين ولفت انتباههم لميقول (٢) . وأعدنا هنا أيضا من الدلائل على هذا الميل عند ابن جبير . إن المتنبى إذا كان قد استعمل هذه الصيغة مرة واحدة فقد استعملها ابن جبير عدة مرات . وإذا كان المتنبى حين استعملها لم يكن يدرى أنها ستثير اعتراض النقاد وتهيجهم عليه فلا بد أن ابن جبير كان يعرف هذا ، ومع ذلك فقد استعملها . إنني لم أخطئ المتنبى ، ولا أخطئ ابن جبير أيضا ، فليس في الأمر خطأ كما بينت في كتابي المذكور . إنما أنا مجرد مستنبط .

على أنني قبل أن أغادر هذه المسألة لود أن ألفت الانتباه إلى أن ابن جبير قد استخدم ، رغم ذلك ، صيغة جمع التكسير أيضا . وذلك في قوله : "علينا مجتمعنا من الناس عظيما برزوا لمعاينة أسرى من الروم أدخلوا البلد (الإسكندرية) راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق" (٣) .

وثمة صيغة جمعية أخرى يكرر ابن جبير استعمالها في رحلته ويخرج فيها عن المؤلف ، وهي صيغة "مفاعيل" ومايجري مجراها .

من ذلك "مشاعيل" ، التي كررها خمس مرات على الأقل بآلاء ، وذلك في النصوص التالية :

١- الوساطة بين المتنبى وخصومه / تحقيق وشرح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجلاوي / عيسى البابي الحلبي / ط ١ / القاهرة ١٩٤٥م / ص ٤٥٦-٤٥٩ .

٢- انظر د. إبراهيم عوض / لغة المتنبى / مطبعة الشباب البحر ومكتبتها / القاهرة / ١٩٨٧م / ص ٤١-٤٢ .

٣- ص ٢٤ .

"وقع الاحتفال في المسجد الحرام لهذا الشهر المبارك . وحق ذلك من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعيل وغير ذلك من الآلات حتى تلالا الحرم نورا وسطع ضياء" (١) . "وربطت في أعلاه عيدان نزلت منها قناديل وأسرجت في أعلاها مصابيح ومشاعيل" (٢) . "وجلل ذلك كله سرجا ومشاعيل وشمعا" (٣) . "وأحلفت بالحرم المشاعيل" (٤) . "وابتعد المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المنسرج" (٥) . "ولسراؤها بالليل بمشاعيل موقدة يسكنها الرجالة بأيديهم . فلابصر قشلاوة من القشاوات إلا وأملها مشعل" (٦) . والمألوف أن تجمع "مشعل" على "مشاعل" ، بغير ياء . وقد جمعها ابن جبير ، مرة على الأقل ، هكذا فعلا : "جرى الرسم في ابتعد مشاعله (أي المسجد الحرام) وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع وعشرين من رمضان المعظم" (٧) .

ومنه "الفنادق" : "وهي (قيساريات دمشق) مرتفعات كأنها الفنادق ، متقفة كلها بأبواب حديد كأنها أبواب القصور" (٨) . إن جمع كلمة "فندق" ، جريا على المؤلف ، هي "فنادق" . أما "فنادق" فالمفروض أنها جمع "فندق" ، وهي صحيفة (الحساب) (٩) . وقد جمع ابن جبير

١- ص ١٢٢ .

٢- ص ١٢٢ .

٣- ص ١٢٩ .

٤- ص ١٣١ .

٥- ص ١٣٥ .

٦- ص ١٦٥ .

٧- ص ١٢٢ .

٨- ص ١٦١ .

٩- انظر عبد القدوس لأصاوي / مع رحلة ابن جبير / ص ١١١-١١٢ / نتائج العروس . والمنجد / مادة "فندق" .

ابن جبر عن مدينة " مسينة " الصقلية : " مستندة إلى جبال قد انتظمت حضيضها وخنلقها " (١) . ولكنها في طبعة بيروت : " خنلقها " (٢) .

والآن هل أخطأ ابن جبر في زيادة " الياء " في هذه الصيغة الجمعية ؟ لقد سبق أن كررت أن المؤلف ألا تكون ثمة ياء وهو ميعنى أن زيادتها ليست خطأ ، وإن جاءت على خلاف المؤلف وأقصد بالمؤلف رأى المبرين ، الذي كتب له السيادة في النحو العربي . أما الكوفيون فلهم يجوزون زيادة هذه الياء (٣) . ابن جبر إذن يجرى في هذه الجموع على منهج الكوفيين .

وقد قال الشاعر :

تنفى يداها الحمصى فى كل هاجرة تنفى الدرايم تنقأ الصياريف

جاءا " درهم " و " ميرف " (أو " ميرفى ") على " دراهم " و " صياريف " بزيادة ياء ، بدلا من " دراهم " و " صيارف " (أو " صيارفة ") . وإن كان قد قيل فى " دراهيم " إنها جمع " درهم " (٤) . وقد وجدت أيضا محمد السنوسى فى رحلته الحجازية يجمع " باعث " على " بواعيث " ، بإضافة ياء إلى " بواعث " (٥) .

وهذان بعد مجرد مثالين .

وهناك صيغة جمعية أخرى تتكرر على نحو بارز عند ابن جبر وهى صيغة " أفعله " .

من ذلك " أزودة " (جمع " زاد ") : " وكان أكثرهم متشخصين لأداء الفريضة لم يستصحبوا

١-رحلة ابن جبر / ط ١ / ص ٢٠٦ .

٢-رحلة ابن جبر / ط بيروت / ص ٢٩٦ .

٣-انظر فى هذا محمد عبدالعزيز النجار / ضياء السالك إلى أوضح المسالك / ج ٤ / ص ٢١٨ ، ٢١٩ و إبراهيم عوض / لغة المتنبى / ص ٤٤ .

٤-هذا البيت نسبته سيويه للفرزدق ، وإن كان هناك من يقول إنه ليس له . انظر فى الأمر كله " شرح قطر الندى وبل العدى " لابن هشام / تحقيق محمد محيى الدين عبدالحيد / شاهد ١٢٤ و " تاج العروس " / مادة " صرف " و " درهم " .

٥-الرحلة الحجازية / ج ١ / ص ٩٤ .

كلمة " فندق " أيضا على " فنداق " (١) .

ومنه " قناطير " ، التمسى وردت فى القرآن جمعا لـ " قنطار " ، وذلك فى قوله تعالى : " والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة " (٢) ، ولكن ابن جبر جعلها جمعا لـ " قنطرة " : " ومن جملة الدواعى لافتراقهم كثرة القناطير المعترضة فى طريقهم إلى بغداد ، فلا تكاد تمشى ميلا إلا وتجد قنطرة على متفرع من الفوات فتلك الطريق أكثر الطرق سواقى وقناطير " (٣) . " فلو زاحم ذلك البشر تلك القناطير دفعة لما فرغوا من عبورها " (٤) . وبالنسبة فقد استعمل ابن جبر هذه الكلمة جمعا لكلمة " قنطار " أيضا : " أنفق فيها قناطير الذهب " (٥) .

ومنه " زخاريف " : " وكان هذا الجلمع المارك (جلمع دمشق) مزخرفا بأبداع زخاريف البناء المعجز الصنعة " (٦) .

ومنه " خواتيم " : " وسطحه (سطح قرية بيت لاهية القريبة من دمشق) كله مفروش بفصوص الرخام الملونة ، منتظم كله خواتيم وأشكالا بديعة " (٧) " وداخل هذه القبة - خواتيم من الخشب منتظم بعضها بعض - أبصرنا من تلك الخواتيم الخشبية ختاما مطروحا جوف القبة " (٨) .

وقد وردت " خنابق " جمعا لـ " خندق " فى الطبعة العربية الأولى من الرحلة ، وذلك فى قول

١-انظر مثلا ص ١٠٣ .

٢-آل عمران / ١٤ .

٣-ص ١٩١ .

٤-ص ١٩١ .

٥-ص ٢٠٦ .

٦-ص ٢٤١ .

٧-ص ٢٤٩ .

٨-ص ٢٦٥ .

سوى زك لطريقهم .. وأمر المسلمون بتزليل أسبائهم ومفضل من لزودتهم " (١) . " ولختون
منه أفعال من البر كثيرة في طريق الحاج : منها سقى الماء للسيل . عينت لذلك نحو الثلاثين
ناضححة ، ومثلها للزاد . ولستجلبت لما تختص به من الكسوة والأزودة نحو الملة
بعير " (٢) . " ولهم بها معارف يتركون لزودتهم عندهم " (٣) .

وممن ذلك " أصبغة " (جمع " صبغ ") : " وقد انتظمت جميعه التصاوير البديعة والأصبغة
الغريبة " (٤) . " قد زينا برسم يتضمن ألوانا من الأصبغة " (٥) . " وخلطت بها أنواع من الأصبغة
الغريبة " (٦) .

ومنه " الأنصبه " (جمع " نصلب " ، وهو المقبض) : " في أيديهم المسال الطوال ذوات
الأنصبه " (٧) .

ومنه " أنعله " (جمع " نعل ") : " تطووا الأقدام وتمتهنها بأنعلتها العولم " (٨) .
ومنه كذلك " أسطه " (جمع " ساط " ، أى المائدة) : " يتصل منها أسطه بين الصفا
والمروة " (٩) .

ومنه أيضا " الأكرية " (جمع " كراه ") : " وابتنى (جمال الدين ، وزير صاحب الموصل) ..

فنادى عنها لنزول الفقراء أبناء السيل الذين يضعف أحصم عن تأدية الأكرية " (١) .
ومنه " الأبنية " (جمع " بناء ") : " وقد شاع الخير بنزول سيف الإسلام الزاهر ، وضرب أبنيت
فيه . ومقمت من المعسكر قد وصلت إلى الحرم " (٢) .

ومنه " أبلطة " (جمع " بلاط ") : " في الجانب القبلى منه خمسة أبلطة " (٣) . " وهو خمسة
أبلطة " (٤) . ومع ذلك ، فالغالب جمعه " بلاط " على " بلاطات " .

ومن ذلك " أسورة " (جمع " سوار ") : تحفها سواريات (سوار صغيرة) مقتولات قتل الأسورة ،
كأنها مخروطة " (٥) .

ومنه " أكسية " (جمع " كساء ") : " وللربوة المباركة أوقاف كثيرة .. فمنها .. مامو معين
للأكسية برسم الأغنية بالليل " (٦) .

ومنه " أزمه " (جمع " زمام ") : " دله قومة (مشرفون قائمون عليه . والكلام عن ملوستان)
بأيديهم الأزمه (السجلات) المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها
فى الأدوية والأغنية وغير ذلك " (٧) .

هنا ما استطعت جمعه . وإذا كان بعض هذه الجموع لا تشير أى تعليق فإن بعضها الآخر يستدعى
ذلك . إن المعتاد هو إفراد " كراه " فى مثل السياق الذى وردت فيه عند ابن جبير ، لاجمعها .
كما أن جمع " زد " و " صبغ " و " نعل " الفيلسى هو على الترتيب : " لزودك " و " أصباغ " .

١-ص/١٢

٢-ص/١٦٢

٣-ص/١٨٣

٤-ص/٣٦

٥-ص/١٧٢

٦-ص/٢٣٥

٧-ص/٢٩

٨-ص/٩٠

٩-ص/٩٨

و " نعال " . هل نقول إن " أزودة " هي جمع غير قياسي لـ " زاد " . ولكن لماذا ترك القياسي ؟ وهل نقول إن " أصبغة " جمع " صباغ " ؟ فلماذا ترك " صبغ " ، ونوى " صباغ " ؟ ثم هل نقول إن " أعلّة " هي جمع الجمع ؟ ولكن لماذا جمع الجمع ؟ لاجواب إلا أنه ترك المألوف إلى غيره . لما " بلاط " فالذي ترتاح إليه الأذن هو " بلاطات " ، التي تستخدمها في معظم الأحيان فعلا . ومع ذلك فقد قال : " أبلطة " أيضا

ومن صيغ الجمع أيضا التي تلفت الانتباه بكثرة تكررها في الرحلة صيغة " قَعْلَة " (بفتح الفاء والعين) ، التي تكرر استخدمه لها جمعا لـ " فاعل " بدلا من صيغة الجمع السالم في بعض الأحيان أو صيغة جمع تكسير أخرى أكثر شيوعا

من ذلك " قَوْمَة " (بدل " قَائِمُون " ، أي المشرفون) : " قد وُكِّلَ بها قَوْمَة يسكنون فيها ويحفظونها " (١) . " وذكر لنا أن لجمع عمرو بن العاص بمصر من الفلاند نحو الثلاثين ديناراً مصرية في كل يوم تتفرق في مصالحته ومرتببات قَوْمَتِه وسَلَتَتِه وأُثْمَتِه والقَوَاة فيه " (٢) . " يتهدى رويدا بين رايتين سوداويين يسكنهما رجلان من قومة المؤذنين ، وبين يديه ساعيا أحد القَوْمَة " (٣) . " وأجرى على قَوْمَة تلك الفنادق والمنازل مايقوم بمعيشتهم " (٤) . " وبين أيديهم قَوْمَة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية " (٥)

١-ص/٢٢٢. وقد استخدم " قَوَام " في صفحة ٣٠: " والجرييات متصلة لقوامها في كل شهر "

٢-ص/٢٤. وقد جاء في " نزهة المشتاق " للإندريسي (الجغرافى العربى المسلم المشهور) عن مصحف عثمان ، الذى كان موجودا في جامع قرطبة : " وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قَوْمَة المسجد " ، نقلنا عن كتاب " الشريف الإندريسي " لعبدالله كتون / مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى / بيروت / ص٤٤ وجهه في ص ١١ من " مستفاد الرحلة والاعترا ب " للتحيى السبتي ، عن جامع السيدة نفيسة بمصر : " وله أيضا خُتْلَم وقومة " .

٣-ص/٢٢.

٤-ص/١٠٢-١٠٤.

٥-ص/٢٠١.

ومنه " حَزْمَة " : " له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة " (١) .

ومنه " ظَلْمَة " (بدلا " ظالمون ") : " والله الآخذ على أيدي هؤلاء الظلمة " (٢) .

ومنه " خَلْمَة " : " وبين يدي ذللك القيم خمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية " (٣) . " وبين يديه في درجلك المنبر طائفة من الخمة يسكنون أنوار الشمع بأيديهم " (٤) . " وأمر هذا الرجل عجيب في قعده وأبهته .. وكثرة عيية وخَلْمَتِه " (٥) . " ولتدر الجمع مرده من الخمة يخترقون الصوف ويتخطون الرقاب " (٦) . " أعلمنا به أحد خَلْمَتِه المتخصصين به " (٧) .

وقد صادفت هذه الكلمة في " الرحلة الحجازية " لمحمد السنوسى عدة مرات (٨) .

و " التَّبراة " : " ولهذا الرجل - من الآثار السنية - التي لم يسبقه إليها الأكابر الأجواد وسراة الأمجاد - ليفوت الإحصاء " (٩) .

ومنه " قَرَاة " (بدل " قَرَأ ") : فيرتج المسجد لأصوات القَرَاة من كل ناحية " (١٠) . " فتفص الخاتمة بالقراءة كل جمعة " (١١) .

ومن الكتاب القدماء الذين كانوا يستعملون هذه اللفظة كثيرا ابن جرير الطبرى ، وذلك في

١-ص/٢٢.

٢-ص/٢٩.

٣-ص/٢٦.

٤-ص/١٢٩.

٥-ص/١٧٩.

٦-ص/١٧٩. وقد استخدم في نفس الصفحة كلمة " خُتْلَم " أيضا .

٧-ص/٢٩٨. وقد ورد هذا الجمع في " مستفاد الرحلة والاعترا ب " / ص٢٢٠.

٨-محمد السنوسى / الرحلة للحجازية / ح١/ ص٢٤٣، ٢٧٥.

٩-ص/١٠٣.

١٠-ص/١٢٢.

١١-ص/٢٦٣. وقد استخدم في نفس الصفحة كلمة " قَرَأ " أيضا ، وكذلك في ص/٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠ على سبيل المثال .

تفسيره المشهور عند كلامه عن القراءات المختلفة.

ومن ذلك أيضا "نُشْأَة" (بدل "ناشئون") : "فمن شاء الفلاح من نُشْأَة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد" (١).

وعلى هذه الصيغة الجمعية وردت في "مستفاد الرحلة والاغتراب" للتجيبى السبتي "حَجَبَة" ، جمع "حاجب (القصر)" ، (٢) ، و "وَرَعَة" ، جمع "وازع" (٣).

ومن هذا الباب أيضا استخدامه للفعل "عَد" أحيانا في معنى "مسار" و "أعد" في معنى "مَيَّر" . ولا أقول إن هذا خطأ ، فإنه أحد معاني هذا الفعل ، ولكن ذلك خلاف المشهور الشائع . ومنه بعض أمثلة :

"واتقوا المشعر الحرام تلك الليلة كلها مشاعيل من الشمع المُتَرَج . ولما مسجده المذكور فعاد كله نورا ، فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به" (٤) . وعلى هذه الصفة (صفة الإضاءة الساطعة) عاد الحرم بهم مدة مقلهم فيه" (٥) . "فتعود جمرة العقبة في هذين اليومين أخيرة ، وهي يوم النحر أولى منفردة" (٦) . "وفي أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام ... سوقا عظيمة يباع فيه من الدقيق إلى العقيق ، ومن البر إلى التمر ، إلى غير ذلك من السلع" (٧) . "وكانت مقصورة المحلبة أولا في نصف الحظ الإسلامي من الكنيسة ... فلما أعيدت الكنيسة كلها مسجدا صارت مقصورة المحلبة طرفا في الجانب

١-ص/٢٥٨.

٢-مستفاد الرحلة والاغتراب / ص٤٤٥، ٢٧٩، ٢٦٤.

٣-ص/٢٠٨.

٤-ص/١٥٥.

٥-ص/١٥٥.

٦-ص/١٥٦.

٧-ص/١٦٠.

الشرقي" (١) وهي (وهبة متصلة بمنفرد الأتنياء والمالحين خارج دمشق) لا تخلو من الماء حتى علت قواراة له" (٢) . "ومن أعجب ما حدثنا به خديمه المذكور (خديم ملك صقلية ، وهو مسلم) أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره فتعود مسلمة : تعيدنا الجوارى المذكورات مسلمة" (٣) .

ومما يلحق بخروج ابن جبير في أسلوبه عن المؤلف أحيانا أنه يستخدم بعض الألفاظ التي ألف تأليفها ، بصيغة التذكير ، والعكس بالعكس .

مثال ذلك "نعلة" (بدل "نعل") : "فعند صعوده في أول درجة قلعه المؤذن المذكور السيف . ثم ضرب بنعلة سيفه فيها ضربة أسمع بها الحاضرين" (٤) . مع أنه سبق أن استخدمها بصيغة التذكير ، في وصف موقف مماثل : "وعند صعوده المنبر يضرب بنعل سيفه المنبر في أول لوتقائه ضربة يسمع بها الحاضرين كأنها يذلل بالإنصاف" (٥) .

و "قرصة" (بدل "قرص") : "والمتحفظ لا ينفو من الموقف حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس" (٦) . "لأن منعب مالك رضى الله عنه ، يقتضى ألا يتنقر حتى يتمكن سقوط القرصة من الشمس ويحين وقت المغرب" (٧) . ورغم ذلك فقد استعملها أيضا بدون التاء في نفس الصفحة وفي موضع آخر بعد ذلك : "فلزال الناس على تلك الحالة والشمس تلفح وجوههم إلى أن سقط

١-ص/٢٢٨-٢٢٩.

٢-ص/٢٤٧.

٣-ص/٣٩٩.

٤-ص/٧٢.

٥-ص/٢٥.

٦-ص/١٥١.

٧-ص/١٥٢.

قرصها وتمكن وقت المغرب " (١) . " فلا يزالون واقفين داعمين متضرعين إلى أن يسقط قرص الشمس " (٢) . ولعل القارىء قد لاحظ أن العبارة واحدة في كل هذه المواضع ، وهي " سقوط قرص (ة) الشمس " .

ومنه كلمة " فائد " (بدل " فائدة ") : " ولا فائد للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المحبسة المعينة من قبله لهذه الوجوه " (٣) " إن له من ذلك قلدا كبيرا " (٤)

و " مطبخة " (بدل " مطبخ ") : " الناظر في مطبخته رجل من المسلمين " (٥) . وقد قبلت هذه الكلمة في " مستفاد الرحلة والاعترا ب " للتجيبى السبى : " ورتب مطبخته (أى ابن طولون) كل يوم ألف دينار " (٦)

و " الاستطاع " (فى مكان " الاستطاعة ") : وأحكم ذلك إحكاما يدل على قدرة الانتصاع وقوة الاستطاع " (٧) . وقد علق شارح ألفاظ الرحلة فى الهمش قائلا : " لعلها المستطاع ، لأن لا وجود للفظ (الاستطاع) فى اللغة " . ولكن ما قوله فى استعمال ابن جبير لها مرة ثانية على الأقل ، وذلك فى قوله : " تدل على عظم الاستطاع والقدرة " (٨) .

ومنه " مخجلة " (بدل " مخجل " ، أى المفازة التى لا يثبتى بها) : " وربما كان من الحجاج

من يتعسف تلك المججلة على قدميه فىض ويهلك عطشا " (١) .

ومنه " صفح " (فى موضع " صفحة " أحيانا ، بمعنى " الجانب " و " الوجه ") : " ارتفاعه (أى البيت الحرام) فى الهواء من الصفح (أى الجانب) الذى يقابل باب الصفا - إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعا " (٢) . فأحد الأعمدة - يقابل نصف الصفح الذى يحف به الركن اليمانيان . وبينه وبين الصفح مقدار ثلاث خطا . والعمود - يقابل الصفح الذى يحف به الركن اليماني والعراقى والشلمسى " (٣) . " وفى الصفحين الصغيرين مئة عشر " (٤) - إلخ .

ومنه قوله : " ومثينا فى بسيطة من الأرض ينحسر الطرف دون أبنائها ولا يبلغ مداها " (٥) . بدلا من " بسيط " ، التى يغلب استعماله لياما .

ومنه " محلّة " (بدل " محلّ ") (أى مكان النزول والإقامة) فى كثير من الأحيان) : " وكانت محلة الأمير العراقى جميلة المنظر " (٦) " سبقت كسوة الكعبة المقدسة من محلة الأمير العراقى إلى مكة " (٧) . " وفى عشيّ يوم الأحد - كان مسيرنا إلى محلة الأمير العراقى " (٨) . " وبهذه المحلة العرفية - جمع لا يحصى عنده " (٩) - إلخ .

١-ص/٤٦

٢-ص/٥٩

٣-ص/٦٠

٤-ص/٦١

٥-ص/١٨١

٦-ص/١٥١

٧-ص/١٥٧

٨-ص/١٦٠

٩-ص/١٦٢

١-ص/١٥٢

٢-ص/٢٦٤

٣-ص/١٦

٤-ص/٨٩

٥-ص/٢٩٨

٦- مستفاد الرحلة والاعترا ب / ص ٦

٧-ص/١٨٤

٨-ص/١٨٩

و "دائر" (محل "دائرة" أحيانا) : "ودائر البيت كله من نصفه الأعلى مطلقا بالفضة المنعجة المستحسنة" (١). "وسمى دوائر المحراب كله بمسلم حديدة الأطراف غرز فيها الشمع فلستدار بالمحراب كله" (٢).

و "ثوب" (بدل "ثوبه") : "وقفنا بإزائها مسلمين ، ولثوب جنباتها مستلمين" (٣).

و "الصقال" (بدل "الصقابة") : "والقيان والصقال بأيديهم مقلع الحديد" (٤).

و "أنبوب" (بدل "أنبوبة") : "ووضعت فيها الزجاجات ذوات الأسليب لا يزيد منها أنبوب على أنبوب في القد" (٥). "وفي وسط الحوض الرخلى أنبوب صقز (نحاس) يزعج الماء بقوة فيرتفع إلى الهواء أزيد من القامة" (٦).

و "لجاج" (بدل "لجاجة") : "والريح الغربية على أول لجاجة" (٧). "والبرج بها قد جُنّ ولستشوى لجأجه" (٨).

كما رأينا ابن جبير ، فيما مرّ ، يستخدم أكثر من مرة كلمة "وظيف" بدل "وظيفة" ، وإن كان يستخدم الأخيرة أيضا.

ومثل ذلك يقال عن استعماله "مَضَع" (بمعنى "حوض الماء المبني لتجميع مياه المطر") عدة مرات في مكان "مَضْعَة" ، وإن كان قد استخدم هذه أيضا.

١-ص/٦٠.

٢-ص/١٢٨.

٣-ص/١٦٧.

٤-ص/١٧٧. وقد سبق في ص/١٧٦.

٥-ص/١٣٠.

٦-ص/٢٤٣.

٧-ص/٢٨٥.

٨-ص/٢٨٨.

ومنه أيضا قوله : "وصموه تكف ، وصوته ترق وتضعف" (١) ، بتأنيث "الصوت" . وقد ظننت في البداية أن هذا من خطأ النسخ ، لكنني لما رجعت إلى الطبعة الأولى ، وهي مأخوذة عن طبعة المستشرقين ، ووجدت أنها بالتأنيث أيضا ، وكنت أعلم مما قاله عبد القدوس الأنصاري أن طبعة بيروت ، وهي التي عليها معولي ، تكاد أن تكون هي هي طبعة دحسين نصار (٢) ، تزعم هذا الفن ، إذ لا يعقل أن يسكت كل هؤلاء المحققين على هذا الخطأ ، ثم رجعت إلى بعض المعاجم العربية لأستبين وجه الحق في ذلك ، فإذا بي أعثر على هذا البيت من الشعر ، وهو لرويشد بن كثير الطائي :

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد : ما ملئه الصوت ؟ (٣)

فنعلم قوياً عندى احتمال أن يكون ابن جبير قد قصد تأنيث الصوت قصدا ، متابعاً في ذلك هذا البيت أو غيره مما يمكن أن يكون صلافة في قراءاته ، رغبة منه في تجنب الشائع المألوف ، كما هو ديدنه في كثير من الأحيان مثلاً رأينا

وقد استقبح بعض اللغويين ، كبن سيدة التأنيث هنا رغم حمله على الضرورة الشعرية ، وقد وجه الجوهري في "الصحيح" التأنيث في البيت إلى أن الشاعر أراد "الضوضاء والعجبة والاستغاثة" ، وتابعه في ذلك فيما يبدو صاحب "تاج العروس" ، ومع ذلك ، فربما كان تأنيث الصوت لغة لم يتبها إليها هؤلاء العلماء ، وهناك في اللغة العربية أسماء تذكر وتؤنث في الوقت ذاته ، مثل "السوق" و "البطن" و "الطريق" و "السييل" والمصراعات و "الزقاق" (٤) . وقد يكون الصوت من بينها.

ولا يوقف خروج ابن جبير على المألوف عند هذا الحد ، بل إنه كثيراً ما يتوكل اللفظة المألوفة

١-ص/١٢٠. وفي الطبعة الأولى ص/١١٧.

٢-انظر مع ابن جبير في رحلته / ص ٢٤٢.

٣-انظر "الصحيح" و "تاج العروس" / مادة "صلى" .

٤-انظر مثلاً "تاج العروس" / مادة "صلى" ، و "الصحيح" / مادة "زقق" .

إلى أخرى قليلة الحظ من الأتس والشيوع

مثلا نراه يقول " الجَلَمَــــان " بدلا من " المقص " : " وبإزائها وخلمتان متصلتان بجدار
الصخر المقابل للميزاب أحدث الصانع فيهما من التوريق الرقيق والتشجير والتضبيب ما
لا يحدثه الصنع اليدين في الكاغد قطعا بالجَلَمَين " (١) . " فيلقون نواصيهم بين يديه .
فيستدعى جَلَمَين ويجزها ناصية ناصية " (٢)

وهذه الكلمة مأخوذة من " جَلَم " ، أى قطع . وسمى المقص " جَلَمَين " ، لأن " الجَلَم " هو أحد
شقيه وهو في هذا يشبه كلمات "trousers" و "glasses" و "shoes" الإنجليزية .

وهناك بيت لعترة العيسى ، الشاعر الجاهلي المشهور ، وردت فيه هذه الكلمة ، وهو :

حرق الجناح ، كأن لَحَى رأسه جَلَمَان ، بالأخبار هش مولع

ما يدل على أن هذه التسمية لـ " المقص " قديمة .

ويقول " قضاة " ، بدل " نحافة " : " ثم يعالج إدخال سائر جسمه ، فمنهم من يتقى له بحسب
قضاة بدنه " (٣)

و " اللز " بسدل " الضغط " : " وحفت به ، أعمد الرصاص المصقة إليه إبلاغا في قوة لزه
ورمه " (٤) . " زائدا إلى ميكابده بدنه من اللز في ذلك المضيق " (٥) . " فكلبد من لز الزحلم
عتا ومشقة " (٦)

و " نكست " بدل " نط " : " وكتاهما غريبة المنظر فيهما نكت تنفتح عن لونها إلى الصفرة

قليل كأنها تجزيع ، وهي أشبه الأشياء بالنكت التي تبقى في اليد من حلق الذهب فيه " (١) .
و " رقع " بدلا من " لوتحل " ، و " وضع " بدل " وسط الطريق ومحجته الواضحة " : " فإذا كان
في عشية رفعوا وأسرروا ليلتهم " (٢) . " وفي ظهر يوم الثلاثاء .. كان رقعنا من مجاج ..
مالكين على الوضع " (٣) .

و " تثل " بدل " لملك " : " تأثلوا بها النيار والرباع " (٤)

و " الناض " بدل " نقد الذهب والفضة " : " وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة
ذلك كله " (٥) . " ققم نفيس فخائره وناض ماله " (٦) .

و " الإشقى " بدل " المخز " : " وما فيه مغرز إشقى ولا إبرة إلا وفيه صورة أو نقش " (٧) .

و " الأوزاع " بدل " ألباع " : " الخدام والألباع والأوزاع " (٨) .

و " الأوزاع " هي الفرق من الناس والجماعات ، ولا واحد لها من لفظها . وقد تصادف أن فتحت
وأنا أكتب هذه الفقرات كتاب الأديب السعودي المرحوم أحمد السباعي " أيامي " (٩) ، فإذا به
في الصفحة السادسة عشرة يقول : " وكنا (يقصد تلامذة الكتاب) في نظر ققيه الكتاب أوزاعا ،

١-ص/٦٥.

٢-ص/٥٧ وفي " استفاد الرحلة والاغتراب " للقلم النجيب السبتي نجد الفعل " رقعنا من (المكان الفلاني) " قد
تكرر عددا من المرات . ص/٢٠٤-٢٠٣-٢٠٢ مثلا .

٣-ص/٤٤.

٤-ص/٤٥-٤٦.

٥-ص/١٢.

٦-ص/١٤٨.

٧-ص/٣٧.

٨-ص/٧٤.

٩- ط١/سلسلة " الكتاب العربي السعودي " رقم ٧٨/جدة / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م

١-ص/٦٤

٢-ص/١٧٨

٣-ص/٩٤

٤-ص/٦٦

٥-ص/٩٤

٦-ص/١١٨

تتنوع حقائقنا بتنوع أقالمنا الاجتماعية . مستخدما " الأوزاع " فى معناها كما نص عليه المعجم . ولم يتجاوز فيه كما فعل ابن جبير .

و " الطوليسر " بدل " الصحف " : " والمقيد (أى الكاتب) يسود طوليسره بالتقيد " (١)
و " الوجبة " بدل " السقطة " : " فقام ابن حسان مذكورا - مترددا فى حياة الرجل أو موته لشدة تلك الوجبة " (٢)

و " الأسبوع " بدل " السبعة " : " فإذا فرغ من الأسبوع وركع عاد لإقامة ترلويع أخسر " (٣)
" فإذا فرغوا من تسليمين عادوا لطواف أسبوع " (٤) . وقد لاحظت أن محمد رشيد رضا فى رحلته إلى الحجاز يستخدم هذه اللفظة عند الكلام عن الطواف لإفرادا وجمعا (أسبوع - أسابيع) (٥) . ويبدو لى أنه متأثر فى ذلك بابن جبير ، كما فى كلمة " بسيط " ، التى مروت . ذلك أنه أكثر فى هذه الرحلة النقل عن ابن جبير . كما وجدتها فى " مستفاد الرحلة والاعترا ب " للتجيبى السبتي (٦) . وبالنسبة فإن هذا المؤلف كان يمتدح معه رحلة ابن جبير فى سفرته هذه إلى الحجاز ، وعاق عليها فى أكثر من موضع فى كتابه .

و " السليسط " بدل " الزيت " : " وقد وضعت بيد كل منهم كرة من الخرق المشبعة سليطا فوضعوها متقنة فى رؤوس الشرفات " (٧)

و " الأحوال " بدل " الثروات " : " وركب البحر فى جلاب كثيرة مشحونة بأحوال عظيمة ولأموال

لا تحصى كثرة " (١) . وبالجلة فحاله لا توصف كثرة واتساعا ، والذي أثبت له أكثر " (٢) .
و " يهطع " بدل " يسرع " و " المرملون " بدل " الذين نفذ منهم الزاد " : " فيهطع إليه المرملون من الزاد والماء يقربهم وأباريقهم فيملأونها " (٣) .
و " العقلة " بدل " التوقف " : " فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعى من المستوفى العقلة والنظر لإدراجها " (٤) .

" ووصل أمر من ملك عقلية بعقلة المراكب بجميع السواحل بجزيرته .. فليس لمركب سبيل للسفر " (٥) .

و " أسد " بدل " أسرع فى السير " : " فهزمتنا هزيمة ، ورحلنا وأسدنا إلى المباح " (٦) .
و " الخصة " بدل " الحوض " : " وفبى أعلاها خصة رخام مشنة يخرج عليها أبواب من الماء خروج نزاعج وشدة " (٧) .

و " الأشبه " بدل " الأحسن " : " على أن الفتر المحمود لم يسبب لنا إلا محبة الأشبه منهم " (٨) .

و " اليلاك " بدل " الزواج " : " تخلب بعضهم فليتعد ملاكها " (٩) .
و " أشفت " بدل " أكثر " ، و " منلوة " بدل " أطيب " : " بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشفت

١-ص/١٤٨

٢-ص/١٤٨

٣-ص/١٦٤

٤-ص/١٩٢

٥-ص/٢٠

٦-ص/٢٠٨

٧-ص/٢١١

٨-ص/٢١٢

٩-ص/٢٢٥

١-ص/١٠٥

٢-ص/١٢١

٣-ص/١٢٢-١٢٣

٤-ص/١٢٣

٥-انظر " رحلات إمام محمد رشيد رضا " / ص ١٢٣

٦- مستفاد الرحلة / ص ٢٢٧

٧-ص/١٢١

قليلا، وهو سرارة أرض فلسطين (١)

و "دَسِر" بدل "غضب وهاج" : "ونحن نجري بريح شمالية شرقية فنثرت وعصفت فطار لها المركب بجناحي شراعه" (٢)

و "الحصاة" بدل "العقل" : "واستمال نفوسنا بشرف منزعه، وخصوصية شمائله، ورزاقته حصاته" (٣) ... وهذه ليست إلا أمثلة

بعد هذا نجد أن من الصعب موافقة الدكتور شوقي ضيف فيما يصف به رحلة ابن جبير من أنها "مكتوبة بلغة سهلة بسيطة ملائمة تماما لموضوعها" (٤). فإن ابن جبير كانوا يلتكّب الشائع المألوس من الألفاظ والصيغ إلى المهجور أو على الأقل ما هو أقل شيوعا. ثم إنه لم يستخدم أسلوبا مترسلا طول الوقت، بل لجأ إلى السجع في موطن كثيرة على ملساين فيما بعد، وإن لم يكن سجعه من النوع الثقيل الذي يجثم فوق صدر العبارة ويجعل القراءة عملية مرهقة، كما هو الحال في أسجاع لسان الدين بن الخطيب مثلا. ومع هذا، فإن حيوية أسلوبه وتواضع نفسه ورغبته في أن يشرك القارئ معه في كل ما يشاهد ويجرب، كل ذلك يعنّي على هذا السمة في أسلوبه، ويجعل لكلامه علفة في النفس، وبخاصة أنه في تنكبه للشائع المألوف أحيانا لا يفعل ذلك، فيما هو ظاهر، تفاصيلها، بل يواتي قلمه هذا النوع من الألفاظ على نحو طبيعي. ونظرة إلى ما بلغنا من نشره الآخر (غير الرحلة) توقفنا على صدق هذه الملاحظة، فإن التكلف بلاد عليه.

ومما لوحظ على لغة ابن جبير تكرار إيراده بضع كلمات أعجمية إسبانية (غير الأخرى التي من غير الإسبانية كـ "الربا" (المقرة)، وهي كلمة مصرية قديمة (٥)، و "الخان" (بيت

١-ص/٢٦٠.

٢-ص/٢٨٨.

٣-ص/٢١٤.

٤-د شوقي ضيف / الرحلات / ص/٢١.

٥-ص/٣٦.

السافرين)، وهي فارسية كما مرّ.

وقد قبلني من هذا النوع من الألفاظ كلمة "بَطَسَه"، أي عمّده، بمعنى رش عليه الماء عند تنصره أو تنصيره : "فما زال الشيطان يستهويه ويغويه إلى أن نبذ دين الإسلام فكفر وتنصر مدة مقلنا بصور، فانصرفنا إلى مكة وأعلمنا بخبره، وهو بها قد بَطَسَ ورَجَسَ" (١).

و "القومس"، وهو الكونت : "القومس اللعين صاحب طرابلس وطبرية" (٢).

و "البلغريون"، أي الحجاج (حجاج بيت المقدس). "صعدنا إلى المركب... وصعدنا من النصارى المعروفين بالبلغريين، وهم حجاج بيت المقدس" (٣). "وورث هؤلاء الأموات من المسلمين والنصارى البلغريين رئيس المركب" (٤). "وبهذا الموضع نزل كثير من البلغريين... وكل من نزل من البلغريين باع فضلة زاده" (٥).

و "القنانية"، وهي ما لا أدري معناه : "وأبصرنا محارث ومزارع لم نر مثل تربتها طيبا وكروما وتساعا، فشبهناها بقنانية قرطبة" (٦).

وهناك كلمة أخرى معربة سمعها وهو في السفينة عائدا إلى بلاده، وهي سفينة جنوبية، ولا أدري من أية لغة. ولعها لاتينية أو من إحدى اللغات المتصلة بها، وهي كلمة "الغلينى"، أي الهول الساكن : "ولم يبق للجهات الأربع نفس يتنسم، فبقينا لاعيين على صفحة ماء... وهذا الهول الذي يسميه البحريون الغلينى" (٧). ولا أظن أن هناك كلمات أخرى من هذا النوع.

١-ص/٢٨١.

٢-ص/٢٨٢.

٣-ص/٢٨٣.

٤-ص/٢٨٧.

٥-ص/٢٩٢.

٦-ص/٣٠٧.

٧-ص/٢٨٦.

لقد كان ابن جبير أندلسيا ، وفي الأندلس كانت تتعاش العربية الفصحى وعلميتها مع اللاتينية والرومانشية . وكان كثير من المسلمين ، وبخاصة رجال الدولة وعلمائها ، يعرفون العلمية الإسبانية (الرومانشية) عن طريق المصاهرة والاحتكاك اليومي والرسمي بأهل النمة من نصارى الأندلس ويهودها . الذين كانوا يتكلمون في بيوتهم وبين أهلهم . وفي الشارع أحيانا بلغتهم (١) . فمن الطبيعي أن تعلق بذهنه ولسانه بعض الكلمات الإسبانية .

ومعروف أن كثيرا من خرجات الموشحات الأندلسية كانت تضم كلمات رومانشية . ومع هذا فالكلمات الأعجمية التي من هذا النوع ، كما ترى ، كلمات جد قليلة لا تتسوغ قول عبد القوس الأنصاري إنه كان يستعمل في استعمالها (٢) .

أما الشيء المتعلق بالألفاظ الأعجمية والذي لم أجد فيه لابن جبير ، فيما قرأت للكتاب العرب القلماء ، نظيرا فهو تأريخه لحوادث رحلته في معظم الأحيان بالتاريخ الإفرنجي (أو الأعجمي كما يسميه) مع التاريخ الهجري . وهامى ذى بعض أمثلة على ما أقول :

" أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور (سنة ثمان وسبعين وخمسمائة هجرية) ، وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي " (٣) .

" يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور ، وهو الثامن عشر من يولييه " (٤) .

" استهسل هلاله (هلال جمادى الآخرة) ليلة الأربعاء . وهو الحادى والعشرون من شهر شتير العجمى ونحن بالحرم المقدس " (٥) .

١- أنظر في هذا النقطة د أحمد ميكل / الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة / دار المعارف / القاهرة / ١٩٧٩م / ص ٤٦-٤٧ .

٢- أنظر " مع ابن جبير في رحلته " / ٢٤٨ .

٣- ص ٧ .

٤- ص ٤٩ .

٥- ص ١٠١ .

" استهل هلاله (أى شهر ذى الحجة) ليلة الخميس بموافقة الخامس عشر من مارس " (١) .

" هلاله على الكمال من ليلة الإثنين . بموافقة الرابع عشر من مليه " (٢) .

" وأقما بها يوم الأحد المذكور ويوم الاثنين بعده . وهو الثانى ليولييه " (٣) .

" استهل هلاله (شهر رجب) ليلة الثلاثاء بموافقة التاسع لشهر أكتوبر " (٤) .

" ليلة التاسع عشر لرجب المذكور ، والسابع والعشرين لأكتوبر " (٥) .

بل إنه في بعض الأحيان كان يؤرخ بالإفرنجي فقط (٦) .

قلت إننى لم أجد ، فيما قرأت للكتاب العرب القلماء ، نظيرا لابن جبير في التأريخ بالشهور الإفرنجية إلى جانب الشهور العربية . فإبن بطوطة مثلا (وهو مثله من المغرب الإسلامي) لا يستخدم إلا التاريخ الهجرى اللهم إلا مرة واحدة ، وذلك عند كلامه عن زيادة النيل . فقد أوح ذلك بشهر حزيران ، وأعقب ذلك قائلا : " وهو يونيه " (٧) . فإبن بطوطة لم يلجأ إلى الشهر الشمسى إلا عند كلامه عن زيادة النيل . وهى ظاهرة مرتبطة بالشهور الشمسية النابتة مع الفصول . لا القمرية المتغيرة . وقد ذكر الاسم السرياني للشهر أولا ، ثم أعقبه بالاسم الإفرنجي .

وعند البغدادى تقابلنا أسماء بعض الشهور القبطية ، وذلك عند تأريخه للتفريخ في

١- ص ١٤٦ .

٢- ص ١٩٠ .

٣- ص ٢٢٢ .

٤- ص ٢٨٤ .

٥- ص ٢٨٥ .

٦- مثلا ص ٢٢٢٩ .

٧- رحلة ابن بطوطة / ص ٤١ .

مصر (١). وهذا مفهوم ، فمن الواضح أن عملية التفرخ في مصر كان يؤرخ لها بهذه الشهور ، بل إن الفلاحين المصريين حتى الآن مازالوا يؤرخون للزراعة بها وفي "أحسن التقاسيم" للمقدسي لاتجد أسماء شهور إفريقية ، ولكنه وهو في مصر ذكر شهور السنة القبطية (٢).

وفي "تعاط الحنفا" ، وهو كتاب تأريخ خولنسي للدولة الفاطمية ، لاتجد المقريزي يؤرخ بغير الشهور الهجرية ، اللهم إلا عند تأريخه لولادة الحاكم بأمر الله (دون الخلفاء الفاطميين الآخرين جميعا) ، فإنه أرخ له بالهجرى والسرياني ، وذكر فذكر الساعة ومنازل الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد والرأس (٣) ، وكذلك عند تأريخه لفتح خليج النيل ووفاته ، إذ ذكر الشهر القبطي (٤).

كما التزم غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري في كتابه "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" التأريخ بالشهور الهجرية ، حتى وهو يتحدث عن المعارك التي دارت بين المسلمين والقباط في قبرص النصرانية ذاتها (٥).

بل إن محطف روجر الثاني ملك صقلية (النورمانسي) الذي صنعه له علمه العربي عبدالله نساخ الذهب ، ليتوج فيه ملكا إثر ضمه جنوبى إيطاليا إلى صقلية ، كان عليه تأريخ صنعه

١- انظر نصا للبغدادي ورد فيه أسماء الشهور "لمشير وبرمات وبرمودة" في "الرحلة والرحالة المسلمون" للكتور أحمد رمضان أحمد / دار البيان العربى / جدة / ص ٢٩٦

٢- انظر "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" / ط ٢ / ١٩٠٩م / ص ٢١١-٢١٢.

٣- تعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا / ح ٢ / تحقيق د محمد حلى / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة / ١٣٩٠ هـ - ١٩٧١م / ص ٣

٤- نفس المرجع السابق / ص ٨٩٧٦٧٤

٥- انظر ص ٢٤٣ من كتابه المذكور

بالتاريخ الهجرى وحده (١).

لما التقاسم بن محمد التجيبى السبتي فقد أرخ بالعربى والإفونجى مرة (٢) كما أنه في أثناء كلامه عن مواعيد فيضان النيل قد استخدم أسماء الشهور الإفونجية ، وهى : "يونيه وأغشت وأكتوبر" (٣)

ومع ذلك فقد استخدم ابن جبير كلمة "نيسان" مرة (مرة واحدة) لتسمية شهر إبريل (٤). وثمة ملاحظة ثانية ، وهى أن طريقة كتابة أسماء هذه الشهور ونطقها مختلفة فى كثير من الأحيان عن طريقنا اليوم. وماهى ذى كما وجدتها عنده :

"ينير" (٥) ، و "فبرير" (٦) ، و "مارس" (٧) ، و "أبريل" (٨) ، و "مايه" (٩) ، و "يونيه" (١٠) ، و "يوليه" (١١) ، و "أغشت" (١٢) ، و "شتير" (١٣) ، و "أكتوبر" (١٤) ،

١- انظر زيفريسد هونكه / شمس العرب تسطع على الغرب / ترجمة فاروق بيضون وكمال مسوقى / المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر / ط ١ / ١٩٦٤م / ص ٤٠٩-٤١٠

٢- مستفاد الرحلة والاغتراب / ص ٢٢٥.

٣- مستفاد الرحلة والاغتراب / ص ١٦٥.

٤- ص ٣١٩ قبل نهاية الرحلة بقليل.

٥- سبتمبر / ص ٩١٣٢ مثلاً.

٦- فبراير / ص ١٢٨١٣٥٧ مثلاً.

٧- مارس / ص ١٢٠٢٨ مثلاً.

٨- ص ١٦٠٣٢١٨١٧ مثلاً.

٩- مايو / ص ٢٨٤٢٠٦١٩٢٨٢٤٤٠٣٢ مثلاً.

١٠- ص ٢١٩٢٠٨٤٦٤١ مثلاً.

١١- ص ٢٢٤٣٣٦٤٩.

١٢- أغسطس / ص ٢٥٤٥٨٥٧٣٩.

١٣- سبتمبر / ص ٢٧٧٢٧٦٠١٩٥ مثلاً.

١٤- ص ٢٨٥٢٨٤٢٨٢٠٦ مثلاً.

و "نونبر" (١) ، و "ديجنبر" (٢) .

وقد تصادف وأنا أعد هذه الدراسة عن ابن جبير ، أن قابلت كلمة "ينير" (بهذا الشكل) عند ابن حيان المؤرخ الأندلسي المشهور (٣) ، وكذلك عند الإدريسي ، الجغرافي المسلم الشهير الذي كان يعيش في بلاط ملك صقلية وكنفه (٤) .

وعند كاتب مغربي حديث قرأته وأنا بصدد الاشتغال في هذا البحث أيضا ، وهو د. إبراهيم السولامي ، قابلتني الشهور الآتية (ولأرجو أن يلاحظ القارئ مدى توافق بعضها واختلاف بعضها الآخر مع أسماء الشهور عند ابن جبير ، وكلاهما من المغرب الإسلامي ، وإن كان أحدهما ينتمي إلى القرن السادس الهجري وأوائل السابع والثاني إلى العصر الحديث) وهن : "يناير" (٥) ، و "فبراير" (٦) ، و "مارس" (٧) ، و "ماي" (٨) ، و "يونيسه" (٩) ، و "يوليوز" (٩) ، و "شتبر" (١١) ، و "نونبر" (١٢) ، و "ديجنبر" (١٣) .

١- نونبر / ص ٢٩١٢٨٨، ٢٨٦، ١١٧ مثلا .

٢- ديسمبر / ص ٢٩٢، ٢٩١، ٣٠٧، ٣٠٨ مثلا .

٣- انظر النص الذي ورد فيه اسم الشهر في " تراجم إسلامية " لـ محمد عبدالله عنان / ط ٢ / الخانجي / ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م / ص ٢٧٠ .

٤- انظر كراتشكوفسكي / تاريخ لأدب الجغرافيا العربي / القسم الأول / ٢٨١ .

٥- د. إبراهيم السولامي / تأملات في الأدب المعاصر / دار الثقافة / الدار البيضاء / ١٩٧٩ / ص ١٦٥ .

٦- المرجع السابق / ص ١٢٩، ٢٧ .

٧- ص ١٩٥، ١٩٢، ٢٤ .

٨- ص ٢٤ ، وإن كان قد كُتب في موضع آخر : " مايو " / ص ١٩٢ .

٩- ص ٢٨، ٢٧، ٢٦ .

١٠- ص ١٦٥، ١٦١، ١٥٥ .

١١- ص ٣٢، ٣١ .

١٢- ص ١٦٢، ١٦١، ١٥٢، ١٥٠ .

١٣- ص ٢٥ .

ويكثر عند ابن جبير استعمال المصدر الميمي واسم الزمان والمكان . وهذه أمثلة :

" وتركنا المركب المنكور في موضع إرسائه ، بسبب مغيب أصحابه في البلد " (١) .

" و انتهى دور الجزيرة ... إلى أزيد من خمسمائة ميل " (٢) .

" واليأس بلغ منا مبلغه " (٣) .

" وأما داخله فمرأى هائل ، لتساع معارج ومداخل وكثرة مساكن " (٤) .

" ومن مناقب هذا البلد ومفاخره ... المدارس والمحارس الموضوعة فيه لأهل الطب والتعب

يكون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوي إليه " (٥) .

" ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم من يأوي إليها " (٦) .

" اعتسفوا هذه المجامل " (٧) . " وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك المججلة على قدميه

وبذلك عطشا " (٨) .

" والبسيط كله محرث يعمه النيل بفيضه " (٩) . " وبلادهم - خصيبة - وسعة المحرث ووفرة

الماءات " (١٠) " ولها (لـ لنيصر العراقية) المحرث الواسع " (١١) . " ولكن قراها (أي قنسرين)

١- رحلة ابن جبير / ص ١٠ .

٢- ص ٢ .

٣- ص ١٠ .

٤- ص ١٥ .

٥- ص ١٥ والمحارس : جمع " محرس " ، وهو مأوى للدارسين والزهاد والمسافرين والنقراة .

٦- ص ٢٧ .

٧- ص ١٧ ومجامل : جمع " مججلة " ، وهي الصحراء التي لا علامة فيها يفتدى بها .

٨- ص ٤٦ .

٩- ص ١٨ والمحرث : الأرض التي تملح للمحرث والرواعة .

١٠- ص ١١١ .

١١- ص ٢١٦ .

علمة متظمة، لأنها على محرث عظيم مد البصر " (١). " بها ماء جبار ومحرث متسع " (٢).
" وأبصرنا محارث ومزروع لم نر مثل تربتها طيبا وكروما واتساعا " (٣).

" وبـالجملة فما أظن في الوجود كله - مرأى من البناء أعجب ولا أبدع " (٤). " ودخل
هذا الهيكل من المجالس والزوايا والمدخل والمخارج والمصاعد والمعالج والمسابر
والموالح ماتفل فيه الجماعات من الناس - وبالجملة فشأن هذا الهيكل عظيم ومرآة إحدى
عجائب الدنيا " (٥).

" فيالك مرأى لا يتخيله المتخيل ولا يتوهمه المتوهم " (٦).

" وتشاهد الأسماع من ذلك مرأى ومستمتع تخلف له النفوس خشية ورقة " (٧). " والهول قد عظم
مرأى ومستمع " (٨). " فشاهنا مرأى عجيبا " (٩). " لا يتشوق الجالس فيها مرأى سواها
ولو كان من المرائى الرياضية " (١٠).

" ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة المكس " (١١).

" فأعد ذلك مسلكا في كل وقت " (١).

" ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء، فيه مقاصير عليها شبائك الحديد
لتخفت مجالس المجانين " (٢).

" وله (لعمر بن العاص) أيضا بالإسكندرية جلع آخر هو مصلى الجمعة للمالكيين " (٣).
" فلما كان صيحتها - لبس الناس أثواب عيهم وبادروا لأخذ مصافهم لصلاة العيد بالمسجد
الحرام . لأن السنة جرت بالصلاة فيه دون مصلى يخرج الناس إليه " (٤). " وبإزاء محرابها
لجهة اليمين مصلى أبي النرداء " (٥). " وبإزائها بيت يقال إنه مصلى الخضر " (٦).

" وجهه إلى الإحرام ، وظهره إلى القبلة مهبط النيل " (٧). " وكفاهما (أى مكة) أنها منشأ
النبي . صلى الله عليه وسلم . - ولول مهبط الروح الأمين " (٨). " ففعلت (الخاتون) في
الموضع الذي يقال إنه كان مهبط جبريل عليه السلام " (٩). " والمهبط إليها على أدراج
كثيرة " (١٠).

" ومانيه مغرز لشففى (١١) ولا يسيرة إلا وفيه صورة أو نقش أو خط بالمستند

١- ص/ ٢٢٨

٢- ص/ ٢٢٢

٣- ص/ ٢٠٧

٤- ص/ ٢٠

٥- ص/ ٢٧

٦- ص/ ١٢٠

٧- ص/ ١٢٢

٨- ص/ ١٢٥

٩- ص/ ٢٢١

١٠- ص/ ٢٢٢

١١- ص/ ٢٦

١- ص/ ٢٢٨

٢- ص/ ٢٢٢

٣- ص/ ٢٠٧

٤- ص/ ٢٠

٥- ص/ ٢٧

٦- ص/ ١٢٠

٧- ص/ ١٢٢

٨- ص/ ١٢٥

٩- ص/ ٢٢١

١٠- ص/ ٢٢٢

١١- ص/ ٢٦

١١- الإشفى: المتعب أو المخور

لا يفهم " (١)

" فكان مقلنا في النيل ثمانية عشر يوماً " (٢) " شامنا منهم مئة مقلنا أقولاً قد وصلوا على هذه الصفة " (٣) " طال مقلنا في تلك الولاية " (٤) " مئة مقلنا به " (٥) " فكان مقلنا بها يومين " (٦) " فكان مقلنا في هذه البلدة أربعة أيام " (٧) " فكفر وتنصر مئة مقلنا بصور " (٨) " فكان مقلنا بهذه المدينة سبعة أيام " (٩)

" (قوس) مخطر للجبيح ، ومحط للرجال ، ومجمع الرفاق ، وملتقى الحجاج " (١٠) " وهي (ديصر العراقية) مخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم التي تلى طاعة الأمير مسعود وماليها " (١١)

" والمغاض فيها قريب القمر ليس بعيد " (١٢)

" ومستتابه مع الوالى في البلد " (١٣)

" فقلنا يومنا ذلك بالمرسى لركود البحر ومغيب النواتية " (١)

" فقلنا سيرنا في البحر بريح فقرة المهب " (٢)

" وبقي الحوض المذكور مصباً لماء البيت إذا غسل " (٣)

" وله خمسة مضاوى ، ومنع كل ركن مضواً " (٤)

" ومجتمع هاتين الطريقين على مقربة من ماء ينقلش المذكور ، ولهما مجتمع آخر على ماء

ببرف بشاغب " (٥) " لكن المجتمع كله إنما كان في الليلة الأولى " (٦) " منى مجتمع أهل

الأناف " (٧) " ومن مجتمع ماء هاتين العينين منشأ نهر الخابور " (٨) " وفي هذا المجتمع

البارك مجتمع عظيم كل يوم إثر صلاة الصبح لقراءة سبع من القرآن دائماً " (٩) " وعند فراغ

المجتمع السبعي يستند كل إنسان منهم إلى سارية " (١٠)

وقد أحدث في المكان مظاهر وسقاية للمعتبرين " (١١) " هو رباط يشتمل على بيوت كثيرة

بمقاصر ومظاهر وسقايات " (١٢) " وتغضى منه جداول إلى مظاهرها

١- ص ٢٧

٢- ص ٤٠

٤- ص ١٤٨

٥- ص ١٥٥

٦- ص ٢٧٧

٧- ص ٢١٢

٨- ص ٢٨١

٩- ص ٣٠٧

١٠- ص ٤١ والمخطر: موضع اجتماع الناس ويجمع وشرائهم.

١١- ص ٢١٦

١٢- ص ٤٦

١٣- ص ٤٨ والمستتاب: مكان التوبة ، أى محل الإقامة.

١١٦

٤٩/ص

٥٠/ص

٦٢/ص

٦١/ص والمضوا: موضع ينفذ منه النهر.

٤٣/ص

١١٢/ص

١٥٧/ص

٢٨/ص

٢٤٤/ص

٢٤٥/ص

٨٩/ص والنظام: جمع " مطهر " ، وهو مكان التطهر.

٣١١/ص

ومراقفها " (١) . " وبأحد شطيه مظاهر منتظمة بيوتاً عدة " (٢) . " ولها مظهر يجرى الماء في بيوتها - ولها مظاهر على الصفة المذكورة " (٣) . " وخلف ذلك مظاهر يجرى الماء في كل بيت منها " (٤) . " وفيه سقاية ماء رائعة الحسن ، ومطهرة لها عشرة أبواب " (٥) . " تمكن له الصعود إلى ذلك الموقى المعبد " (٦) . " حرم الله العظيم ، وموآ الخليل إبراهيم " (٧) . " وهذا الموضع (أي القرين) هو منزل الحاج ومحط رحالهم " (٨) . " ولا يظهرون في الحرم إلا لمستهل هلال آخر " (٩) " عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضاً ويتخامرون ويدعو بعضهم لبعض ، كفعلمهم في الأعياد " (١٠) . " ومن مشاهد الكريمة أيضاً مولد (مكان ولادة) النبي ، صلى الله عليه وسلم " (١١) . " وهي - مسقط رؤوس جماعة من الصحابة المهاجرين " (١٢) . " فيالها تربة شرفها الله بأن الغربي " (١١)

جهاها مسقط أظهر الأجسام ومولد خير الأنام " (١) . " ومسحنا الخدود في ذلك الموضع المقدس الذي هو مسقط لأكرم مولد على الأرض ومسح لأظهر سلاله وأشرفها " (٢) . " وفي الزقاق - مصطبة فيها متكأ " (٣) . " والمعلق حولها ، والمنحرف في كل موضع من منى ، لأن منى كلها منحرف " (٤) . " وصل الزوار فضايق بهم المتسع " (٥) . " وفيه مقعد في الأرض عميق شبيه الحفرة - وقد خرج عليه من الجدار حجر مبسوط كأنه يظل المقعد المذكور " (٦) . " وإلى الله المشتكى " (٧) . " فيها مقعد النبي ، صلى الله عليه وسلم ، والصخرة التي كان إليها مستنبيه " (٨) . " وعشره الأولى مجتمع الأمم وموسم الحج الأعظم - ، وملتقى وفود الله " (٩) . " وملتقاهما (دجلة والفرات) ما بين واسط والبصرة " (١٠) " هو ملتقى آخر البلاط الشمالي مع أول البلاط الغربي " (١١)

١- ص/٢١٨

٢- ص/٢٣٠

٣- ص/٢٤٤

٤- ص/٢٤٨

٥- ص/٢٤٩

٦- ص/١٥٠

٧- ص/٥٨

٨- ص/٥٨

٩- ص/٧٥

١٠- ص/١٠١-١٠٢

١١- ص/٩١

١٢- ص/٩١

"ومجرأما من الشمال إلى الجنوب" (١). "وخالفنا المجري المعهود الميمون" (٢).

"لو كان محشرا للخلائق لوسعهم" (٣).

"وقد فقد منهم في ذلك المزدحم الشديد من دنا أجله" (٤).

"نضجت جلودهم طبخا في مضيق ذلك المعترك... والله ينفع الجميع بمعتقده وحسن مقصده بعزته" (٥).

"فكان ميع الدقيق بدلو الندوة" (٦).

"وفي وسطه مبرك الناقة بالنبي، صلى الله عليه وسلم" (٧).

"وسمى ذلك التل عرفات لأنه كان موقف النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم عرفة، ومنه رؤيت له الأرض فأبصر الناس بعرفات" (٨).

"الداخلية مدخل السمعة والشهرة" (٩).

"وبقي... من المناهل ثلاثة: ... والثالث منهل من ماء الفرات... وبين هذه المناهل مياه موجودة ولكنها لا تعم... وفي هذا المنهل الذي للتعلية شامنا... لمسوا

"... (١) "وهي من مناهل الطريق المشهورة" (١). "وهي آخر مناهل الطريق" (٢).

"وفي الزاوية من آخر منه البلاط القبلي - موضع مغار التور" (٣).

"وفي ظهره بيت آخر يقال إنه كان متعبا لإدريس" (٤).

"ويتصل بهما قضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال إنه منشأ السفينة" (٥).

"وبتنا ليلة الأحد منسلخ محرم بمقربة من الحلة (مدينة عراقية)" (٦).

"فللعين في هذه الطريق منروح أنشراح" (٧).

"وهو قلما يظهر للعلمسة اشتغالا بملهو بسيله من أمور تلك الديار وحراستها، والتكفل بعقلها وتقلمها ليلا ونهارا" (٨).

"ونزلنا... بمقربة من حصن يعرف بالمعشوق. ويقال إنه كان متفرجا لزبيدة ابنة عم الرشيد وزوجه، رحمه الله" (٩).

"وكان مقبلا مباركا" (١٠) "ولانجد فيه مقبلا، ولاتنفس منه إلا نفسا ثقيلا" (١١). "علموا

١٨٤/ص

١٨٥/ص

١٨٦/ص

١٨٨/ص

١٨٨/ص

١٨٩/ص

١٩٠/ص

٢٠٢/ص

٢٠٢/ص

٢١٢/ص

٢١٩/ص

١٩٢/ص

٢٨٩/ص

١٥١/ص

١٥٩/ص

١٥٩/ص

١٦٠/ص

١٧٥/ص

١٧٥/ص

١٧٢/ص

هلموا إلى معرّس للحنن ، ومقيل (١)

" والبساتين حولها ، فهي مدرسة ومئسدة " (٢)

" فلما كان عند المغيب - رحلنا منها رغبة في الاستد وبرد الليل " (٣)

" لا يخرقه النسيم بممراته " (٤)

" ولها (للسقية) منافس ينصب منها الماء إلى سقية صغيرة مستتيرة " (٥) . " وأعلمنا أن

خروجها (أى النار) من منافس فى الجبلين المذكورين يصعد منها نفس نارى " (٦)

" ومن مناقب هذا البلد ومفاخره - المدارس والمحارس - (٧) " وما شامدناه من مفاخر

هذا السلطان المارستان " (٨) . " وهذا من مفاخر هذا الجلع المكرم " (٩) . " وهذا من المفاخر

الإسلامية " (١٠) . " وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام " (١١)

" وهذا الجبل مشهور بالبركة فى القديم لأنه يصعد الأتياء ، صلوات الله عليهم .

والمعهم " (١)

" وكان متنزها لأحد الملوك " (٢)

" المهبط إليه والمطلع عنه عقبتان كؤودان " (٣)

" لامنجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه " (٤) . " ونجونا إلى البر منجى أبى نصر عن

قدر " (٥)

" وممنه الربعة المباركة رأس بساتين البلد ومقسم مائه ينقسم فيها الماء على سبعة

أنهار " (٦)

" وربما تنفس الجسور من سباح الميان أو الرجال من أعلى الربوة فى النهو ، وتنفع

تحت الماء حتى يشق متسربه تحت الربوة ويخرج أسفلها . وهى مخاطرة كبيرة " (٧)

" صعدنا - من مرقى فى الجانب الغربى من بلاط المحن " (٨)

" كأنه الخنق السحيق المهوى " (٩)

" وصوامعها مضارب للنواقيس " (١٠)

" فبعد أعلما (أى صور) الإفرنج مفزعا لحادثة زمتهم ، وجعلوها مثابة لأمانهم - ، وألما

١-ص/٢٢٤

٢-ص/٢١٦

٣-ص/٢١٩

٤-ص/٢٢٣

٥-ص/٢٠١

٦-ص/١٥ هذا ، وقد وجدت كلمة " محروس " فى نص لائن حوقل ، وذلك فى قوله عن صفاقس : " ولها محروس مبنية

للرباط بها " / ص ١٢٤ من " الرحلة والرحالة المسلمون " للدكتور أحمد رمضان أحمد .

٧-ص/٢٦

٨-ص/١٠٢

٩-ص/٢٤٤

١٠-ص/٢٤٥

١١-ص/٢٥٦

١٢-ص/٢٤٦

١٣-ص/٢٥٧

١٤-ص/٢٧٤

١٥-ص/٢٧٤

١٦-ص/٢٩٥

١٧-ص/٢٤٨

١٨-ص/٢٤٩

١٩-ص/٢٦٥

٢٠-ص/٢٧٤

٢١-ص/٢٨٦

العبارات

على أن ما يمتاز به أي أسلوب لا يقتصر على المفردات وصيغها ، بل يدخل فيه كذلك العبارات
الكيب والصور وطريقة الوصف وغير ذلك .
ولنبداً بالعبارات وقد لاحظت أن هناك طائفة من العبارات قد تردت كل منها في الكتاب على
لافت للانتباه .
من ذلك قوله : " صادرة وولادة (بنفس اللفظ أو بلفظ قريب منه) : " وهذه المدينة
(نوس) - كثيرة الخلق ، لكثرة الصادر والوارد من الحجاج والتجار " (١) . " ومنها (من
أيضا) يفوزون بصحراء عذاب ، وإليها انقلبهم في صدورهم من الحجج " (٢) . " والقوافل
مكية والعذلية صادرة وولادة " (٣) . " وزمنا في هذه الطريق إحصاء القوافل الواردة
لخبرة فما تمكن لنا " (٤) . " وهي (عذاب) من أحفل مرأسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند
لن تحط فيها وتقلع منها ، زائداً إلى مراكب الحجاج الصادرة والولادة " (٥) .
والصادر من الحجاج ينزلون به (أي بالقرين) أيضا " (٦) . " فالطريق إليها (إلى مكة)
في الصادر والوارد من بلغته الدعوة المباركة " (٧) " ويرد الصادر والوارد في ظلم (أي

ألين في الكفر طابع ، وأجرى إلى برّ غريباء المسلمين شملل ومنازع " (١) .
" وهو صاحب المجبى ، وإليه ترتفع الأموال " (٢) .

" هذه المدينة (مسينة) موسم تجار الكفار ، ومقصد جوارى البحر من جميع الأمطار " (٣) .
" وهي (أي جزيرة مالطة) مقصد العدو " (٤) .

" فأعلمنا أن ذلك البلاط مشى الملك إلى هذه الكنيسة " (٥) .

" فمأشئت بها من جمال مخير ومنظر ، ومراد عيش يانع أخضر " (٦) .

" فعلم أن الهمة الملوكية منته من المدخل مدخل السوق " (٧) ، أي من الدخول كالسوق .

وتكثر في رحلة ابن جبير الأرقام كثرة مدمشة ، فمن حديث عن النفقات : النفقات الفردية
أو نفقات الدولة ونفقات الجيوش ، إلى ذكر للمسافات بين البلاد والمدن ، إلى تسجيل
لأطوال المباني وعروضها وارتفاعاتها - ومكنا .

٤٠/ص

٤١/ص

٤٢/ص

٤٢/ص

٤٥/ص

٥٧/ص

٩٧/ص

١- ص/٢٧٧

٢- ص/٢٨٢

٣- ص/٢٩٦

٤- ص/٣١٨

٥- ص/٣٠٤

٦- ص/٣٠٥

٧- ص/٣١١

فى ظل جمال الدين ، وزير صاحب الموصل (عيشا هيا " (١) . " والصادر من عرفات إلى منى أول مايلقى الجمرة الأولى ثم الوسطى ثم جمرة العقبة " (٢) . " فأرسل الله من سحب رحمت أترعها ماء معدا صدر الحاج " (٣) . " فالقوافل صادرة وولادة بفضائهما " (٤) . " وصرونا فى طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صادر ووارد " (٥) .
 ومن العجالات التى تكررت فى الرحلة كثيرا قوله : " برسم الـ (أى " مخصص لـ " أو " لأجل لـ ") أو " جرى الرسم بـ " (أى " الترتيب والنظام أو الأمر والوضع : إلخ ") ، وما إلى ذلك : " وقد رتب فيه أقوال برسم الزيارة للمرضى الذين يتزهدون عن الوصول للمارستان المذكور من الغربة خاصة " (٦) . " وأكد على المتولين لذلك متى نقصهم من الوظائف المرسومة شئ أن يرحموا إلى صلب ماله " (٧) . " وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه " (٨) . " ومن مفاخر هذا السلطان - إزالته رسم المكس المضروب وظيفه على الحججاج " (٩) . " لأن الرسم المذكور كان باسم ميرة مكة والمدينة " (١٠) . " كل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة لمحلها أو ما يترك النصاب منها " (١١) . " فإن ورد الماء والطعام للذين برسمه (برسم أبو مكة) من قل صلاح الدين . وإلا فهو لا يترك ماله قبل الحاج " (١٢) .

وفى صيحة الليلة المذكورة وافى الأمير مكتو بتابعه وأشياعه ، على العادة السالفة المذكورة فى الشهر الأول ، وعلى ذلك الرسم بعينه " (١) . " فلما رأينا إلا الأمير مكتو طالعا حرا - تبركا بذلك اليوم وجريا فيه على الرسم " (٢) . " وفى صيحه بئر الأمير مكتو على ليلة فى ذلك رأس كل شهر مع أخيه وبنيه ومن جرى الرسم باستصحابه من القواد والأشياح الأجاع " (٣) . " وحضر القراء بين يديه على الرسم الأول " (٤) . " جرى الإلمام إثره على الرسم من الإطعام لمن حضر من أعيان المكان " (٥) . " ورسم طوافهم إثر كل تسليمين باق على حاله " (٦) . " جرى الرسم فى إبقاء مشاعله وثرياته وشمعه على الرسم المذكور ليلة سبع عشرين من رمضان المعظم " (٧) . " وملتان الختوتان - لهما أخبار برسمهما " (٨) . " وسألنا الأشياخ بهذه البلدة : هل فيها مارستان على رسم مدن هذه الجهات ؟ " (٩) . " وأما برسمات التى يسمونها الخوانق فكثيرة ، وهى برسم الصوفية " (١٠) . " فلم يزل حتى برسم (لستوب نورالدين زنكى القصر) من صاحبه ووقفه برسم الصوفية " (١١) . " وهذه البلاد الشرقية كلها على هذا الرسم " (١٢) . " فلبتاع الدار المذكورة ، وبنائها خانقنة .

١٠١/ص

١١٤/ص

١١٧/ص

١٢٩/ص

١٢٩/ص

١٣٢/ص

١٣٣/ص

٢٠٦/ص

٢٣٢/ص

٢٥٦/ص

٢٥٧/ص

٢٥٨/ص

١-ص/١٣٧

٢-ص/١٨٥

٣-ص/٢٨١

٤-ص/٢٠٢

٥-ص/١٦-١٥

٦-ص/١٦

٧-ص/٢٦

٨-ص/٢٠

٩-ص/٢١

١٠-ص/٢٨

١١-ص/١٠٤

١٢-ص/٥٤

كما تكررت عند ابن جبير عبارة " آية للمتوسمين " . أى المتعبرين المتفكرين فى خلق الله قال عن مار الإسكندرية : " ومن أعظم مشاهدنا من عجائب المنار الذى قد وضعه الله عز وجل على يدي من مخزن لذلك آية للمتوسمين وهداية للمسافرين " (١) . وعن الحجاج الذين يودهم البجة عبر الصحراء المهلكة والأخطار الرهيبة التى تترى بهم : " ومن يسلم منهم يمل إلى عذاب كأنه منشور من كفن . شامنا منهم مدة مقلنا أقولما قد وصلوا على هذه الصفة فى مناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة ، آية للمتوسمين " (٢) . وعما فعله النصارى ، حين ارتكبت المركب أن تغرق بهم عند صقلية فى طريق العودة ، من إلقاءهم متاعهم فى البحر بغية تخفيف من حمل السفينة : " فأصبح فى اليوم الثانى وقد جعلته الأمواج جذفا ، ورمت به إلى البحر أفلاذا ، فعاد عبرة للناظرين " (٣) .

وقد فسر شارح الألفاظ الصعبة فى الكتاب لفظ " المتوسمين " بأنه " لعله من : توسم فيسه آخر ، أى طلب فيه أثره " (٤) . وهذا التفسير إنما يصلح للفعل " يتوسم " فى قول ابن جبير عن دعاء الحجاج زيادة بنو زمزم كل ليلة ومحاولة أحدهم أن يتأكد من ذلك : " فجعل يقصد إلى أن يتوسم فيه بعض عقل ونظر . فيسأله عن ذلك " (٥) . أما " المتوسمون " فى الشواهد الثلاثة من الذين يفكرون فى خلق الله ويستخرجون منه العظة ويرون فيه قدرة المبدع وقد ورد هذا خبر فى القرآن الكريم قال تعالى : " إن فى ذلك لآيات للمتوسمين " (٦) . فأخذنا ابن

رحلة ابن جبير / ص ١٤

ص ٤٧

ص ٢٩٥

ص ٢٨ / ١٤

ص ١٨

الخبر / ص ٢٥

للصوفية . وجعلها برسم الصوفية " (١) " ويقت هذه الرسوم الشريفة مخلدة مع الأيام ، نفع الله بها راسمها " (٢) " وللقراء . وقف وضعه بعض المتأجرين الموقنين برسمهم " (٣) " وقد قبلنى هذا التصور عند القرونى فى " آثار البلاد وأخبار العباد " : " برسم الخليفة " أى خاص به (٤) . وفى رحلة ابن بطوطة عدة مرات ، منها : " قصت مدينة بلس - برسم روية الحديث المسلسل " (٥) . " كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف " (٦) " لمر (الملك الناصر) بعمل منور - برسم المسجد الحرام " (٧) .

وفى " اتعاط الحنفا " للمقريزى " خرج (الحاكم بأمر الله) - فطاف ليته كلها على رسمه (أى على عادته ونظمه) " . (٨) . " وجروا على رسمهم " (٩) . " فإذا استدعاك على الرسم لغيره ونام فقم كأنك تهريق ماء " (١٠) " قد جعل هؤلاء القوم - برسمك (أى من أجلك) ، إكراما لك وتنويها بك " (١١) .

وفى " مستفاد الرحلة والاعترا ب " للتجيسى السبتي : " أندر أن أدفع برسم ترتيبها (أى قبرها) قنطارا من المشع " (١٢)

١- ص ٢٦٢

٢- ص ٢٦٤

٣- ص ٢٦٤

٤- نقلا عن د أحمد رمضان أحمد / الرحلة والرحالة المسلمون / ص ٢٩٩

٥- رحلة ابن بطوطة / ص ١٧

٦- رحلة ابن بطوطة / ص ٤٧

٧- رحلة ابن بطوطة / ص ٥٠

٨- اتعاط الحنفا / ص ١١٩

٩- اتعاط الحنفا / ص ١٢٢

١٠- اتعاط الحنفا / ص ١٢٠

١١- اتعاط الحنفا / ص ١٢٧

١٢- مستفاد الرحلة والاعترا ب / ص ١١

جاء منها حيث جن علينا الليل " (١) . فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة " (٢) . فلما
جن الليل لشدة تلاتمه ، وصكت الأذان عما غمه " (٣) . أفتنا إلى أول المضيق والليل قد
جن " (٤) .

ومنها عبارة " هه من الليل " : وفي ليلة الأربعاء - خسف القمر خسوفاً كلياً من
أول الليل ، وتبادى إلى هه منه " (٥) . فلما قضينا العمرة وطفنا وجئنا للمعى بين الصفا
والبروة ، وقد مضى هه من الليل ، أيسرناه (الحرم) كله سرّجاً ونيراناً وقد غمى بالساعين
والساعات " (٦) . فتأخر وصوله إلى هه من الليل " (٧) . نزلنا مبكراً وقد مضى هه من
ليل " (٨) .

وعبارة " العشاء الآخرة " أو " صلاة العتمة " (بنفس المعنى) : فلما " كان إثر صلاة العشاء
الآخرة رفعنا منه إلى ماء يعرف بالحليز فبتنا به " (٩) . فلما كان العشاء الآخرة - لمع برق
من جهة البر " (١٠) . فشاهدنا ليلة السبت - احتفالا عظيماً في الحرم المقدس إثر صلاة
العتمة " (١١) . وهذه الفرقة (السوط) - يضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان

جبر ووضعت " آية " مكان " آيات " .

ومن ذلك " استهل هلاله " ، وهى كثيرة ، إذ لا أظنه شاهد طلوع هلال شهر جديد إلا وسجله فى
الغالب بهذه العبارة ، وذلك مثل : " استهل هلاله (محرم ٩٩ هجرية) ليلة الثلاثاء " (١)
استهل هلاله (صفر التالى له) ليلة الأربعاء " (٢) . " استهل هلاله (ربيع الأول ، التالى له)
ليلة الجمعة " (٣) . " استهل هلاله (جمادى الآخرة ، من نفس العام) ليلة الأربعاء " (٤)
استهل هلاله (رجب التالى) ليلة الخميس " (٥) . " استهل هلاله (شعبان) ليلة السبت " (٦)
استهل هلاله (رمضان) ليلة الاثنين " (٧) . " استهل هلاله (شوال) ليلة الثلاثاء " (٨) . " استهل
هلاله (ذى القعدة) ليلة الأربعاء " (٩) . " استهل هلاله (ذى الحجة) ليلة الخميس " (١٠)
وعلى ذلك فقس بقية الرحلة

ومنها " جن الليل " : فلما جن الليل فترت الحال بعض فتور " (١١) . " وسرنا فى الصحوة

٤٢/ص

٥١/ص

٢٨٩/ص

٢٩٢/ص

٤١/ص

١٠٨/ص

١٧٧/ص

٢٠٧/ص

٤١/ص

٥٠/ص

١١٩/ص

١- ص/٢٢

٢- ص/٤١

٣- ص/٤٤

٤- ص/٥١

٥- ص/١٠١

٦- ص/١٠٦

٧- ص/١١٧

٨- ص/١٢٢

٩- ص/١٣٢

١٠- ص/١٤٠

١١- ص/١٤٦

١٢- ص/١٠

المغرب ، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة " (١) . " وتقدم القاضى فصلى قريظة العشاء الآخرة " (٢) . " وصلوا مزدلفة مع العشاء الآخرة ، فجمعوا بها بين العشاءين " (٣) . " وفي ليلة الخميس . إثر صلاة العتمة نصب منى الوعظ أمام المقام " (٤) " فصعد إثر صلاة العتمة شيخ أبيض السبال " (٥) . " وتمادى سيرنا إلى العشاء الآخرة " (٦) . " وكان نزولنا بالصفوة إثر صلاة العشاء الآخرة " (٧) . " وتمادى بنا السير إلى إثر صلاة العشاء الآخرة " (٨) . " يرحل وينزل مع العشاء الآخرة " (٩) . " ونزلنا بالبيداء مع العشاء الآخرة " (١٠) . " لا يزالون على هذه الحال ... إلى انقضاء العشاء الآخرة " (١١) .

ونكثر عبارة " العشاء الآخرة " ، فيما أذكر فى " أيام " طه حسين . كما تكرر فى الحديث الشريف تسمية صلاة العشاء بـ " صلاة العتمة " .

و " بنيت الطريق / الدهر " : " لأنهم على جادة واضحة لابنيات لها " (١٢) . " معللاتهم صحيحة ، وأحوالهم مستقيمة ، وجلاتهم الواضحة فى دينهم من اعتراض بنيت الطريق

ليلة " (١) . " سدا عليهم بنيات الطريق القاصدة إلى بلادهم " (٢) . " هى (مكة) عروس ليالى العمر ، ويكر بنيات الدهر " (٣) .

و " بنيت الطريق " : هى الطرق الصغار التى تشعب من الجادة (٤) . ومنه : " دع بنيات الطريق " ، أى عليك بمعظم الأمر ودع الروغان (٥) .

و " بنيت الدهر " : حوادثه ومصروفه . وقد جاء مفردا فى بيت المتنبى الشهير الذى يخاطب فيه الحمى ، ولكن مكبرا لامصغرا :

أبنت الدهر ، عندي كل بنيت فكيف وصلت أنت من الزحام ؟

وكذلك هذا التعبير الذى لا أذكر أنى قبلته قبل ذلك ، وهو " ما كان إلا كاد ولا " .

ومعناه : " على الفور .. " : " وقع فى نفس أحمد بن حسان ... أنه سيغشى عليه ، فما كان بين

اعتراض هذا الخاطر بنفسه وبين وقوع الرجل مشيا عليه من المصطبة إلى الأرض إلا كاد

ولا " (٦) " لم يكن بين استقلال الرواحل بأوقارها ورحالها وركابها إلا كاد ولا " (٧) " فما كان

إلا كاد ولا حتى ضربت فى وجوهنا ريح أنكصتنا على الأعقاب " (٨) . " فلم يكن إلا كاد ولا حتى

أنتنا (الزبح) إلى أول المضيق " (٩) .

٢٢٤/ص

٢٧٢/ص

٥٨/ص

١- إنتاج العروس / مادة " بنى " .

٥- النجد / مادة " بنى " .

٦- ص / ١٢١

٧- ص / ١٦٤

٨- ص / ٢٩١

٩- ص / ٢٩٢

١- ص / ١٢٣

٢- ص / ١٣١

٣- ص / ١٥٥

٤- ص / ١٥٩

٥- ص / ١٥٩

٦- ص / ١٦٥

٧- ص / ١٦٦

٨- ص / ١٦٢

٩- ص / ١٨١

١٠- ص / ١٨٤

١١- ص / ٢٣٩

١٢- ص / ٥٥

ومن عجائب المصادفات أن هذا التعبير الذي لا أذكر أنه مرّ على من قبل قد قابلني في عدد من الكتب التي قرأتها وأنا أعدّ هذه الدراسة . صادفني مثلاً في " طوق الحملة " لابن حزم (١) وفي " نفاضة الجواب " للسان الدين بن الخطيب : " ولمن يكن إلا كاد ولا حتى تداعى النبا من عربان القبله " (٢) . وفي " تاريخ دمشق " لابن القلانسي . في حوادث سنة ٥٤١هـ : " وأحقق بهم (بالصليبيين في الروما) المسلمون من جهاته وشرعوا في القرب عليهم (و) ماكان إلا بقدر كاد ولا حتى تعرقب الرج وانهزم ابن جوسلين " (٣) . ومن نفس الكتاب . في التأريخ لحوادث ٥٥٢هـ : " فحنثت ترجل الملك نورالدين وترحلت معه الأبطال . وأرمقوهم بالسهام وخرمان الرماح فماكان إلا كاد ولا حتى تزلزلت بهم الأقدام . ودهمهم السوار والحمام " (٤) .

ومن عبارات ابن جبير التي تكررت بصورة لافتة للانتباه قوله : " تقوت الإحصاء كثرة " أو " لاخصى كثرة " ونحو ذلك :

" ومأثر هذا السلطان - لاخصى كثرة " (٥) . " إلى غير ذلك مما يطول ذكره من المأثر التي يضيق عنها الحصر " (٦) . " والفوى فيه يمينا وشمالا لاخصى كثرة " (٧) . " والشاهد الكربة بها أكثر من أن .. تتحصل بالإحصاء " (٨) . " وعندهم لاخصى كثرة " (٩) . " فيلقى بها من دماء ..

الوارد مالاخصى كثرة " (١) . " وبها حباب .. تقوت الإحصاء كثرة " (٢) . " وعلينا نحن جملة كثرة لاأخذها الإحصاء " (٣) . " وحمام الحرم لاخصى كثرة " (٤) . " أنفق فيها أموالا لاخصى كثرة " (٥) . " ولهذا الرجل - من الآثار السنية .. مايفوت الإحصاء " (٦) . " لم نستطع تقييد عنتها عجزا عن الإحصاء " (٧) . " فاجتمع منهم عدد لاخصى كثرة " (٨) . " هذا البشر المعجز إحصاءه " (٩) . " ووصفها يطول . والأخبار عنها لا تنحصر " (١٠) . " ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن نحصى كثرة " (١١) . " ولما البرك والفوارات فلا تنحصر " (١٢) . " وكثرت المصانع حتى لا تكاد الكتب تحصرها ولا تضبطها " (١٣) . " ولما عبادهم وزمادهم .. فأكثر من أن يقيدهم الإحصاء " (١٤) . " ومراقب الغرباء بهذه البلدة أكثر من أن يأخذها الإحصاء " (١٥) . " وأما

٤٣/ص

٥٤-٥٣/ص

٥٤/ص

٧٥/ص

١٠٢/ص

١٠٢/ص

١٠٧/ص

١٠٨/ص

١٤٨/ص

١٦٥/ص

١٧٤/ص

١٨٢/ص

١٨٦/ص

٢٢٠/ص

٢٥٨/ص

١- من الجزء الأول من " رسائل ابن حزم الأندلسي " / تحقيق د إسماعيل عباس / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت .

٢- نفاضة الجواب / ج٢ / ص ٢٢٩

٣- نقلا عن د سهيل زكار / الحروب الصليبية / دار حسان للطباعة والنشر / دمشق / ط١ / ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م / ج٢ / ص ١٢٦

٤- نقلا عن " الحروب الصليبية " للدكتور مهيل زكار / ج٢ / ص ٦٥٢

٥- ص ١٧

٦- ص ١٧

٧- ص ١٨

٨- ص ٢٤

٩- ص ٢٥

المساجد فكثيرة لاتحصى (١). "ونقلت أموالها كلها، وهي ما لا يأخذته الإحصاء" (٢).

كذلك تكرر عند ابن جبير هذا التعبير: "ناميك مسن / بـ"، وهو تعبير يُراد به المدح أو التعجب عموماً. يقال: هذا رجل ناميك من رجل، أو ناميك به رجلاً، أى أنه من بلوغه الغاية ينهك عن أن تبحث عن غيره، فيه الكفاية لما تطلب، وإليك شواهد هذا التعبير.

"يجلس الناس فيها معتبرين بشرف ذلك الموضع... لأن الحجر الأسود لملكك والباب الكريم مع البيت قبائلك والمقام عن يمينك وباب الصفا عن يسارك وبئر زمزم وراء ظهورك. وناميك بهذا" (٢). "وبإزاء الحرم الشريف ديار كثيرة لها أبواب يخرج منها إليه وناميك بهذا الجوار الكريم" (٤). "صعدنا إلى جبل أبى قيس... وصلينا في المسجد المبارك، وفيه موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم عند انشقاق القمر بقدرة الله عز وجل. وناميك بهذه الفضيلة والبركة" (٥). "فيتقلان من ظل قبة المحمل إلى قبة المنزل دون واسطة هواء يلحقهما ولاخطفة شمس تصيبهما. وناميك من هذا الترفه" (٦). "ومن شرف خاتون هذه، واسمها سلجوق، أن صلاح الدين استفتح لمد يد زوجها نور الدين، وهى من أعظم بلاد الدنيا، فترك البلد لها كرمة لأبيها وأعطاهم المفاتيح، فبقى ملك زوجها بسببها. وناميك من هذا الشأن" (٧). "وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج وسيبهم يدخل بلاد المسلمين."

ناميك من هذا الاعتدال في الميلاة (١).

ويكثر في الرحلة هذا التعبير: "ومن عجيب...". "ومن أعظم...". "ولشبابها...". "ومن أعجب في وصفه (أى بلد الإسكندرية) أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها" (٢). "ومن أعظم عجزانه من عجائبها (أى الإسكندرية) المنار" (٣). "ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عين لأبناء السيل من المغاربة خبزتين لكل إنسان" (٤). "ومن أعجب ما انتفق الغريب أن بعض من يريد التقرب بالنصائح إلى السلطان ذكر أن أكثر هؤلاء يأخذ جولة لخبز ولا حاجة لهم بها" (٥). "ومن الغريب أيضاً في أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه الليل كصرفهم بالنهار في جميع أحوالهم" (٦). "ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد (مسجد الحسين) المبارك حجر موضوع في الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص يصف الأشخاص كلها كأنه المرأة الهندية الحديثة المقل" (٧). "ومن العجب أن لرافقة المذكورة كلها مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها الغريب والعلماء والصلحاء والقراء" (٨). "ومن أعظمها حلقة تسد المسلم شناعة وبشاعة. وذلك أنهم (أى الصليبيين) كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وإخراجه من الضريح."

٢٧٢/ص

١٤/ص

١٤/ص

١٦/ص

١٦/ص

١٧/ص

٢٠/ص

٢٤/ص

٢٠٥/ص-١

٢١٢/ص-٢

٧٨/ص-٣

٨١/ص-٤

٨٥/ص-٥

١٥٥/ص-٦

٢٠٧/ص-٧

المقدس " (١) . " ومن أعظم الهياكل المتحدث بغرابتها في الدنيا هيكل عظيم في شرقي المدينة المذكورة (إخميم) وتحت سورها " (٢) . " ومن أشنع مشاهدناه من ذلك خروج شرفة من مرده الزكاة في أيديهم المسال الطوال " (٣) . " ومن عجيب مشاهدناه بهذه الصحراء أنك تلتقي بقارعة الطريق أحمال الفلفل والقرفة وسائرهما من السلع مطروحة لا حارس لها . وتبقى بموضعها إلى أن ينقلها صاحبها مصونة من الآفات على كثرة المارّ عليها من أطوار الناس " (٤) . " ومن عجيب مشاهدناه في أمر الدعوة المؤمنية الموحدية ولتشار كلمتها بهذه البلاد (الحجاز) ولتستشار أهلها لملكها أن أكثر أهلها - يرمزون بذلك رمزا خفيا " (٥) . " ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى به (البيت الحرام) أنه لا يخلو من الملائكة ساعة من النهار ولا وقتا من الليل " (٦) . " ومن عجيب ما عرض علينا بباب بني شيبة المذكور عتب من الحجازة العظام طوال كلتها صاطب ذكر أنها الأصنام التي كانت قريش تعبد ما في جاهليتها " (٧) . " ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل " (٨) . " ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله - الرطب " (٩) . " ومن أغرب ما لتفق لأحد دهاة الأعاجم - إلخ " (١٠) . " ومن أغرب مشاهدناه من ذلك هودج الشريفة جملة بنت قليلة عمه الأمير

مكر " (١) . " ومن العجيب أن كان منهم من قال : - " (٢) . " ومن عجيب هذه المحلة أيضا - لها إذا حلت رحالها - ثم ضرب الأمير طبله للإنداد بالرحيل لم يكن بين استقرار الرواحل بوقارها ورحالها إلا كلا ولا " (٣) . " ومن عجيب ما شاهدناه من الأمور البديعة - أن إحدى حوالتين المذكورت - " (٤) . " ومن أبهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويبتدىء التواء بالقرآن - إلخ " (٥) . " ومن أحفل المشاهد مشهد منسوب لعلي بن أبي طالب ، رضي الله عنه " (٦) . " ومن العجيب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من مسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم " (٨) . " ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفتيين مسلمين ونصارى (أي الصليبيين) - ورفاق المسلمين والنصارى يخلف بينهم دون اعتراض عليهم " (٩) . " ومن أعظم مشاهدناه من مناظر الدنيا الغريبة - أن - المصعود إلى أعلى قبة الرصاص " (١٠) . " ومن عجيب حال الصغير عندهم (الممشقين) الكير - أنهم يمشون وأيديهم إلى خلف قلبين بالواحدة على الأخرى " (١١) . " وهو من

١٠٧/ص

١١٩/ص

١٦٤/ص

١٧٧/ص

١٩٢/ص

٢١٢/ص

٢٥٢/ص

٢٥٩/ص

٢٦٠/ص

٢٦٤/ص

٢٦٩/ص

٢٤/ص - ١

٢٦/ص - ٢

٢٩/ص - ٣

٤٤-٤٣/ص - ٤

٥٦/ص - ٥

٧٦/ص - ٦

٩٠/ص - ٧

٩٨/ص - ٨

٩٩/ص - ٩

١٠٥/ص - ١٠

أطـرف الارتباطات الإفريقية وأغربها " (١) . " فلما حملتها ومنعتها فأعجب مليحتت به " (٢) . " ومن العجب في الاتفاقات في الأسفار البحرية أنا استطلعنا على ظهور البحر أمة ثلاثة أشهر " (٣) . " ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران كيمة تعرف بكيسة الأنطاكي " (٤) . " ومن أعظم ما منى به أهل هذه الجزيرة أن - " (٥) . " ومن أعجب ما شاهدناه من أحوالهم - " (٦) .

وقد انتقد هذا بعض من كنوا عن ابن جبير ، وعدوه منه مبالغة غير مقبولة (٧) . ورأى عبد القدوس الأنصاري أن " كتب الرحلات هي أولى بأن تتجنب جملة وتفصيلا هذه التهويلات وهذه المبالغات غير المعقولة وغير المقبولة لتكون على مستوى المسؤولية والموضوع ، ولتطبق كل ما فيها أو جلـه الحقائق بدون زيادة ولا نقص " . وأن " ذلك خير ألوان البيان " (٨) .

وقد فات هؤلاء المنتقن أن معظم ما رآه ابن جبير في رحلته كان جديدا عليه ، وأنه حين استعمل هذه العبارات القوية إنما استعملها لأول رؤيته لما وصفه . ولو أنه انتظر فلم يسجل انفعالاته بما يشاهد في الحال ، وأجلها إلى ما بعد تكرار رؤيته لها لخف انفعاله بها وحانت عباراته أمدا ثم لانس أن أهل المغرب الأندلسي كان ينظرون عادة إلى المشرق الإسلامي بعين

الانبهار والإعظام ، فلا عجب أن يكون انفعال ابن جبير بما رآه قويا .

على أن ثمة اعتبارا آخر ينبغي ألا يهمل ، ألا وهو أن ابن جبير لم يكن يرصد ظاهرة طبيعية يرصد تسجيلها كما هي لا كما تنعكس على صفحة نفسه وضميره . لقد كان أدبيا في المقام الأول . ومع هذا فإنه في الأمور التي تخضع للقياس قد لجأ إلى القياس والتزم الحقائق الموضوعية . وللأسف فإن هذا اللون من الوصف هو أقل صفحات الكتاب إثارة وإمتاعا وقد يكون لنا عودة إلى هذه النقطة

وهو كثيرا ما يستخـم عبارة : " انفصلنا من - " أو " رفعنا من - " أو " أفلعنا من - " بمعنى " لوتحلنا - " : " وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة - للنية الحجازية أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال (٥٩٨ هـ) " (١) . " ثم إنا أفلعنا منه ظهر يوم الأحد " (٢) . " ثم كان الانفصال عنها (الإسكندرية) - صيحة يوم الأحد الثامن لذي الحجة المذكور " (٣) . " وفي صيحة يوم الأحد - كان انفصالنا من مصر وصعودنا في النيل " (٤) . ووافق يوم إقلاعنا المذكور أول يوم من مليه بحول الله عز وجل " (٥) . " فلما كان إثر صلاة العشاء الآخرة رفعنا منه إلى ماء يعرف بالحاجز فبتنا به " (٦) . " فلما كان غشاء يوم الاثنين المذكور تزودنا الماء ليوم وليلة ورفعنا إلى ماء بوضع يعرف بشاغب " (٧) . " ثم كان رفعنا من

٢٧٢/ص-١

٢٧٧/ص-٢

٢٩٢/ص-٢

٣٠٦/ص-٤

٣١٥/ص-٥

٣١٥/ص-٦

٧- انظر عبد القدوس الأنصاري / مع ابن جبير في رحلته / ص ٢٤٧-٢٤٨

٨- المرجع السابق / ٢٤٨

٧/ص-١

٩/ص-١

١٧/ص-٢

٢٢/ص-٤

٢٢/ص-٥

٤١/ص-٦

٤٢/ص-٦

قريب العصر على ماء بئر .. فبتنا به .. ثم رفعنا منه بعد تهويم ساعة " (١) . " فلما كان آخر يوم الخميس .. أطلع المركب " (٢) . " وكان انفصالنا عنها عشى يوم الخميس المذكور " (٣) . " ثم أطلعنا يوم الأربعاء المذكور وقد تم لنا على ظهر المركب ثمانية وعشرون يوما " (٤) . " وأطلعنا من المرسى المذكور يوم الاثنين " (٥) . " فطلعنا على بركة الله تعالى فسى ثلاثة مواكب من الروم " (٦) . " وفي ضحوة يوم الثلاثاء .. أطلعنا على اليمن والبركة " (٧) .

ومن العبارات التى تلفت النظر فى أسلوب الرحلة بكثرة ترددها قوله : " فنزلنا مريحين " و " أقمنا مريحيين " وما إلى ذلك : " فقمنا بياض يوم الأربعاء المذكور مريحين بالقرين " (٨) . " فلجئناهم بلأمال ونزلنا مريحين قائلين " (٩) . " ثم نزلنا مريحين قائلين .. وبيننا وبين بدر مقدار مرحلتين " (١٠) . " فأصبحنا يوم السبت .. مقيمين مريحين بها " (١١) . " فنزلنا ببئر ذات العلم " (١٢) . " وأقام الناس يومهم ذلك مريحين بها إلى ظهر

أمتان المذكور صبيحة يوم الاثنين " (١) . " وفى ظهر يوم الثلاثاء .. كان رفعنا من مجاج المذكور سالكين على الوضع " (٢) . " وفى عشى يوم الثلاثاء .. كان انفصالنا من جدة " (٣) . " فلذا كان فى عشية رفعوا وأسروا ليلتهم وصبحوا الحرم الشريف " (٤) . " وفى إثر ذلك انفصل الحاج إلى مكة من ذلك اليوم " (٥) . " وأعلمنا بعد انفصالنا فى ذلك اليوم بأن هذا الموقف المخجل وقع لثلاثة أناس فى ذلك اليوم بعينه " (٦) . " ثم أطلعنا ظهر يوم السبت " (٧) . " فلما كان إثر صلاة الظهر أطلعنا إلى خليص " (٨) . " فلما كان ظهر يوم الاثنين إثر الصلاة أطلعنا من خليص مرتحلين " (٩) . " فأطلعنا منها ظهر يوم السبت " (١٠) . " ثم أطلعنا نصف الليل " (١١) . " وأطلعنا منه نصف الليل إلى تريان " (١٢) . " ثم نزلنا فى المحواء على ماء جب وأرخنا قليلا .. ثم رفعنا ضحوة النهار من يوم الأحد " (١٣) . " ونزلنا

- ١- ص ٢١٩
٢- ص ٢٨٤
٣- ص ٢٧١
٤- ص ٢٨٧
٥- ص ٢٩١
٦- ص ٢١٧
٧- ص ٢١٩
٨- ص ٥٨
٩- ص ١٦٢
١٠- ص ١٦٥
١١- ص ١٦٦-١٦٧
١٢- ص ١٦٧

- ١- ص ٤٤
٢- ص ٤٤
٣- ص ٥٧
٤- ص ٥٧
٥- ص ١٣٦
٦- ص ١٣٩
٧- ص ١٦٢
٨- ص ١٦٣
٩- ص ١٦٥
١٠- ص ١٦٧
١١- ص ١٦٧
١٢- ص ١٦٧
١٣- ص ٢١٩

الاثنين بعده " (١) " فتتجنا مريحين إلى أن انفرج ذلك المزدحم " (٢) . " وتمادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار ، فنزلنا قائلين ومريحين على دجيل " (٣) . فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين ... ثم رحلنا ... فصبحنا تكريت ... فنزلنا ظاهرا مستريحين ذلك اليوم " (٤) " وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع الأول بها مريحين " (٥) . " فكان نزولنا ظاهرا البلد وأقمنا مريحين " (٦) " فأسرنا إلى الصباح ونزلنا مريحين بتل عبدة " (٧) . " أقمنا بها يوم الخميس ... مريحين خلال ما تكمل القافلة العبور " (٨) " وأقمنا يوما مريحين ثم رحلنا نصف الليل " (٩) " فأسرنا وسرنا إلى ضحوة من النهار ، ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقلين " (١٠) . " فأقمنا بها يوم الأربعاء ... بالخان المذكور مريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر " (١١) .

هذا ، ولم ألاحظ أن ابن جبير استخدم أي من هاتين العبارتين في أى بلد غير إسلامي أو البلاد التي كان الصليبيون مستولين عليها . إذا صحت هذه الملاحظة ، يكون لقلب هتين التعبيرين في تلك البلاد دلالة النفسية من أنه لم يكن يشعر بالراحة فيها ؟

وقد تكرر من ابن جبير وصفه للريح التي تدفع السفينة إلى الأمام بـ " الريح الموافقة " . ومنه هي الشواهد : " وتركنا المركب المذكور في موضع إرسائيه ... عند هبوب الريح الموافقة " (١) " ونحن به (بالمركب) منتظرون موافقة الريح " (٢) " واتصل جربنا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام " (٣) " والبحر في أثناء ذلك كله هائل ، والريح لاتوافق " (٤) " وفي يوم السبت ... لنقطع عنا بر الجزيرة ونحن نجري بريح شامية موافقة " (٥) " وأقلعنا من المرسى المذكور بريح طيبة موافقة " (٦) " ثم حركتنا من ذلك الموضع ربح موافقة " (٧) . " ورمنا الإقلاع فلم توافق الريح " (٨) . " ثم إن الريح الموافقة ركبت عنا " (٩) " وأصبحنا يوم الأحد ... بالمرسى المذكور والريح غربية ، ونحن نتظر تسييم الصنع الجميل من الله عز وجل بإرسال الريح الموافقة " (١٠) .

وهو يكثر من التسييح والتحيد ، لدرجة أنه ما من موقف تقريبا إلا ويسارع فيه إلى تمجيد الله عز وجل على هذا النحو : " فلما كان ظهر يوم الثلاثاء يسر الله علينا في عبور البحر ... تسييرا عجيا . والحمد لله " (١١) " وطراً علينا من مقالة البر في الليل هول عظيم

١٠/ص

١- ص/٢٨٢

٢- ص/٢٨٥

٤- ص/٢٨٧

٥- ص/٢٨٨

٦- ص/٢٩١

٧- ص/٢٩٢

٨- ص/٢٩٦

٩- ص/٢٩٨

١٠- ص/٣١٩

١١- ص/٨

١- ص/١٨٢

٢- ص/١٩٠

٣- ص/٢٠٧

٤- ص/٢٠٨

٥- ص/٢١٦

٦- ص/٢٢٢

٧- ص/٢٢٢

٨- ص/٢٢٢

٩- ص/٢٢٤

١٠- ص/٢٢٨

١١- ص/٢٢٢

الاثنين بعده " (١) . " فتحنينا مريحين إلى أن تفرج ذلك المزدحم " (٢) . " وتبادى سيرنا إلى أن ارتفع النهار ، فنزلنا قائلين ومريحين على دحيل " (٣) فأقمنا بهذا الموضع طول يومنا مستريحين ثم رحلنا . فصحننا تكريت . فنزلنا ظاهرهما مستريحين ذلك اليوم " (٤) . " وأصبحنا يوم الخميس الثالث لربيع الأول بها مريحين " (٥) . " فكان نزولنا ظاهر البلد وأقمنا مريحين " (٦) " فلسونا إلى الصباح ونزلنا مريحين بتل عبدة " (٧) " أقمنا بها يوم الخميس مريحين خلال ما تكمل القافلة العور " (٨) " وأقمنا يوما مريحين ثم رحلنا نصف الليل " (٩) " فلسونا وسرنا إلى ضحوة من النهار . ثم نزلنا مريحين بموضع يعرف بباقيين " (١٠) " فأقمنا بها يوم الأربعاء . بالخان المذكور مريحين ومستدركين للنوم إلى أول الظهر " (١١)

هذا ، ولم ألاحظ أن ابن جبر استخلم أيا من هاتين العبارتين في أى بلد غير إسلامي أو البلاد التي كان الصليبيون مسئولين عليها فهل ، إذا صحت هذه الملاحظة ، يكون لغياب هذين التعبيرين في تلك البلاد دلالة النفسية من أنه لم يكن يشعر بالراحة فيها ؟

١-ص/ ١٨٢

٢-ص/ ١٩٠

٣-ص/ ٢٠٧

٤-ص/ ٢٠٨

٥-ص/ ٢١٦

٦-ص/ ٢٢٢

٧-ص/ ٢٢٢

٨-ص/ ٢٢٢

٩-ص/ ٢٢٤

١٠-ص/ ٢٢٨

١١-ص/ ٢٢٢

وقد تكرر من ابن جبر وصفه للريح التي تدفع السفينة إلى الأمام بـ " الريح الموافقة " . ومنه هي الشواهد : " وتركنا المركب المذكور في موضع إرسائهم . عند هبوب الريح الموافقة " (١) " ونحن به (بالمركب) متظرون موافقة الريح " (٢) " واتصل جربنا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام " (٣) " والبحر في أثناء ذلك كله هائل ، والريح لاتوافق " (٤) " وفي يوم السبت انقطع عنا بر الجزيرة ونحن نجوى بريسح شالية موافقة " (٥) " وأقمنا من المرسى المذكور بريح طيبة موافقة " (٦) " ثم حركتنا من ذلك الموضع ربح موافقة " (٧) . " ورمنا الإفلاخ فلم توافق الريح " (٨) " ثم إن الريح الموافقة ركبت عنا " (٩) " وأصبحنا يوم الأحد بالمرسى المذكور والريح غربية ، ونحن نتظر تميم المنع الجميل من الله عز وجل بإرسال الريح الموافقة " (١٠)

وهو يكثر من التسيح والتحميد ، لدرجة أنه ما من موقف تقريبا إلا ويسارع فيه إلى تمجيد الله عز وجل على هذا النحو : " فلما كان ظهر يوم الثلاثاء بسر الله علينا في عبور البحر . تسبورا عجيبا ، والحمد لله " (١١) " وطراً علينا من مقابلة البر في الليل هول عظيم

١-ص/ ١٠

٢-ص/ ٢٨٢

٢-ص/ ٢٨٥

٤-ص/ ٢٨٧

٥-ص/ ٢٨٨

٦-ص/ ٢٩١

٧-ص/ ٢٩٢

٨-ص/ ٢١٦

٩-ص/ ٢١٨

١٠-ص/ ٢١٩

١١-ص/ ٨

عظم الله منة بريح أرسلها الله تعالى في الحين من تلقاء البر فأخرجنا عنه . والحمد لله على ذلك " (١) " ويسر الله في التخلص من بحرهما ... والحمد لله على ذلك " (٢) . " فلست بشر الناس وعك الأتس وذهب اليأس ، والحمد لله الذي أرفنا عظيم قدرته " (٣) . " ونزلنا في الحدى والثلاثين ... والحمد لله على ملن به من التيسير والتسهيل " (٤) . " وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمرا عظيما . والحمد لله رب العالمين " (٥) . " فهي تعود عليهم برزق واسع ، فسبحان قاسم الأرزاق على اختلاف أسبابها " (٦) . " فسبحان مقدرها لا إله سواه " (٧) . " فسبحان محبب الأوطان إلى أهلها " (٨) . " فسبحان مسخرها على تلك الحال والنسلم فيها ، لا إله سواه " (٩) . " وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن ، فعصمنا الله عز وجل من فال اسمها المنموم ، وله الحمد والشكر على ذلك " (١٠) . " والحمد لله على ملن به من العصمة وتكفل به من الوقاية والكفالية حمدا يبلغ رضاه ويستهدى المزيد من نعمه ، بعزته وقدرته ، لا إله سواه " (١١) . " فسبحان مغير السنن ومبدلها " (١٢) . " ولله الآيات السنيات

والبراهيمن المعجزات ، سبحانه وتعالى " (١) . " فله الحمد والشكر على ما أنعم به علينا " (٢) . " وفي التاسع عشر من شعبان كان لتصراف هذه القافلة الكبيرة في كنف السلامة ، والحمد لله " (٣) . " فوصلوا في عافية وسلامة ، والحمد لله " (٤) . " إنه سميع الدعاء ، كفى بالرجاء ، سبحانه لا إله سواه " (٥) . " ووصلنا إلى مكة قرين الظهور والحمد لله على ملن به " (٦) . " وتصرفوا عن سلام ، والحمد لله على ذلك " (٧) . " وأطلق سبيل الحاج ، والله الحمد على ذلك " (٨) . " فهو أمل الحمد والشكر ومستحقه ، لا إله سواه " (٩) . " ولا تكاد نمر بحول الله يوما بموضع إلا والماء يوجد فيه ، والشكر لله على ذلك " (١٠) . " والحمد لله على ملن به " (١١) . " والحمد لله على ما أنعم به من السلامة " (١٢) . " فحببنا الله عز وجل على أن من علينا برؤيته " (١٣) . " فوصلنا مدينة حوران مع طلوع الشمس ... والحمد لله على

- ١-ص/٢٦
- ٢-ص/٩٦
- ٣-ص/١١٤
- ٤-ص/١٢٦
- ٥-ص/١٣٤
- ٦-ص/١٣٨
- ٧-ص/١٤٧
- ٨-ص/١٦٢
- ٩-ص/١٦٨
- ١٠-ص/١٨٥
- ١١-ص/١٨٢
- ١٢-ص/١٨٧
- ١٣-ص/٢١٥

- ١-ص/٩
- ٢-ص/١٠
- ٣-ص/١١
- ٤-ص/١٢
- ٥-ص/٢٥
- ٦-ص/٤٥
- ٧-ص/٤٦
- ٨-ص/٤٦
- ٩-ص/٤٧
- ١٠-ص/٥١
- ١١-ص/٥٢
- ١٢-ص/٥٤

ويستعين من الردة : " نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخواتيم الضلالة " (١).

إن من الواضح مدى قوة تدبير ابن جبير وعمقه ، فهو يذكر الله في كل حين وكل موقف : يذكره راضيا ، ويذكره راجيا ، ويذكره مستعيذا خائفا . وقد قوى هذه النزعة في نفسه أنه كان في رحلة حجية . وكان الحج في ذلك الوقت عملا شاقا ، فكان أثره في النفس أقوى وألوم .

ومما ينعكس فيه هذا الشعور الديني القوي عند ابن جبير أيضا كثرة الأدعية في رحلته ، فهو يدعو الله في كل مرحلة من مراحل الطريق باليسير والتسهيل ، وهو يدعو الله للبلاد الإسلامية التي مر بها أن يحفظها ، وهو يدعو الله للبلاد التي كانت في حوزة الإسلام ثم أخذها النصارى أن يعيدها مسلمة كما كانت ، وهو يدعو الله على الممالك غير الإسلامية أن يبعثوا ويديموا أهلها - إلخ . وهذه عينة من ذلك :

" وكان ذلك عند وصول العدو ، دمره الله ، بهم (بالأسارى المسلمين) من سواحل البحر ببلاد المسلمين . والله يتداركهم برحمته " (٢) . عرفنا الله فيها الخير والخيرة ، وتمم علينا صنعه الجليل بالوصول إلى الغرض المأمول . ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته " (٣) . " وجعلنا الله من يدين بحب أهل البيت الذين أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا " (٤) " فأوزعنا الله شكر هذه المنة وعرفنا قدر ما خصنا به من نعمة ، وختم بالقبول ، وأجرنا على كريم عوائده من الصنع الجميل ولطيف التيسير والتسهيل " (٥) " ويقال إن القرمطي ، لعنـــــه الله ، كان الذي كسره (أى الحجر الأسود) " (٦) " فنه يرتقبه لوتقارب لشرف

الأعياد . . والله ينفعهم في ذلك بحسن النية والاعتقاد " (١) " والله يعرفنا حقيقة الاعتبار بآياته " (٢) " والله تعالى يعرف المسلمين خيرا " (٣) . " والله يصلحه ويوفقه بمنه " (٤) . وكانت ليلة استهلال هلاله من الليالي الحفيلة في المسجد الحرام ، زاده الله تكريما " (٥) . " والله تعالى لا يخلينا من بركة هذه المشاهد بمنه وكرمه " (٦) . " أطلع هلاله على المسلمين بالأمن والإيمان ، والمغفرة والرضوان " (٧) . " نظم الله الشمل ، وتتم علينا الفضل " (٨) . " نفعا الله ببركته ، وجعلنا ممن فاز بنصيب من رحمته ، بمنه وفضله " (٩) . " فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح " (١٠) . " فرحم الله أبا نواس الحسن بن هانيء حيث يقول : - " (١١) . " والله ينفع المسلمين ببركاتهم ومواصلح دعواتهم ، بمنه وكرمه " (١٢) . " ذكر مدينة السلام بغداد ، حرسها الله تعالى " (١٣) . " ذكر مدينة الموصل ،

١-ص/١١٦

٢-ص/١١٧

٣-ص/١٢٤

٤-ص/١٢٦

٥-ص/١٢٢

٦-ص/١٤٠

٧-ص/١٤٠

٨-ص/١٦٨

٩-ص/١٩٩

١٠-ص/٢٠٥

١١-ص/٢١٤ . وهذه أول مرة أرى أحدا يترحم على أبي نواس ولكنه ابن جبير ، يرحمه الله !

١٢-ص/٢٢٠

١٣-ص/١٩٢

١-ص/٢١٢

٢-ص/٩

٣-ص/١٨

٤-ص/٥٢

٥-ص/٥٩

٦-ص/٦٦-١٢

حرمها الله تعالى " (١) . " ذكر مدينة حران ، كالأما الله " (٢) " ذكر مدينة حماة ، حملاها الله تعالى " (٣) . " ذكر جامعها (جامع دمشق) المكرم ، عمره الله تعالى " (٤) . " والله يُعَلِّي كلمة الإسلام بمنه " (٥) . " والله يبقيا (أى دمشق) دار إسلام بمنه " (٦) . " والله يمتع ببقائه (أى صلاح الدين) الإسلام والمسلمين بمسسه " (٧) " وصباحنا يوم الثلاثاء ... مدينة عكة ، دمرها الله " (٨) " ذكر مدينة عكة ، دمرها الله وأعادها " (٩) " وبين عكة وبيت المقدس ثلاثة أيام ... والله يعينه إلى أيدي المسلمين ، ويظهره من أيدي المشركين " (١٠) . " ولعكة ... ولو يسيل ماء ، ولها مسع شاطئه ما يتصل بالبحر بسيط رمل ... وبه يجتمع العسكر ، دمره الله " (١١) . " ونصور عند بابها البرى عين معينة ... والله تعالى يعيد إليها وإلى أخواتها كلمة الإسلام بمنه وكرمه " (١٢) . " والله تعالى يعظم أجورنا على ما كابدناه ، ويختم لنا بأجل الصنع وأسناه ، وبوزعنا فى كل حال شكر ما أولاه " (١٣) . " وذكر مدينة مسينة من جزيرة صقلية ،

أعادها الله تعالى " (١) " ذكر مدينة شفلودي من جزيرة صقلية ، أعادها الله " (٢) . " ذكر مدينة ثرمة من الجزيرة المذكورة (صقلية) ، فتحها الله " (٣) . " ذكر المدينة التي هي حضرة صقلية ، أعادها الله " (٤) . " فتخلفنا (ملك صقلية) حضرة ملكة الإفرنجي له أولاده الله " (٥) . " وأعلى هذا المثال موضوع قرطبة ، حرمها الله " (٦) " ومي (كنيسة بصقلية) من أعجب ما يوصف من البيان ، شرفها الله عن قريب بالأذان ، بلطفه وكرمه منه " (٧) " ذكر مدينة أطروايتش من جزيرة صقلية ، أعادها الله " (٨) " ووصل أمر من ملك صقلية بعقلة المراكب بجميع السواحل من جزيرته بسبب الأسطول الذي يعمره ويعدده ، رغب الله سعيه ولا تم قصده " (٩) . " تكفل الله بعصته جميعهم (مسلمي صقلية) ، ونجاهم مما هم فيه بفضل وكرمه " (١٠) . " ولقسد استجاب الله دعاء ابن جبر في المدن الشمالية والقلبية التي كان الصليبيون راضعين أيديهم عليها ، وإن كان صليبيو العصر الحديث قد عادوا فاستولوا عليها بعد الحرب العالمية الأولى ، ثم جلوا عنها بعد أن سلموا لليهود فلسطين ، التي مازالت بأيديهم حتى الآن ، أعادها الله مسلمة كما كانت ، لما صقلية فلم تعيد للإسلام منذ أن خرجت من يده إلى الآن ثم تبعها الأندلس وأحوال المسلمين حتى هذه اللحظة لا تشر بالخير كثيرا من العواصف

٢١٢/ص ١-
٢١٩/ص ٢-
٢٣٠/ص ٣-
٢٣٥/ص ٤-
٢٦١/ص ٥-
٢٦١/ص ٦-
٢٧١/ص ٧-
٢٧٥/ص ٨- لأنها كانت حينئذ في أيدي الصليبيين / ص ٢٧٥
٢٧٦/ص ٩-
٢٨٢/ص ١٠-
٢٨٢/ص ١١-
٢٨٢/ص ١٢-
١٢/ص ١٣-
٢٩٦/ص ١-
٢٠١/ص ٢-
٢٠٢/ص ٣-
٢٠٥/ص ٤-
٢٠٥/ص ٥-
٢٠٦/ص ٦-
٢٠٧/ص ٧-
٢٠٨/ص ٨-
٢١٠/ص ٩-
٢١٥/ص ١٠-

والأنواء حمة وفطيمة ، والتنافس والتباغض بين المسلمين لا يزال ذا سلطان جبار .

على أن هناك دعاء جَيِّباً أحب أن أفرده بكلام خاص لما له من أهمية ، وهو " قَسَّسَ اللَّهُ " .
ومنه أولاً شواهد :

قال في الكلام عن مسجد الحسين ورأسه الذي يقال إنه مدفون فيه : " قَسَّسَ اللَّهُ الصُّوفِ
الكَرِيمَ الَّذِي فِيهِ بَنِيهِ وَكَرَّمَهُ " (١) .

وعن الفرقة بالسوط عقيب لُذْنِ الْمَغْرِبِ والعشاء فَمَسَى الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ : " وَهِيَ لَامِحَالَةٌ مِنْ
جَمَلَةِ الْبِدْعِ الْمُسْتَحْدَثَةِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ الْمُعَظَّمِ قَسَّسَهُ اللَّهُ " (٢) .

وفى الكلام عن غار ثور : " وَوَلَجْنَاهُ مِنَ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَعْبُرُ الْوَلُوجُ مِنْهُ عَلَى الْبَعْضِ مِنَ النَّاسِ
تَبَرُّكاً بِمَسِّ بَشَرَةِ الْبَدَنِ بِمَوْضِعِ مَسِّ الْجَسَمِ الْمُبَارَكِ ، قَسَّسَهُ اللَّهُ ، لِأَنَّهُ مَخْلُ النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كَانَ مِنْهُ " (٣) .

وعن مكة : " فَكَانَتْ مَدَّةً مَقْلَمًا بِمَكَّةَ قَسَّسَهَا اللَّهُ ، ثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ وَثَلَاثَ شُهُورٍ " (٤) .

وعن أحسد المسلمين العلمين في قصر ملك مقلية متخفياً تحت اسم نصراني : " فَسَأَلْنَا عَنْ
مَكَّةَ ، قَسَّسَهَا اللَّهُ ، وَلَسْتُ هُنَا مِنْ بَعْضِ مَا اسْتَصْحَبْنَاهُ مِنَ الطُّرُقِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ مَكَّةَ
وَالْمَدِينَةِ ، قَسَّسَهَا اللَّهُ " (٥) .

وعن بعض الحجاج المغاربة : " كُنَّا فَلَاقْنَاهُمْ بِمَكَّةَ ، قَسَّسَهَا اللَّهُ " (٦) .

وذلك إلى جانب ورود هذه العبارة في مقام الخبر لا في مقام الدعاء ، وذلك حين يَنْطَلِقُ
الأسباب التي تجعله يرفض للمسلم البقاء في بلاد الكفر تحت حكم الصليبيين : " وَمِنْهَا سَمَاعُ

١- ص/٢٠ .

٢- ص/١٢٢ .

٣- ص/١٣٩ .

٤- ص/١٦١ .

٥- ص/٢٩٩ .

٦- ص/٣١٧ .

يَجْعَلُ الْأَقْبَلَةَ مِنْ ذِكْرِ مَنْ قَسَّسَ اللَّهُ ذِكْرَهُ وَأَعْلَى خَطَرِهِ " ، يقصد النبي محمدًا عليه السلام فيما
هو (١) .

وسرّ إفرادي هذا الدعاء بكلام خاص هو أن مسيحيون ، المستشرق الفرنسي ، قد اتكأ على
بارة مثل هذه جاعلاً لإيادها دليلاً من الأدلة التي لفقها من هنا وهناك على أن المتنبى
إسماعيلي . قال : " إن المعجم الشعري للمتنبى يحتوي على بعض العبارات الشائعة عند
إسماعيليين : اثنتان منها من إخوان الصفا (وهما " قَسَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ " ، و " الْفَلَكُ
يُورِلُ ") - إلخ " (٢) .

إن ابن جبير سقى ، أى ليس شيعياً ، فضلاً عن أن يكون إسماعيلياً . وقد عبر في أكثر من موضع
رحلته عن رأيه الشديد في الشيعة ، حتى الزيدية منهم (٣) ، وهم معتدلون جداً . كما سقى
إسماعيليين أكثر من مرة بالملاحظة (٤) ، ولعن القرامطة (٥) ومع ذلك كله فإنه يستعمل هذا
الدعاء ، مما يدل على أنه ليس دعاءً خاصاً بالإسماعيلية ولا بإخوان الصفا منهم ، ويؤكد ذلك أن
الثنائي الصوفي (من القرن الثامن الهجرى) قد استعمل " قَسَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ " ، و " قَسَّسَ اللَّهُ
رُوحَهُ " (٦) . كما استعمل العبارة الأخيرة الحسن بن محمد البوريني في الدعاء لأحد المنجدين

ص/٢٨٠ .

انظر د إبراهيم عوض / المتنبى بإزاء القرن الإسماعيلي في تاريخ الإسلام (وهو ترجمة من الفرنسية لبحث
سينون عن قرطبة المتنبى ، ودراسة مفصلة لهذه الدعوى وتقيد لها) / مطبعة الشباب الحر ومكتبتها / ١٩٨٨م /

٢٠٠

انظر مثلاً الرحلة / ص ٢٢٤، ٢٢٥ .

انظر الرحلة / ص ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦ .

ص/٦٧ .

انظر كتابه " اصطلاحات الصوفية " / تحقيق د محمد كمال إبراهيم جعفر / الهيئة المصرية العامة للكتاب /

١٣٨٥م / ص ٧٥، ١٥٧ .

ذكرناه جانبان : شرقى وغربى ، ودجلة بينهما " (١) .

وفى أثناء وصفه للمراحل الطريق فى طريق العودة عند مدينة دنيصر العراقية استطرد فتحدث عن هذه المدينة وسكانها وحكمها وما إلى ذلك . ثم قال فى نهاية هذا الاستطرد : " ونرجع إلى حديث المراحل ، قربها الله . فكان مقلنا بدنيصر إلى أن صلينا الجمعة - ورحلنا إثر صلاة الجمعة فاجتزنا على قرية كبيرة - " (٢) .

وبعد استطراد آخر قال : " وقد خرج الكلام بنا عن مقصده ، فلنعد إلى ما كنا بصدد فنقول : - " (٣) .

وبعد استطراد مشابه نراه يقول : " وقد تسلسل بنا القول إلى غير الباب الذى نحن فيه والحديث ذو شجون . والله كفى بحسن العون ، لأرب سواه " (٤) ، ثم يعود إلى موضوعه الأسمى الذى كان قد تركه .

ومن العبارات التى تقابلنا عند ابن جبير قوله : " حسبما تقدم ذكره " وما أشبهه :

يقول عن سهر سكان مصر : " على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والإسكندرية ، حسبما تقدم ذكره " (٥) .

ويقول عن موسى عليه السلام وهو طفل رضيع : " ومنها ألقته أمه فى اليم ، وهو النيل حسبما ذكر " (٦) .

" وجدد بنا الكعبة المقدسة وغشاها فضة منمجة ، وهو الذى فيها الآن حسبما تقدم

وصفه " (١) .

ويقول عن عبدالله بن الزبير : " وجعل طريقه على ثنية الحجون المفضية إلى المعلى ، التى كان دخول المسلمين يوم فتح مكة منها حسبما تقدم ذكره " (٢) .

" فكان يومهم أشبه شيء بأيام المرو فى دخولهم البيت حسبما تقدم وصفه " (٣) .

وعن غار ثور : " وسعة الباب التلى المتسع مدخله خمسة أشبار أيضا ، لأن له بابين حسبما ذكرناه أولا " (٤) .

" ويليهما - المقصورة التى أحدثت عند إضافة النصف المتخلم كنيسة إلى الجامع ، حسبما تقدم ذكره " (٥) .

وعن صيام رمضان فى صقلية : " ويوم الخميس كان صيام أهل مدينة صقلية المتقم ذكرها " (٦) . هذا عن المفردات والميخ والعبارات . أما التراكيب فقد لاحظت منها طائفة مميزة تكورت فى الرحلة .

١- ص/ ٢٠٠ .

٢- ص/ ٢١٦ .

٣- ص/ ٢٢٦ .

٤- ص/ ٢٥١ .

٥- ص/ ٢١١ .

٦- ص/ ٢٢٢ .

١- ص/ ١٠٣ .

٢- ص/ ١١٥ .

٣- ص/ ١٣٦ .

٤- ص/ ١٤٠ .

٥- ص/ ٢٢٨ .

٦- ص/ ٢٠٩ .

التراكيب

ومن هذه التراكيب التركيب التالى : " إن (أو " أن ") + شبه جملة + جملة فعلية (بدلا من اسم إن المتأخر) . وهذه أمثلة على ذلك :

" ويذكر أن فيها كان مولد النبي موسى الكليم ، صلى الله على نبينا وعليه " (١) .

" يقصد الناس إليها ويصلون فيها ويتمسحون بأركانها ، لأن فى موضعها كان موضع قعود النبي ، صلى الله عليه وسلم " (٢) .

" وما يجب أن يثبت ويؤثر - أن فى يوم الجمعة - أنشأ الله بخريسة (أى سحابة آتية من جهة البحر) - " (٣) .

" وأعلمنا أحد الصجاج - أن فى هذا العام - استفتح (قلج ارسلان) من بلاد الروم نحو خمسة وعشرين بلدا " (٤) .

" وهم يرون أن منه يكون فتح هذه الجزيرة إن شاء الله " (٥) .

" إن المنسروف أن " إن " تحتاج إلى اسم وخبر ، فإذا قلنا إن " شبه الجملة " فى الشواهد السابقة ، السالفة هو الخبر ، فأين اسم " إن " ؟

إننى أذكر أن أول مرة تنبهت فيها لهذا التركيب كانت منذ نحو خمسة عشر عاما . وقد سألت أحد الأساتذة المصلين على كتب التراث فى اللغة والأدب عن مدى صحة مثل هذا التركيب ، فقال إنه قد قبله مرارا فى الكتب القديمة . وهأنذا أعود فأقف أمام هذا التركيب فى أسلوب

١-ص/٣٢

٢-ص/٩٢

٢-ص/٩٥

٤-ص/٢٠٧

٥-ص/٣٠٩

ابن جيبو لما رأيته من تكرره فيه بضع مرات . ولما تصادف أن عثرت به في بعض النصوص التي قرأناها أثناء إعداد هذا البحث .

من ذلك قول حاتم الطائي (وإن لم يتوسط بين الحروف الناسخ والفعل شبه جملة) :

لوقد ، فإن الليل ليل قرّ . والريح يوافق ريح صرّ
علّ يرى نارك من يمر . إن جلبت ضيفا فأتت حرّ

وجاء في مسند ابن حنبل : " أن يوم مطر ألقينا تحته بئاً " (١) .

وقول ابن دراج القسطلي من قصيدة يمدح بها المنصور بن أبي عمر :

لعلّ بما أشجالك من لوعة النوى يعزّ ذليل أويّكك لسيــــــــــــــــر

وقول ابن حزم في " ملوك الحملة " : وذكرت بهذه الفعلة ما لم يزل يتداول في أسمعنا من أن في بلاد البربر التي تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق ، على أنه إذا قضى وطره من أولاد ، أن يتوب إلى الله " (٢) .

ومن كلام علي بن موسى بن سعيد صاحب " المغرب " : " إلا أن في هذا الوقت ... عظمت عمارة الفسطاط " (٣) .

وفي " رسالة أبي دلف الثانية " : " ويقال إن فيها غرّق بعض ملوك الفرس " (٤) .

وفي " مستفاد الرحلة والاعتراب " للقاسم بن يوسف التحيبي السبتي : " يؤكّدون أن هنالك دفن العضو الشريف " (٥) .

وفي " زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والسالك " : " أن في كل شيء يقسول

١- ابن حنبل / ٥٨/٦ .

٢- رسائل ابن حزم / تحقيق د. إحسان عباس / ج ١ / ص ٣٧٠ .

٣- عن المقرئ / نفع الطيب / مجلد ٢ / ص ١١١ .

٤- رسالة أبي دلف الثانية / ص ٧٢ .

٥- مستفاد الرحلة والاعتراب / ص ٨ .

الناس " (١) . " وروى عن مقاتل بن سليمان أن كل ليلة ينزل سبعون ألف ملك من السماء " (٢) . " وخلاصة القضية أن في الحقيقة لا يطلق لفظ السلطان إلا لصاحب مصر " (٣) .

ولعبسند الغني النبلسي : " وأخبرني جماعة أن مرة صعد رجل فوق تلك العمارة " (٤) . " سمعنا - بأن في بلاد مصر يعملون من القمح دبسا حلوا " (٥) . " لا يُعهد أن فيها دفن إنسان " (٦) .

ثم هذا البيت لعبدالله باشا فكري :

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب لأن يفتح القرم هان لنا المعصب

وهذا التركيب يشيع إلى حد ما في الكتابات المصرية من ذلك قول أمين الريحاني : " إني من الموحدين ، وإن في مرة توحيدى لتعكس وجوه الأنبياء والرسل أجمعين " (٧) . وقول أحمد عبدالرحمن السماوي في كتابه عن الآثار الأندلسية في إسبانية : " يشاهد المرء تلك الآثار ويتذكر أن هنا كانت ملكة - ولكنها أصبحت أثرا بعد عين " (٨) . وقول د. إبراهيم دسوقي أبانة عن كتاب الحزب الوطني في مصر هذه الأيام : " إن هؤلاء الكتاب لا شك متأكدون أن رئيس الدولة هو رئيس الحزب الوطني وأن بين قبضته تتجمع كل خيوط السلطة " (٩) . وقول

١- غرس النين خليل بن شامس الطاعري / زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والسالك / ص ٢٢ .

٢- زبدة كشف الممالك / ص ٢٢ .

٣- زبدة كشف الممالك / ص ٨٢ .

٤- النبلسي والسبتي / رحلتان إلى لبنان / ص ٨٢ .

٥- رحلتان إلى لبنان / ص ١٠٧ .

٦- رحلتان إلى لبنان / ص ١٠٩ .

٧- أمين الريحاني / وصيتي / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / ط ١ / ١٩٨٢م / ص ٢٥ .

٨- أحمد عبدالرحمن السماوي / رحلة مصورة إلى بلاد الأندلس / ص ١٢٥-١٣٦ .

٩- مقال له بعنوان " انقلاب والتباعد بين الحكومة والمعارضة " / حريدة " الوفد " القاهرية / الثلاثاء ٢٦ ربيع الأول ١٤١١هـ - ١٦ أكتوبر ١٩٩٠م / ص ٥ .

كذلك وجدت التركيب التالي أيضا عند ابن جبر : " ولاشك أن على هذه الصفة هي العين التي ذكر لنا أنها بين الكوفة والبصرة " (١).

وقد وجدت نفس التركيب عند التجيبي السبتي : " وزعم أن على ذلك هو عيش الساكنين بهذا البير " (٢).

وهذا التركيب يشيع إلى حد ما في عصرنا هذا ، وبخاصة في ميدان الصحافة . وقد عثرت وأنا عند هذه الدراسة على هذا التركيب عدة مرات في كتابات معاصرة من ذلك قول مصطفى فروخ ، الفنان التشكيلي اللبناني : " وذلك أن يقال : إن من بين الروائع التي برزت ولقت الأتظار هذا العام هي صورة " أستاذي " للفنان اللبناني فروخ " (٣) ، وقول د. عبدالعزيز المقالح : ولعل من أكثر الأمور تعرضا لسوء الفهم بالنسبة للكتابة للأطفال هو مايسمى بالنزول إلى مستوى الطفل " (٤) وقريب من ذلك قول أحمد مهابة (ولكن بغير الحرف الناسخ) : " ومما بينا في هذا الأمر هو أن إيران في عهد الشاه كانت أبرز الدول التي رُشحت للقيام بهذا الدور " (٥) كما عثرت ، في إحدى المقالات الصحفية ، على نفس التركيب ، فيما عدا أن الناسخ هو " ليس " لا " إن " ، وذلك في قول الصحفي السعودي شعاع الوائلي : " أليس في سطو صدام على بترول الكويت والتهديد بتنمية أبره هو انتهاك صارخ لتلك المبادئ التي تهم شريان

عبدالعزیز صادق : " ويضرب طه حسين مثلا على مايقول بأن في روليتة " دعاء الكروان " تجري حيلة الشعب على لسان خادمة وشقيقتها ومهندس " (١).

وبعد ، فهل لهذا التركيب توجيه نحوي ؟ إن المعروف أن " إن " و " أن " إذا خففتا لمكن دخولهما على الجمل الفعلية ، مثل :

شلت يمينك إن قتلت مسلما حلت عليك عقوبة المتعمد

و :

واعلم فعلم المرء بنفسه أن سوف يأتي كل ماقدرا

ويكون اسم " أن " أو " إن " حينئذ ضمير شأن (٢) لكن قد يقال إن " إن " و " أن " في هذه النصوص ليستا مخففتين فما القول بأن النحاة يقولون إن لسم " إن " في قوله صلى الله عليه وسلم : " إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون " هو ضمير شأن محنوف ؟ وهو نفس مقالوه في بيت الأخطل التالي :

إن من يدخل الكنيسة يوما يلقي فيها جانرا وظبلا

على اعتبار أن الجملة التي دخلت عليها " إن " هنا هي جملة شرطية لاجملة مبتدأ وخبر (٣) أفلا يمكن من ثمة توجيه التركيب الجبري وأشباهه عند الكتاب الآخرين على تفسير ضمير شأن محنوف لسم " إن " وأخواتها ؟

وأنا ، والحق يقال ، لست مستريحا كثيرا لهذا التركيب ، لكنني أحاول ألا أخطئه مداهم له باب ومع ذلك فإنني لأستطيع أن أغض عيني عن التمحل في التوجيه المقترح

١- من الحلقة الثامنة من سلسلة مقالات له بعنوان " زيارة إلى الماضي " / صحيفة " الندوة " السعودية / الأحد ١- ربيع

الثاني ١٤١١ هـ - ٢٨ أكتوبر ١٩٩٠م / ص ١٠

٢- انطسرس شرح ابن عقيل / تحقيق محمد محيي الدين عبدالحمد / ط ١٤ / دار العلوم الحديثة / بيروت /

أكتوبر ١٩٦٤م / ج ١ / ص ٣٨٢-٣٨٩

٣- شرح ابن عقيل / ج ١ / ص ٢٤٦-٢٤٧ / ص ٢

رحلة ابن جبر / ص ٢٠٩

أبو القاسم بن يوسف التجيبي السبتي / استفاد الرحلة والاعترا ب / ص ٩٨

مصطفى فروخ / طريقى إلى الفن / مؤسسة نوفل / بيروت / ط ١ / ١٩٨٦م / ص ١٦٨

من مقال له بعنوان " عبدالتواب يوسف وملاحظات في أدب الشئس " في كتاب " عبدالتواب يوسف وأدب الطفل

لربى . مع قائمة بيلوجرافيا لإنتاجه الفكوى " / الهيئة العامة المصرية للكتاب / ١٩٨٧م / ص ٥٧

أحمد مهابة / إيران بين التاج والعمامة / كتاب الحرية رقم ٢٢ / دار الحرية للصحافة والطباعة والنشر / القاهرة /

١٩٨٨م / ص ١٤٢

التقدم العالمي ؟ " (١) . كما عثرت على التركيب ذاته ، ولكن من غير أن يسبقه أي نلسخ ، في قول صحفي عراقي موجها كلامه إلى رئيس العراق : " إنك قتلت أيضا الدينار الكويتي والاقتصاد الكويتي والإنسان الكويتي ، ثم عدت بقية العرب ، وبما في ذلك - هو الإنسان العراقي " (٢) .

وبالمثل نستطيع تحمل نفس التوجيه لهذا التركيب أيضا . ولم لا ، وقد قيل إنه لا يقلب نحوى ؟ فضمير الشأن المحذوف اسم " أن " . وشبه الجملة : " على هذه الصفة " خبر . و " هي " مبتدأ ، و " العين " تابع للضمير أو منصوب بفعل محذوف تعليله " أعني " مثلا ، وأمرنا إلى الله .

ومنسالك تركيب من الكلام عند ابن جبر يشير الجدل أيضا ، وهو أنه في غير قليل من حالات تمييز العدد يتخلل الألف واللام على المميز المضاف إلى تمييزه . وهذه هي الشواهد :

" وبين الجزيرتين - نحو الأربعمئة ميل " (٣) .

" وهو بر طويل جرينا بحذاءه نحو المائتي ميل " (٤) .

" وبين البرين المذكورين نحو الأربعمئة ميل " (٥) .

" وبينه وبين الإسكندرية نحو الأربعمئة ميل على ملاذ لنا " (٦) .

" والخمسة الأثمان مضافة إلى الوجوه المذكورة " (١) .

" فمنهم من له الخمسة دنثير مصرية في الشهر - " (٢) .

" كان نزولنا بجدة حامسين لله عز وجل وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه في

نلك الثمانية الأيام طول مقامنا في البحر " (٣) .

" وهو نحو الثمانمئة قفيز " (٤) .

" مركبة من الأربعة جوانب بحجارة رائعة النقش " (٥) .

" وله بتولى هذه الخطة نحو الثمانية أعوام " (٦) .

" ولم يبلغ الخمس عشرة سنة " (٧) .

" واستحلبت - نحو المائة بعير " (٨) .

" وعين أوقافا عظيمة تغل نحو الألف دينار وأربعمئة دينار في السنة " (٩) .

وبالنظر إلى هذه الشواهد نجد أن التمييز المضاف إليه قد أتى في بعضها معرفا هو أيضا

بالألف واللام ، وفي بعضها غير معرف . فلما البصريون ، وهم أصحاب المنهج النحوي الذي نتبع

ونتشروا وكتبوا له السيادة ، فإنهم لا يحوزون محي المميز المضاف إلى تمييزه معرفا بالألف

١٦/ص

١٧/ص

٥٢/ص

٥٥/ص

٧٧/ص

١٦١/ص

١٣٧/ص

١٦٢/ص

٢٦٢/ص

١- شعاع الواسع / شروط للحل السياسي مع التحية لناصرية / صحيفة " الندوة " السعودية / الأحد ٢ ربيع الثاني

١٤١١هـ - ٢٨ أكتوبر ١٩٩٠م / الصفحة الأخيرة .

٢- سامي فرج علي / قراءة في الأوراق السرية للقيادة الحزبية والحكومية في العراق / صحيفة الشرق الأوسط / الأحد

٢٨ أكتوبر ١٩٩٠م / ص ٨

٣- ص ٨

٤- ص ١٠

٥- ص ١١

٦- ص ١٢

واللام . سواء كان في التمييز ألف ولام أم لا . وأما الكوفيون فإنهم يجوزون الحالة الأولى ولا يجوزون الثانية (١) أي أن ابن جبر . حتى على منهج أهل الكوفة . وهو المنهج الواسع الصدر . قد كسر القاعدة في حالة إبقاء " ال " في الميم المضاف إلى تمييز غير محلي بالألف واللام

بعد أننى منذ أكثر من عشرين عاما وأنا أعتقد صحة هذا التركيب الأخير . بناء على ماقرأ (فيما أذكر) في حلقة من الحلقات اللغوية والأدبية التي كان يحضرها الأستاذ شوقي أمين في مجلة " الهلال " المصرية تحت عنوان " سلطة أدبية " . إذ بعد أن عرض القاعدة التي تحل التركيب الذي نحن بصدده سي فأورد عددا من النصوص القديمة تتضمن هذا التركيب ورأى في مثل هذه الأمور أنه مادام هالك شواهد على استعمال لغوى ما في نصوص التراث . حتى لا خاف بعد عصور الاحتجاج . فإن هذا الاستعمال حائز برغم ألف القاعدة وعلى هذا الأساس يكون ابن جبر مصيبا

ويتصل بما نحن فيه هذا التركيب الذي تكرر عند ابن جبر :

" ستة نحو الخمس وعشرين سنة " (٢)

١- يرى المصريون أنه لا يصح دخول (ال) على المضاف إلا إذا كان علما في المضاف إليه . وفي هذه الحالة لا بد أن يكون المضاف مسمى أو جمع مذكر سالما . أو توحد " ال " في المضاف إليه . أو في اسم أضيف إليه المضاف إليه . أو يكون الاسم الذي أضيف إليه المضاف إليه ضميرا . مثال ذلك على الترتيب

أ- وما لكلام الناس فيما يرينى

أمول ولا لفقائيه أمول

ب- الأكل الطعام ج- المردد شائعات الأعداء د- الرابط رأسه

أما الكوفيون فيجوزون حالة خامسة وهي حالة العند المحلي . " ال " المضاف إلى ميم محلي هو أيضا بـ " ال " . كقول ابن جبر : " فإن الأربعة الأئمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين " / الرحلة / ص ٧٨-٧٩ . ويمكن الرجوع في هذه المسألة إلى عباس حسن / النحو الوافى / دار المعارف بمصر / ط ٤ / ٢ / ص ١٢-١٤ .

٢- ص ٢٠٢

" لستفتح من بلاد الروم نحو الخمسة وعشرين بلدا " (١)

" وقد كنائة الستة وعشرين يوما المذكورة - نرجم الظنون " (٢) .

ووجه الغرابة فيه أن يعمل الكاتب رقم الأحاد معاملة تختلف عن معاملته لرقم العقود . إذ عرف الأول ونكر الأخير . والمفروض أن يعطلا معاملة واحدة . ويبدو أنه علم جزأى العدد بصفتها كتلة واحدة . فأدخل عليهما (ال) مرة واحدة في أولهما . كما يفعل الإنسان عند تعامله مع الاسم الواحد

وليس معنسى هذا أن ذلك مطرد عنده . فقد أدخل (ال) على جزأى العدد كليهما في قوله : " ويهبط إليه على أذراع عندهما نحو الخمسة والعشرين درجا " (٣) .

ومن التراكيب الجبرية التي لفتت نظري بتكررها هذه الجملة الاستفهامية التي تبدأ بـ " كيف ؟ " أو " ملئتك بـ ؟ " ويقصد بها الاستفهام عن أمر أشد من أمر سبق ذكره . استفهاما يقصد به التأكيد على أن الأمر الثاني أحق من الأمر الأول وهذه هي الشواهد :

" وقد نهى الله عن التجسس . فكيف عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه من حال لا يريد صاحبها أن يطلع عليها ؟ " (٤) .

" والله قسدا أوجد الرخصة فيه (في عدم الحج) على غير هذه الحال . فكيف وبيت الله الآن بأيدي أقوام قد اتخذوه معيشة حرام وجعلوه سببا إلى استلاب الأموال واستحقاقها من غير حل ومصادرة الحجاج عليها وضرب الذلة والمسكنة عليهم ؟ " (٥) .

" بكر الشيعيون إلى غسله (أي البيت الحرام) بماء زمزم المبارك بسبب أن كثيرا من

١- ص ٢٠٢

٢- ص ٢٨٨

٣- ص ١٧٦

٤- ص ٢٥

٥- ص ٥٥

النساء أدخلن لبنهن الصغار والرضع منهم - فعند انسياب الماء عنه كان كثير من الرجال والنساء يلبسون إليه تبركا بفضل أوجههم وأيديهم فيه ، وربما جمعوا منه في ألوان قد أعيدوا لذلك ولم يراعوا العلة التي عُمل لها . وكان منهم من توقف عن ذلك ، وربما لحظ الحال لحظة من لا يستجيزها ولا يصوب العقل في ذلك . وما ظنك بماء زمزم المبارك قد صب داخل البيت الحرام وماج في جنباته الكرمل ، ثم نصب يلزاه الملتزم والركن الأسود المستلم ؟ أليس جنيرا بأن تلقاه الأفواه فضلا عن الأيدي وتغمس فيه الوجوه فضلا عن الأقدام ؟ (١)

" لو أن أحدهم يشهد برؤيته الشمس تحت ذلك الغيم الكثيف النسيج لما قبله ، فكيف برؤية هلال هو ابن تسع وعشرين ليلة ؟ " (٢)

" وفي عشي ذلك اليوم المبارك كان وداعنا للروضة المباركة والتربة المقدسة . فياله وداعا عجا ذملت له النفوس ارتياحا حتى طارت شعاعا وماظنك بسوقف ينجى بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين ، وخاتم النبيين ، رسول رب العالمين ؟ إنه لموقف تنفطر له الأفئدة ، وتطيش به الألباب الثابتة المتدة ؟ " (٣)

" فلما نفحتنا نوافح هوائها (قرية زريقان على دجلة) . أحسنا مسن نفوسنا ، على حال وحشة الاغتراب ، دواعي من الإطراب ، واستشعرنا بواعث فرح كأنه فرحة الغياب بالإياب . هذا الغريب النازح للوطن ، فيكف للوافد فيها على أهل وسكن ؟ " (٤)

" وماظنك ببلد حصن الأكراد منه على أليال يسيرة . وهو معقل العدو ، فهو منه تتراءى ناره ويحترق إذ يطير شراره ، ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاره ؟ " (٥)

" ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به بعض المتطهين من المسلمين (للعبادة) جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم . وإذا كانت معاملة النصارى لصدقاتهم هذه المعاملة فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض ؟ " (١)

" وبهذا الموضع نزل كثير من البلغرين (أي حجاج بيت المقدس النصارى من الأوربيين) فائرس بأنفسهم لمسغبة مست أهل المركب لعلم الزاد ونفاده وحسبك أنا كنا نقصر على مقدار رطل من الخمر اليلس نقسمه بين أربعة منا نبله يسير من الماء فتبلغ به . وكل من نزل من البلغرين باع فضلة زاده ، فترفق المسلمون بلبتياع ما لمكن منه على غلائه وانتهى إلى مقدار خزة بدرهم من الحالص . فماظنك بمدة شهرين على ظهر البحر في مسافة ظن الناس أنهم يقطعونها في عشرة أيام أو خمسة عشر يوما ؟ فالحازم من أدخل زاد ثلاثين يوما ، وسائر الناس لعشرين يوما ولخمس عشرة يوما " (٢)

وما تكرر من التراكيب اللغوية عند ابن جبر قوله : " وكفى بـ / " تعجبا وإعجابا :

" ومن مشاهدنا (مشاهد مكة) الكريمة أيضا دلو الخيزران وهي الدار التي كان النبي ، صلى الله عليه وسلم ، يعبد الله فيها سرا مع الطائفة الكريمة المبادرة للإسلام من أصحابه ، رضى الله عنهم ، حتى نشر الله الإسلام منها على يد الفاروق عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه . وكفى بهذه الفضيلة ! " (٣)

" وهو (أي مسجد الخيف بمنى) من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة وكفى ماورد في الأثر الكريم من أن بقعته الطاهرة منفي كثير من الأتباء ، صلوات الله عليهم ! " (٤)

" ومن أسباب خرابها (أي مدينة الكوفة) قبيلة خفاجة المجاورة لها ، فهي لاتزال تضر بها .

١- ص ٢٥٩-٢٦٠

٢- ص ٢٩٢

٣- ص ٩٢

٤- ص ١٣٧

١- ص ١١٦-١١٧

٢- ص ١٤٦

٣- ص ١٨٠

٤- ص ١٩٢

٥- ص ٢٣٢

ومما لا أذكر أنى وجدته بهذه الكثرة الهائلة عند غير ابن جبير من التراكيب اللغوية شغفه الشديد بفك المضاف إليه عن المضاف وتحويله إلى وصف تنسبى للمضاف ، أو استبدال هذا الوصف التنبى المكون من كلمة واحدة (هى الاسم الملحقة به ياء النسب) بوصف مكون من عدد من الكلمات وهو ما يدل على استيلاء باب النسب على ذهنه وقلمه ، حتى إنه لينسب إلى كلمات يقع النسب إليها فى الأذن موقعا غربيا وعلى أية حال فهذه بعض الشواهد على هذا الاستعمال :

" النية الحجازية " (١) ، أى نية السفر إلى الحج لأداء فريضة الحج : " الصروح الخومية " (٢) ، أى الأبنية المتخذة من الخوص " المرافق المسكنية " (٣) (بدلا من " السكنية ") . " الجلسة الخطبية " (٤) . " والفرقة الخطبية " (٥) ، بدلا من " جلسة الخطيب " و " فرقة (أى سوط) الخطيب " " ميعات طلمية " (٦) " تصاوير فاكية " (٧) (أى صور لفواكه مختلفة) " الوقفة العرفية " (٨) ، أى وقفه يوم عرفة فى عرفات . " قطعا جهليا " (٩) (أى جزما بالأمر على غير علم أو معرفة) " المؤذن الزمزمسى " (١٠) ، بدلا من " المؤذن القائم عند بئر زمزم " " التراويح المغامية " (١١) ، أى التى تصلح عند المقام

١- ص ١٧/

٢- ص ٥٧/

٢- ص ٥٨/

٤- ص ٧٣/

٥- ص ١٣٣/

٦- ص ٨٥/

٧- ص ٩٨/

٨- ص ١٠٦/

٩- ص ١١٨/

١٠- ص ١٢٤، ١٢٤، ١٢٥/

١١- ص ١٢٣/

وكفالك بتعاقب الأيام والليالى محيا ومفيا ١" (١) .

" ولما . الشرقية (بغداد الشرقية) فى اليوم دار الخلافة . كفاما بذلك شرفنا واحتفالا ١" (٢) .

" بلد (أى حرّان) لا حسن لديه ، ولا ظل يتوسط برديسه - قد نبذ بالعرء . ووضع فى وسط الصحراء ، فعدم رونق الحضارة ، وتعرت أعطافه من ملابس النضارة . أستغفر الله ! كفى بهذا البلد شرفا أنه البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم ، صلى الله عليه وسلم ١" (٣) .

" وسألنا أحد الأشياخ بهذه البلدة (حمص) : هل فيها مارستان ؟ فقال وقد أنكر ذلك : حمص كلها مارستان . وكفالك تبينا شهادة أهلها فيها " (٤)

" ولو لم يكن بهذه الجهات الشرقية كلها إلا مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء كفى بذلك شرفا لها " (٥)

" فقال السلطان (صلاح الدين الأيوبرى) له : ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ؟ وإنما أنا عبد الشرع وشحنه (أى شرطته) فالحق يقضى لك أو عليك ... وهذه كلمات كفى بها للسلطان فخرا ١" (٦)

" وخصب هذه الحزيرة أكثر من أن يوصف وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة وكثرة الخصب والرفاهة " (٧) .

١- ص ١٨٧/

٢- ص ٢٠٢/

٣- ص ٢٢٠/

٤- ص ٢٣٢/

٥- ص ٢٥٨/

٦- ص ٢٧١/

٧- ص ٢٩٦-٢٩٧/

"آلات اللهية" (١) ، آلات اللهو " المنزل والمسكنة النعية " (٢) ، أى مذلة أهل النعمة ومسكتهم. "ألباب نكالية" (٣) ، أى ألباب تجز النكال على صاحبها غير أن هذا هو المعنى كما يلاحظ أن ابن جيو لا يخرج من النسب إلى جمع التكسير ، فهو يقول مثلاً : "إلتذلات الحدائنية" (٤) ، نسبة إلى "حدثان" الدهر ، أى نوائبه ، و "الوظائف المكوسية" (٥) ، نسبة إلى "المكوس" ، جمع "مكس" ، و "الحاج الأنلمسى والأنلمسى" (٦) ، بالنسب إلى "الأنعام" ، و "اللفظ الملوكى النسائى" (٧) ، "المازل الرفيعة الملوكية" (٨) ، "ورحاب وأبواب وسلحات ملوكية" (٩) ، "شلاته الملوكية" (١٠) ، "مخايل ودلائل ملوكية" (١١) ، "الهمة الملوكية" (١٢) ، "الأدب الملوكى" (١٣) ، نسبة إلى "ملوك" وكل هذه الجملع لها واحد من لفظها

وهذا يذكرنا ببعض صيغ النسب الجمعية التى شاعت فى عصرنا ، فنحن جميعا نقول : "مؤتمر

"هبة إلمية وسكينة غلامية" (١) ، أى هبة إمام وسكينة الغلام. "المحارب العودى" (٢) ، أى المحارب المكون من أعود. "الجمرة العقية" (٣) ، أى جمرة العقبة. "شهاديات زورية" (٤) ، أى شهاديات الزور "كنوز قارونية" (٥) ، بدلا من "كنوز تشبه كنوز قارون" "كسوة الخليفة السوادية" (٦) ، بدلا من "السوداء" ، "المزاملير الدلودية" (٧) ، بدلا من "مزاملير دلود" ، "الحسن الحريمى" (٨) ، بدلا من "النسائى" ، "خاتون المسعودية" (٩) ، بدلا من "خاتون بنت الملك مسعود" ، "المرافق السفرية" (١٠) ، التى تكون فى السفر. "أبواب قصرية الحسن" (١١) ، أى فى حسن أبواب القصور. "المثتر الصقيصة" (١٢) ، نسبة إلى السى الملقبة. "الألفاظ المحاليلة" (١٣) ، أى المستحيلة ، بمعنى الطائفة المغالى فيها "الاعتكاف الركوعى" (١٤) .

١- ص ٢٧٨ / مرتين

٢- ص ٢٨٠ /

٣- ص ٢١٣ /

٤- ص ٢٨ /

٥- ص ٤٥ ، وإن كان قد نسب إلى المفرد فى موضع آخر فقال : "الضريبة المكسية" / ص ٢٧٤ .

٦- ص ١٨٢ /

٧- ص ١٦٤ /

٨- ص ٢٢٦ /

٩- ص ٣٠٢ /

١٠- ص ٣١١ /

١١- ص ٣١١ /

١٢- ص ٣١١ /

١٣- ص ٣١٢ /

١- ص ١٢٨ /

٢- ص ١٢٩ /

٣- ص ١٣٦ /

٤- ص ١٤٦ / مرتين .

٥- ص ١٤٩ /

٦- ص ١٥٧ /

٧- ص ١٦٠ /

٨- ص ١٩٤ /

٩- ص ٢١٢ ، ٢٠٦ /

١٠- ص ٢٢٤ /

١١- ص ٢٢٧ /

١٢- ص ٢٦٤ /

١٣- ص ٢٦٨ /

١٤- ص ٢٦٨ - ٢٦٩ /

"يزاحم (منار الإسكندرية) الجوّ سموا وارتقا" (١). "وَحَفَّ كَلَهُ بِأَمْشَالِ التَّنْفَافِيحِ
(الكُرَاتِ) ذَهَبًا" (٢). "حَيْلٌ إِلَيْنَا لِكَثْرَتِهِ أَنَّهُ يَوَازِي التَّرَابَ قِيَمَةً" (٣). "وموضع الطواف
مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسنا" (٤). "ونصب عن يمين المقام ويساره شمع كبير
الجرم في أنوار تناسبها كبرا" (٥). "تحف بجانبى طريق كأنه ميدان أيسرطاطا
وانفساحا" (٦). "تسيران بها سير النسيم سرعة ولينا" (٧). "ويطيف بهذا البيت شمع كأنه
جنوع الخل عظمًا" (٨). "وشاهدنا بها من الخافس أمان الفهم كثرة وأنسا بأملها" (٩).
"فغاية حسن القرى بشرقى الأندلس أن يكون لها مل هذا الموضع جمالا" (١٠). "ودكاكينها
وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعا وكبرا" (١١). "ولما قيساريتها فحديقة بستان
نظافة وجمالا" (١٢). "ولكن قراها علمرة متظمة لأنها على محسرت
عظيم مد البصر عرضا وطولا" (١٣). "قد حقه أعمدة كالجنوع طولا وكالأطواد

١- ص/١٥

٢- ص/١٩

٣- ص/٤٢

٤- ص/٦٢

٥- ص/١٣١

٦- ص/١٣٦

٧- ص/٢٠٦

٨- ص/٢١٢

٩- ص/٢١٧

١٠- ص/١٨

١١- ص/٢٢٣

١٢- ص/٢٢٧

١٣- ص/٢٢٨

ملاّبي" و"مطامير عمالية" ومقاس أولادي" و"حذله بنتى" و"عجالتى" و"ساعتى".
لايشذ أحد منا عن ذلك وهو مثل قول القمعة: "كسبى" و"قلانسى" و"خصرى" و"شعوبى".
وكثير من منيعى نشرات الأخبار الآن يقولون: "أزمة ذوليلة" (نسبة إلى "ذول"، لا إلى
"دولة"). وفى إحدى محاضراتى فى آداب عين شمس قلم طالب فقال من كلمة كان كتبها وأقاما
على زملائه: "العلاقات اليزارية". يقصد الزيارات، ولكنه بدلا من ذلك نسب إليها
وجعلها وصفا للعلاقات وكثير من الناس يقولون "صحفى" (نسبة إلى "صحف" لا إلى
"صحيفة"). وساعت فى عصرنا تسمّى زائوى الأضرحة والتوك بها بـ "القبورين".
ومكنا بل إن عالما فى اللغة معروفا كالمكتور عبدالمصور ساهن لا يحد حرجا فى أن ينسب إلى
قبائل "قلنلا": والعرب فى ذلك الحن كان وجودهم قبائليا" (١).

والسؤال المطروح هو: "هل النسبة إلى جمع التكسير فى مثل هذه الحالات يصح؟" إن
القاعدة الصرفية المعروفة لاتقبل هذا. لأن هذه الجموع لها واحد من لفظها وليست أعلاما. إلا
أن قوما من اللغويين يجوزون ذلك (٢). وعلى هذا فصنع ابن حير وماتقوله نحن الآن مبين
"ملاّبي" و"عمالى" إلخ له وجه.

كما تكرر فى أسلوب ابن جبر التركيب البالى. "فعل أو حرف أو اسم يدل على التشبيه +
المشبه والمشبه به + تميز" أو مايقرب من ذلك كما يتضح من الأمثلة الآتية:

- ١- عبدالمصور شامين / فى علم اللغة العام / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ٢ / ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م / ص ٢٤٧.
- ٢- لنظر شرح ابن عقيل / ج ٢ / ص ٥٠٥. وأحمد الحملوى / شذا العرف فى فن العرف / منشورات المكتبة العلمية
الجديدة / بيروت / ١٤٠-١٤١ هـ.
- ٣- لنظر الميوطى / مع الهوامع / دار المعرفة / بيروت / ج ٢ / ص ١٩٧ وقد نقله عنه محقق شرح الشافية للإسترلابدى
/ دار الكتب العلمية / بيروت / ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م / القسم الأول / ج ٢ / ص ٨١ / ١ هـ. وهناك إشارة إلى أن قوما من
الصرفيين يجوزون هذا. فى مقصورة "المجد فى اللغة" / ط ٢٨ / صفحة ٢٠.

ضخامة " (١) . " وخانات هذا الطريق كأنها القلاع لتتاعا وخضلة " (٢) . " وسونا في طريق كأنها السوق عمارة وكثرة صلار ووارد " (٣) . " لم نو مثل تربتها طيبا وكثرة واتسعا " (٤) .

ومما يبرز من التراكيب في رحلة ابن جبير تفضيله في كثير من الأحيان حذف الفاعل وبناء الفعل من ثم للمجهول على بناءه للمعلوم فمثلا بدل أن يقول : " استنزلوه واستنطقوه " ، كما تفعل عادة ، يفضل أن يقول : " استنزل واستنطق " وهذه هي الشواهد :

" استخضر جميع من كان فيه من المسلمين " (٥) (بدلا من " استخضر رجسالم الكس جميع ") " فلزموا أداء زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول أم لا . و استنزل أحمد بن حسان منا ليسأل عن أبناء المغرب وطلع المركب ، فطيف به مرقبا على السلطان . وفي كل يستفهم ثم يقيّد قوله فحلّى سبيله ولمر المسلمون بتنزيل أسابهم . فاستدعوا واحدا فواحدا وأحضر مالكل واحد من الأسباب " (٦) " ولأحد الكيبرين منها باب يضعه إليه على نحو القلعة منه أو أزيسد . وينخل منه إلى بيت كبير " (٧) " فيلقى فيها من دلاء الولد مالايحصى كثرة " (٨) . " لا يغفل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة " (٩) (بدلا من " إلا اختلسه أحد اللصوص ") " فلما حانت وفاته أوصى بأن يوضع في

ذلك التابوت المبارك يحجّ به ميتا ، فسيق إلى عرفات ووقف به على بعد وكشف عن التابوت " (١) " فلو تسومح فيها بطل السعى " (٢) " وماظنك بموقف يتلجى بالتوديع فيه سيد الأولين والآخرين ؟ " (٣) " وماظنك ببلد حصن الأكراد منه على أيمال يسيرة ، وهو معقل العدو ، فهو منه تتراءى ناره . ويخرق إذ يطير شراره . ويتعهد إذا شاء كل يوم مغاراه ؟ " (٤) . " ومنها يشرف على بسيط دمشق وغوطتها " (٥) " بدل " يشرف الإنسان السائر على " (٦) . " وهي طريق قصد ، لكنها لا تدخل إلا في الشتاء " (٧) (أي " لا يدخلها المسافرون ") . " فتبادر البحريون إليها وخط شراع الصاري الكبير . وعطل المركب من جريه ، وصيح بالبحريين . " (٨) " ومازالت الريح تعصف حتى كادت تنسف وتقصف ، فحطت الشرع عن مواربها " (٩) (بدل " فحطت البحارة الشرع ") " ولولا ذلك لانتهب جميع ما في المركب لنتهابا " (والمقصود : " انتهى أهل مدينة ") " فاستحضر عن أمر الملك الصقلي غليلم . واستنطق واستفهم " (١٠) " فعلم أن الهمة الملوكية منعت من المدخل مدخل السوق " (١١) (أي " فعلم

- ١-ص/١٠٢
- ٢-ص/١٤٦
- ٣-ص/١٨٠
- ٤-ص/٢٢٢
- ٥-ص/٢٢٢
- ٦-ص/٢٢٢
- ٧-ص/٢٨٥
- ٨-ص/٢٩١
- ٩-ص/٢٩٥
- ١٠-ص/٣١١
- ١١-ص/٣١١

- ١-ص/٢٤٢
- ٢-ص/٢٢٨
- ٣-ص/٢٠٢
- ٤-ص/٢٠٧
- ٥-ص/١٣
- ٦-ص/١٣
- ٧-ص/٢٨
- ٨-ص/٤٣
- ٩-ص/١٠٠

الملك والحاضرون - " (" فاعلمنا أنه يكتم إيمانه " (١) بدل " فاعلمنا الذين يعرفونه - ")

وابن حيو ، ككل أدباء العرب القدماء تقريبا ، أحيانا ما يلجأ إلى الترادف ، سواء أكان مدفوعا بسبب رغبته في التجميع أم لا . وإن كان الترادف عنده مع السجع أكثر :

" أبرزه لهنه الفضيلة تأحرا واحتسابا " (٢) " جعل أحكامهم إليهم ، ولم يجعل لأحد يدا عليهم " (٣) . " جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسف وعسير الإرهاق وسوء المعاملة " (٤) . " لو وردت نهرا من الأنهار لأتضبت ولتزقت " (٥) . " فمجموعها متلصب في اختلال البنية ووهنها " (٦) . " فجعلوه سببا إلى استلاب الأموال ولستحقاقها من غير حل " (٧) . " وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، ويتظوره انتظار الفرج بالصبر الذي هو عبادة " (٨) . " فبجان من كرمه وعظمه وخلد له التشريف إلى يوم القيامة " (٩) . " الأتلو السنية والمفاخر العلية " (١٠) " وهو المجازي على الضمائر وخفيات السرور " (١١) . " نزفت دمعها العيون ، واستنوفت ماعها الشؤون " (١٢) " يطول وصفه ، ويتسع القول

فيه " (١) " وصفها يطول والأخبار عنها لا تحصر " (٢) " قدرة الاتساع ، وقوة الاستطاع " (٣) . " ليس فيهم من اتسم بسمة تليق ، أو اتصف بصفة هو بها خليق " (٤) . " هذا الاسم لها أصدق الصفات ، وموضوعها به أشرف الموضوعات " (٥) . " وهي مطهرة من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفلسفة " (٦) . " معلماتهم صحيحة ، وأحوالهم مستقيمة " (٧) . " تخطب بعضهم فلا تبتعد ملاكها ، وثرام فيتيسر بأهون شيء إدراكها " (٨) . " إذا استقبلتها أبصرت منظرا رائعا ومرأى مثالا " (٩) . " لقد تسالوت الأذناب عندهم والرؤوس ، ولم يميز لديهم الرئيس والرؤوس " (١٠) . " وما زال الشيطان يستهويه ويغريه " (١١) . " وحقت عليه كلمة العذاب ، وتأمسب لسوء الحساب وسحق المآب " (١٢) . " نرتقب منه جل جلاله معهود التيسير والتسهيل " (١٣) " فيالها من ليلة يثيب لها سوء النوائب ، مذكورة في ليالي الشوائب ، مقنعة في

١-ص/١٥٤

٢-ص/١٦٥

٣-ص/١٨٤

٤-ص/٢١٦

٥-ص/٢١٧

٦-ص/٢٢٤

٧-ص/٢٢٤

٨-ص/٢٢٥

٩-ص/٢٢٧

١٠-ص/٢٦٩

١١-ص/٢٨١

١٢-ص/٢٨١

١٣-ص/٢٨٧

١-ص/٣١٣

٢-ص/٢٦

٣-ص/٢٦-٣٧

٤-ص/٢٨

٥-ص/٤٢

٦-ص/٤٧

٧-ص/٥٥

٨-ص/٥٧

٩-ص/٧٦

١٠-ص/١٠٣

١١-ص/١١٢

١٢-ص/١٣٩

الصور والمحسّنات

هذا عن التراكيب ، لما في الصور فإن ابن جبر لا يقدم لنا شيئا خاصا متميزا ، فصوره جيدة . وبالنسبة للصور التي قد نشم فيها رائحة جديدة أو شبه جديدة نراه غالبا سبق إليها .

إن في الصورة التالية مشلا شيئا من الطراوة : " كانت الطبقة العليا منها حُشبا مستطيلة روزة كلها مسليو محسنة الأطراف لاصقا بعضها ببعض كظهر الشيم (أى ذكر القنفذ) نصب بها الشمع " (١) ومع ذلك فقد سبقت هذه الصور عند ابن حزم في " طوق الحمامة " ، بل في سياق في عليها حيوية أكثر مما أضفاه سياق ابن جبر الخشبي عليها هنا يقتبسول ابن حزم : بلعدي به مصلوبا في المروج على النهر الأعظم وكأنه القنفذ من النبل " (٢) .

وبالمثل قوله عن قنم مينة من المدن : " طالت صحبتها للزمن " (٣) ، الذي يذكرنا بيت نسيب الراجح ، والمتنبى سابق :

محب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من أمره ما عناننا

وبالنسبة أيضا لقوله : " على قدم الرحلة " (٤) نرى كتب السيرة تقول إن الرسول ﷺ عندما أتاه أصحاب مسجد الضرار يرجونه أن يفتح مسجدهم بالصلاة فيه ، اعتذر بأنه " على جناح سفر " (٥) .

ومن الصور التي قد نشم فيها رائحة طازجة قوله مشيرا إلى عدم وجود أي موضع خال في

ص / ١٣٠ .

رسائل ابن حزم / تحقيق د إسماعيل عباس / ج ١ / ص ٢٨٤ .

الرحلة / ص ٢١٠ .

ص / ٢٧١ .

المقبري / إتياع الأسماع / تصحيح وشرح محمود شاکر / ج ١ / ط ٢ / نشر الشؤون الدينية بدولة قطر / ص ٤٨٠ ، ود محمد أبو شهبة / السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة / ج ٢ / مطبعة القاهرة الحديثة للطباعة / ص ٤١١ .

تعداد الحوادث والنوائب " (١) . " نعوذ بالله من عواقب الشقاوة وخوائف الضلالة " (٢) . والملاحظ أن الترادف يقل جدا في الرحلة بل ينبغي حين يصف ابن جبر شيئا وصفا موضوعيا ، إذ تشغله دقة التصوير وقياس الأطوال عن ذلك .

القلعة " (١) . " ونحن من الشوق إلى الأندلس بحال تكاد لها النفوس تقوم مقام الرياح في حث الرياح (٩) ولنزاعها " (٢) .

ويكثر فسى رحلة ابن جبير الاقتباس والتضمين . وهو أحيانا ما يقتبس العبارة أو يضمنها كما هي . وأحيانا ما يحوّر في العبارة المقتبسة أو المتضمنة . والآن أقدم الشواهد على ما أقول . مع إرجاع كل عبارة جيوية إلى أصلها من القرآن أو السنة أو الشعر أو الأقوال المتأثرة :

" وجائنا الموج من كل مكان " (٣) . وأصلها قوله تعالى : " وجاءهم الموج من كل مكان " (٤) . والسياق واحد ، وهما عن العواصف والأمواج الهائجة في عرض البحر والموت المحيط بركاب السفينة .

" فلما جنّ الليل " (٥) . " حيث جنّ علينا الليل " (٦) . " والليل قد جنّ " (٧) . وأصلها قوله تعالى : " فلما جنّ عليه الليل " (٨) .

وكما ترى لم ينقل ابن جبير عبارة القرآن كما هي . ففي بعض الحالات لم يستخدم الظرف " فلما " ، وفي بعضها الآخر لم يستخدم شبه الجملة . والسياق عند ابن جبير مختلف قليلا عنه في القرآن . فالقرآن يتحدث عن حلول الظلام على إبراهيم عليه السلام عند تفكيره في ملكوت

جدران أحد الهياكل الفرعونية : " وما فيه مغرور إشفى (أي مخز) " (١) . وقوله عن قوة تدفق الماء في إحدى الصيون إلى أعلى : " فربما يروم السباح القوى السباحة الشديد الغوص في أعماق المياه أن يصل بغوصه إلى قصره فيمجه الماء بقوة لتبعثنا من منبعه " (٢) . وقوله يصف موقفا من مواقف الخطر في البحر عندما هاجت الأمواج وثارت الأمواج : " كنا - نغزل المنون " (٣) . وقوله عن مدينة أطرابلس الصقلية إنها " في لهوات البحر لإحاطته بها من ثلاث جهات " ، وإن " البحر فاغرفاء لها من سائر الجهات " (٤) .

وهناك صورتان لاحظت تكرورهما في الرحلة : أولاها قوله حين يصف الحسن البصري ما فيه " يقيد الأبصار " : " حُفّ أعلاه كلها بأشكال التفافيح (الكرات) ذمبا في مصنع شبه الروضة يقيد الأبصار حسنا وجمالا " (٥) . " يبصر الناظر فيها - ما يقيد بصره حسنا " (٦) . " تجلّ منها منظرا توتاح النفس إليه ، وتتقيد الأبصار لديه " (٧) . " كل موضع - قيد النظر " (٨) .

والثانية حين يعبر عن اندفاع الماء أو الريح بشدة وعنّف به " الانزعاج " : " وفسى أعلاما حُصّة (حوض) رخام مثنة يخرج عليها أبواب من الماء خروج لنزعاج وشدة " (٩) . " وفسى وسط الحوض الرخلى أبواب صُفّر (نحاس) يزعج الماء بقوة فيرتفع إلى الهواة لأزيد من

- ١- ص / ٢٤٢
- ٢- ص / ٢١٧
- ٣- الرحلة / ص ٢٨٩١٢
- ٤- يونس / ٢٢
- ٥- الرحلة / ص ٢٨٩٥١٦
- ٦- ص / ٤٢
- ٧- ص / ٢٩٢
- ٨- الأندلس / ٧٦

- ١- ص / ٢٧
- ٢- ص / ٢١٨
- ٣- ص / ٢٨٨
- ٤- ص / ٢٠٨
- ٥- ص / ١٩
- ٦- ص / ٦٤
- ٧- ص / ٢٣٠
- ٨- ص / ٢٣٥
- ٩- ص / ٢١١

قوله تعالى : " وضربت عليهم الذلة والمسكنة " (١) . وواضح التغييرات اللفظية التي أحدثها
 ابن جبير في العبارة المقبسة ، فقد زاد فوصف المسكنة بـ " الذلة " في العبارة الأولى ، وبـ
 " النمة " في العبارة الأخرى ، ولاوجود لأى من الوصفين في القرآن . وهذا فضلا عن أنه ، في
 العبارة الثانية قال " المذلة " بدل " الذلة " أما من ناحية السياق ، فالآية القرآنية تحدثت
 عن اليهود ، على حين أن المقصود في عبارتي ابن جبير إنما هم المسلمون : فالعبارة الأولى
 تستخدم " الخلاق " في الأساليب العربية الحديثة بمعنى " الأخلاق " . أما عند ابن جبير
 لأدى أى معنى استخدمها فيه ، فإن السياق لايساعد على تحديد ذلك . وهذه هي عبارة ابن جبير
 كاملة ، والكلام عن قبيلة البجاة وكيف أنهم لايتزومون بتعاليم الإسلام ، ورجالهم ونسائهم
 يمشون شبه عراة ، وأكثرهم لايسترون : " وبالجملة فهم أمة لاخلاق لهم ، ولاجناح على
 لاعنهم " (٢) .
 " جعلنا الله من يدين بحب أهل البيت ، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا " (٤) . وهي
 مأخوذة من قوله تعالى : " يريد الله لينحب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا " (٥)
 وقد غير ابن جبير ، كما هو واضح ، الضمير من الخطاب إلى الغيبة ، علاوة على التقليل
 والتأخير . وكلتا العبارتين عن أهل البيت .
 " ضرب الذلة والمسكنة اللينة عليهم " (٦) " منها المذلة والمسكنة النمة " (٧) . وأصل
 المقول من لسم علم إلى ضمير ، كما هو ظاهر للعيان وهو في الحالتين الله عز وجل .
 " يقلب كفيه ويضرب أصدره " (٦) وهى من قول رب العزة عن صاحب الجنة المحترقة :
 " فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها " (٧) وقد زاد ابن جبير جملة : " ويضرب أصدره " . ثم إن
 أصل السياقين مختلفان : فصاحب الجنة يقلب كفيه على ما أنفق على جنته هدرا ، أما مقلب كفيه فى

١- البقرة / ٦١.

٢- من / ٥٧.

٣- هود / ٤٦.

٤- الرحلة / من ١٠٥.

٥- البقرة / ٢٤٥.

٦- من / ١٠٥.

٧- الكهف / ٤٢.

١- الرحلة / من ٤٩.

٢- آل عمران / ٧٧.

٣- الرحلة / من ٤٩.

٤- من / ٥٢.

٥- الأحزاب / ٢٣.

٦- من / ٥٥.

٧- من / ٢٨٠.

القوة " (١) . والفرق هو أن جملة ابن جبير فعلية غير مؤكدة ، على حين جملة القرآن اسمية مؤكدة بـ " إن " و " اللام " ثم إن العصبية قد وصفت في القرآن بـ " أولى القوة " . أما ابن جبير فقد اكتفى بها من غير وصف . وحسنا فعل ، فإن الجمل هنا شمعة ، أما هناك فمفاتيح خزائن قارون . ومفاتيح تلك الأيام لابد أن تكون من الضخمة بمكان .

" نضجت جلودهم طبخا " (٢) . وذلك في الكلام عن الزحام الذي كان على النساء أن يخضنه لأدله المناسك . وهو من قوله تعالى ، ولكن عن فريق من أهل النار : " كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غير ما لينوقوا العذاب " (٣) . وقد تغير الضمير من المذكر إلى المؤنث ، وزيد في العبارة الجبرية كلمة " طبخا " ، وفيها نكهة فكاهية فيما أحسن .

" منبوذة بعرائها " (٤) وهي مأخوذة من قوله عز من قائل عن يونس عليه السلام بعد خروجه من بطن الحوت : " فنبهناه بالعراء " (٥) وقد استعمل ابن جبير اسم المفعول بدلا من الفعل ، وأضاف العراء إلى ضمير المفعول ثم إن الضمير في القرآن مذكر وفي الرحلة مؤنث ، لأن الكلام فيها عن إحدى القلاع .

وعلى هذا قس العبارات التالية : " كأن لسم تفنن بالأمس " (٦) . " لوكن برجلك " (٧) " قنطير مقطسورة " (٨) " زين له سوء عمله فراه "

١- النص / ٧٦

٢- الرحلة / ص ١٥٩

٣- النساء / ٥٦

٤- الرحلة / ص ٢٢٤

٥- الملقات / ١٤٥

٦- الرحلة / ص ٢٢٨

٧- ص / ٢٢٤

٨- ص / ٢٦٦

نص ابن جبير فهو أمير مكة ، وهو لم ينفق شيئا ههنا ، بل الذي أنفق هو أحد أغنياء العجم الذي عثر بشو زمزم وأصلحها . وكان قد وعد الأمير بأنه إذا تركه يقوم بهذه الإصلاحات فسيطيه . مثل تكلفتها . وذلك لكي يتركه الأمير يقوم بالإصلاح والترميم المطلوب ولكنه بعد أن تم الترميمات اختفى عن الأنظار كله لم يكن له وجود ، فأصبح الأمير يقلب كفيه ويضرب صدره أي عرقه اللين تحت صغفه " وضرب الصدرين " معناه الفراغ .

" مؤتى الملك من يشاء ونازع الملك عن يشاء " (١) . وهي من قوله تعالى : " تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء " (٢) . بعد استبدال لسمى الفاعل بالفعلين ، واستبدال ضمير العائب بالمخاطب أما في صفحة ٢٠٧ فقد استخيم الفعل ولكن مسندا إلى الغائب " يؤتى الملك من يشاء "

" وقد حشش الناس ضحى " (٣) . وذلك في أثناء وصفه لطواف أحد الأمراء الأيوبيين وشعبه وهو من قوله عز من قائل عن الموعد الذي أنفق عليه بين موسى عليه السلام وسحرة فرعون . وهو يوم الزينة : " قال : موعدكم يوم الزينة وأن يحشش الناس ضحى " (٤) . والتفسير منحصر في استبدال المضارع بالماضي مع زيادة " قد "

" فرحين بما آتاهم الله من فضله " (٥) . وهي مأخوذة بنصها من القرآن الكريم (٦) .

" تنوء الشمعة منه بالعصبة " (٧) . من قوله سبحانه : " إن مفتاحه لتنوء بالعصبة أولى "

١- الرحلة / ص ١٢٥

٢- آل عمران / ٢٦

٣- الرحلة / ص ١٢٥

٤- طه / ٥٩

٥- الرحلة / ص ١٣٥

٦- آل عمران / ١٧٠

٧- الرحلة / ص ١٥٥

حسنا" (١) "الجواري المنشآت في البحر كالأعلام" (٢). "حققت عليه كلمة العذاب" (٣).
 "ولعذاب الآخرة أشد وأبقى" (٤) "تجبي الثمرات إليهما" (٥) "والبحر وهو" (٦). "صرح
 مرود من قوارير" (٦). "لكل أجل كتاب وميقات" (٧) "حتى جاء نصر الله والفتح" (٨). "أهل
 التقوى وأهل المغفرة" (٩). "نشرا بين يدي رحته" (١٠). ومعظمها منقول بنفسه من القرآن
 الكريم

ومن الحديث النبوي الكريم يمكن أن نرصد العبارتين التاليتين: "السفر قطعة من
 العذاب" (١١)، "وفي جوف الفراء كل الصيد" (١٢). والأولى أخذت من الحديث كما هي، أما
 الثانية فأصلها: "كل الصيد في جوف الفراء"، بيد أن ابن جبير قد قدم وأخر مراعاة للسجع.
 وقد صارت مثلا يضرب للرجل الذي يتفوق على غيره من الناس ويسبب مستهم، ولا يستغفره مكانة.
 أما العبارات الآتية فمن الأمثال العربية القديمة والتعابير الشائعة المشهورة:

١- ص/٢٦٩.

٢- ص/٢٧٦.

٣- ص/٢٨١.

٤- ص/٢٨٢.

٥- ص/٢٨٣.

٦- ص/٢٨٥.

٧- ص/٢٨٦.

٨- ص/٢٩١.

٩- ص/٢٩٤.

١٠- ص/٣٠٧.

١١- ص/٣١٩.

١٢- ص/١٥٥.

١٣- ص/١٩٦.

"فيا لها ليلة كلنت في الحسن بيضة العقر" (١) "وبيضة العقر" مثل للشئ لا يكون له مثل
 أو يعادل مرة واحدة ثم لا يكرر. وقيل في تفسيرها إنها "بيضة النيك"، على زعم أن النيك
 بيض، ولكنها بيضة واحدة ليس غير (٢). كما قيل إنها أول بيضة تبيضها الدجاجة فتعقروها.
 وقيل غير ذلك (٣).

"شنشة أعرفها من أخزم" (٤). وذلك أن أحفادا قد اعتدوا على جدهم، وكان أبوه قد مات،
 وكان عاقبا لأبيه كثير الإيداء له. وكان اسمه أخزم، فقال الحد هذه العبارة التي هي الشطوة
 الثانية من البيت التالي:

إن بنى ضرجوني بالسدم شنشة أعرفها من أخزم (٥).

"يدعو إليها (إلى داره) كل يوم الجفلى من الغرباء" (٦). وهي مأخوذة من قولهم: "دعا
 الجفلى"، أي دعا الناس إلى الطعام دعوة عامة ولم يخص بها فريقا دون فريق وعكسها: "دعا
 النقرى"، أي دعوة خاصة.

"فيصمهم شعا وريّا" (٧). وهي مأخوذة من البيت الذي أصبح شطوه الثاني مثلا يضرب
 للقناعة والرضا بالقليل

فتملا بيتنا أقطا وسننا وحسبك من غنى شبع وري

١- الرحلة / ص ٥٨.

٢- من الطريف أن زميلا لي يابانيا، وكنا في الجلطة معا في النصف الثاني من الستينات، رأى عبارة
 "بيضة النيك"، فظن أن النيك بيض فعلا. وعينا حاولت أن أنبهه أنه مثل قائم على زعم.

٣- انظر "تاج المروس" / مادة "عقر".

٤- الرحلة / ص ٢٢٠.

٥- انظر المثل وشرحه في "تاج المروس" للزبيدي / مادة "خرم" / و "المنجد" / ط ٢٨ / ص ٩٩٥.

٦- الرحلة / ص ١٠٤.

٧- الرحلة / ص ١٠٤.

وإن كان ابن حير قد قصد أنه أكرمهم غاية الإكرام ، فأشبههم وأرواهم ، وقلموا من لئنه راضين مرضيين .

" ولما نشره فيصدع بمحسر اليان ، ويعطل المثل بنفس وسحبان " (١) والإشارة إلى قولهم في الأمثال القنينة : " أخطب من سحبان وائل " ، وهو رجل من باهلة اشتهر بفصاحته في الخطابة ونظم الشعر (٢) . وقد سبق أن أفسر ابن حير إلى هذا المثل قبلا ، وذلك في قوله : " فإن كل مخبر عنه ، لو كان قسايانا أو سخانا ، يقف موقف المحز والتقصير " (٣)

" وقد حيل بني القنر والتروان " (٤) ، ومعناه : لأمل في المحاولة ، فقد سلت المسالك . وهو الشطرة الثانية من بيت صخر بن عمرو أخى الخنساء المشهور برثائها لياه :

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه ————— وقد حيل بين الحير والنزوان (٥) .

و" القنر " هو " الحمار (الوحشى) " ، و" التروان " : " الوثوب "

" تسلاوا عن الغنيمة بإيابهم " (٦) . وهو مأخوذ من قول الشاعر :

وقد طوّفت بالآفاق حنسى ————— رضيت من الغنيمة بالإياب

ومعناه أن الذى كان يطمع فى إحراز الغنيمة قد انتهى به الحال إلى أن يكتفى بمجرد الرجوع إلى بيته سالما (٧) . ويلاحظ أن ابن حير قد أحرى فى عبارة الشاعر عدة تغييرات ، فـ " رضيت " أصبحت " تسلاوا " ، و" من " صارت " عن " و " بالإياب " أضيفت إلى ضمير الذين تسلاوا .

١ - الرحلة / من ١٩٧ .

٢ - انظر هذا المثل فى " تاج العروس " / مادة " سحب " ، و " المنجد " / من ٩٨٤ .

٣ - الرحلة / من ٢٨ .

٤ - الرحلة / من ٣٩٤ .

٥ - انظر البيت فى " تاج العروس " / مادة " نزا " .

٦ - الرحلة / من ٢٩٥ .

٧ - انظر المثل فى " المنجد " / من ٩٨٩ .

" قد نصحت إن ألفت سلما ، وناديت إن ألفت مجيا " (١) . وهذه العبارة الجيورية تنظر إلى قول الشاعر وقد أصبح مثلا يضرب لمن يوعظ فلا ينعظ :

لقد ألفت لو ناديت حيا ————— ولكن لاحياة لمن تتلدى

" ومازلنا منذ ركبنا البحر نتسم هذا الأفق الشرقى شوقا إلى ريحه فلا يهب منه نسيم حتى خلاه لعمري عنقا مغربا " (٢) والمقصود ، كما هو بين ظاهر ، الشيء المستحيل العثور عليه ، لأنه لا وجود له . وهو مأخوذ من قولهم " عنقاء مغرب " ، وبعضهم يقول : " العنقاء المغربية " ، بالتأنيث . وقيل فى شرح معانيها طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم لا يرى إلا فى الدهور ، ثم كثر ذلك حتى سموا الداهية " عنقاء مغربا " وبهذا المعنى الأخير وردت فى قول الشاعر :

ولولا سليمان الخليفة حآقت ————— به من يد الحجاج عنقاء مغرب

أى كان الحجاج سيفتك به فتكا لولا سليمان عبد الملك ، الذى حماه وأنتقنه . وفى الحديث : " طارت به العنقاء المغرب " ، أى ذهبت به الداهية

فابن حير إذن قصد المعنى الأصلي ، لا المعنى الذى تطورت إليه العبارة فى الاستعمال (٣) كذلك أحيانا ما يستشهد ابن حير بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ————— لتشهدا لا اقتباسا (٤) ، وبآيات الشعر وأشطره (٥)

ويشيع السجع فى رحلة ابن حير ، ولكنه لا يفتطها كلها إنها خليط من الأسلوب المتوسل والمسجوع .

١ - الرحلة / ٢٥٨ .

٢ - الرحلة / من ٢١٨-٢١٩ .

٣ - انظر شرح هذه العبارة فى " تاج العروس " / مادة " غرب " و " عنق " .

٤ - انظر مثلا من ٢١٢-٢١٣-٢١٤-٢١٥-٢١٦-٢١٧-٢١٨-٢١٩-٢٢٠-٢٢١-٢٢٢-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦-٢٢٧ من الرحلة

٥ - انظر مثلا من ٢٨٨-٢٨٩-٢٩٠-٢٩١-٢٩٢-٢٩٣-٢٩٤-٢٩٥-٢٩٦-٢٩٧-٢٩٨-٢٩٩ من الرحلة .

وقد لاحظت أنه يلجأ إلى السجع في مواطن الانفعال ، سواء أكان هذا الانفعال وجدا دينيا أو إعجابا أو خوفا أو سخرية ، على قلة السخرية عنده ، وكذلك في المواضع التي يصف فيها المدن والعمائر الفخمة والمساجد ، وما إلى ذلك .

والملاحظ أن السجع قليل في أوائل الكتاب ، ثم يكثر كلما أوغلنا فيه حتى ليغطي الصفحة كلها أو أكثر . ليعود في أواخر الكتاب قبل ثمانية ومع ذلك نفاجا في الأواخر بصفحة كلمة أو شبه كلمة مسجوعة ، ولكن هذا قليل بالنسبة إلى أواسط الكتاب .

وبوجه عام ، فالسجع في الرحلة يندر أو ينعدم في المواضع التي يتوقف فيها ابن جبير ليعطينا أطوال مسجد ما أو نمط عمارته وما إلى هذا

أما طريقته في السجع فإنها تتراوح بين إبراده فاصلتين فاصلتين وإبراده ثلاثا ثلاثا أو أكثر . وأحيانا يأتي بسجعة واحدة في وسط مساحة من الأسلوب المترسل ، وأحيانا يزيد عن سجعة ، وقد تصل هذه الزيادة إلى أن يجعل الصفحة كلها مسجوعة . كما قد يكون السجع بين لفظتين متعاقبتين أو بين نهايتي جملتين أو أكثر ، أو بين جزأى الجملة الواحدة .

وبسبب السجع نراه يضطر أحيانا إلى التقليم والتأخير أو إبراد جملة اعتراضية ، ولكن سجعه غير متكلف ، فضلا عن أن تواضعه وسماحة نفسه ورغبته في إشراك القارئ معه فيما يشاهد ويسمع ويستمتع به أو يفعل به بوجه عام ، كل ذلك يضاف على أسلوبه جوا طيعيا يفتقر إليه كثير من أساليب السجّاعين العرب .

وماك أمثلة على ذلك : " فأقمنا بين هواء ينيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن لشتهاء الطعام " (١) . " والله ولي الخيرة في جميع ما يقضيه ويسنيه " (٢) . " فراكب هذا السيل راكب

خطر ومعتسف غرور " (١) . " إنه على ما يشاء قدير ، وهو نعم المولى ونعم النصير " (٢) . " واليد قد ألقى على البسيطة شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، والأصوات تصك الأذان بالتلبية من كل مكان ، والألسنة تضح بالدعاء وتبتهل بالشاء ، فتارة تشتد بالتلبية ، وآونة تنزوع بالأدعية . قالها ليلة كانت في الحسن بيضة العقر ، فهي عروس ليالى العمر ، وبكر بنات الدهر " (٣) . " والله يجعل فيه رزقا لمن تشوق ببلدته الحرام ، وتمنى هذه المشاهد العظام ، والمنسك الكرام " (٤) . " فسارت بجمل ذكر هذا الرجل الرفاق ، ومُلت ثناء عليه الفساق " . " فبقيت آثاره مخلّة ، وأخباره بالسنة الذكر مجتدة ، وقضى حميدا سعيدا " (٥) . " وهى في هذا العلم أحفل جمعا ، وأكثر شعا " (٦) . " ورأى أن ذلك أفضل ما يُختتم ، وأشرف عمل يلتزم . وبكل مكان يوجد الركن الكريم والملتزم " (٨) . " فكانت الليلة الغراء ، والختم الزهراء ، والهيئة الموفورة الكلاء ، والحالة التي تمكن عند الله تعالى في القبول والرجاء " (٩) . " أطلقت عليه أيدى الانتهاج ، ولم يكن في الجماعة من يُستَحْي منه أو يُهاب ، وعند الله تعالى الجزاء والثواب . إنه سبحانه الكريم الوهاب . وانتهت ليالى الشهر ذاهبة عنا بسلام . جعلنا الله من طهر فيها من الآثام ، ولا أخلانا من فضل القبول ببركة صومه فسسى جوار الكعبة البيت الحرام . وختم الله لنا ولجميع أهل الملة الحنفية بالوفاء على

١- ص ٥٥

٢- ص ٥٥

٣- ص ٥٨

٤- ص ٩٩

٥- ص ١٠٤

٦- ص ١٠٥

٧- ص ١٢٢

٨- ص ١٢٢

٩- ص ١٣٠

الإسلام . وأوزعنا حمدا يحق هذه النعمة وشكرا . وجعلها للمعاد لنا ذخرا . ووقنا عليها ثوابا من لديه وأحرا . إنه لا يضيع لديه أيام لأخذ لصيها ماء زمزم فطروا . إنه الحنان المنان . لارب مواء " (١) . " فهي مدرسة ومأسسة " (٢)

أما الصفحات المسجوعة بأكملها فتجد أمثلة منها في الصفحات رقم ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٩ - ٢٠٠ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩

وهناك بعض الكلمات لاحظت أنه يكرر السجع بينها ، وعلى رأسها كلمتا " السموع والخشوع " : " ينظرون بعيون دولاع ، وقلوب خواشع " (٣) .

" وسكنت من هول تلك المعانيه المدامع . وذابت القلوب الخواشع " (٤)

" ونفوسهم قد استطارت خشوعا ، وأعينهم قد سالت دموعا " (٥)

" فمما روى يوم أكثر مدامع . ولاقلوبا خواشع " (٦)

" حتى أطارتها خشوعا ، وفجرتها دموعا " (٧)

وبعد ، فسجع ابن جبير سجع مقبول إذ لا تعمل فيه . ولايجرى على نظام صارم . فهو تارة بين كلمتين متجاورتين أو متقاربتين في الحملة . وتارة بين جملتين ، وتارة بين أكثر من ذلك . وتارة يلتزم السجع في فقرة بأكملها أو عدة فقرات . وتارة ينسأه تملأ . وفي كل الحالات ، فإن سجعه لا يربك نظام الحملة . وهو لا يخلطه بالجناس المتعمر ، فإن جناسه . كما سيتضح من

١- ص/ ١٣٣

٢- ص/ ٢١٦

٣- ص/ ٩٥

٤- ص/ ١٠٨

٥- ص/ ١٣٢

٦- ص/ ١٥٢

٧- ص/ ١٩٥

الأمثلة بعد قليل . جناس سهل أقرب إلى العفو منه إلى التقصيد به التكلف :

وهناك إلى جانب السجع في أسلوب ابن جبير الجناس والطباق . ولكنها ليس لهما شيوع السجع وهذه بعض الشواهد على هذا وذاك . وسوف ترى من خلالها أن جناس ابن جبير وطباقه يتميزان بالبساطة ويقتربان من العفوية

" فيتناول باليُم العذاب بعيداب . فكأنت كاسها مفتوحة العين " (١) . وهذا أمر يقع القطع على أن صلاح الدين لا يعرفه ولو عرفه لأمر بقطعه كما أمر بقطع ما هو أعظم منه " (٢) . " شهر العج والنج " (٣) " فيقوم عحلا وجلا " (٤) " مع طلاقة وبشر . وكرم لقاء وبر " (٥) " زفرة فذرة " (٦) " فخلاتهم أسحج . ومنالهم أوسع وأفسح " (٧) . " فيالها بشرى ومسرة . لو لم تعد حسرة في كرة " (٨) . " ومازالت تعصف . حتى كالت تنسف وتصف " (٩) .

" متفردتين بين الرجاء واليأس " (١٠) " مقدار ثلاثمائة أليس سال علوا وسفلا " (١١) " فركب الحجاج الصادرة والواردة " (١٢) " لكنهم ببلنة لارطب فيها

١- ص/ ٢١

٢- ص/ ٢٨

٣- ص/ ١٤٧

٤- ص/ ١٩٠

٥- ص/ ٢٢٢

٦- ص/ ٢٧٦

٧- ص/ ٢٧٧

٨- ص/ ٢٩١

٩- ص/ ٢٩١

١٠- ص/ ١١

١١- ص/ ٣٠

١٢- ص/ ٤٥

الفكاهة والوصف

والإحماض في رحلة ابن جبير قليل، وهو لا يقربه إلا مكروها وعلى استحياء. وهذا راجع إلى طبيعة شخصيته، فهو شديد التدين والتحرج، حتى إنه حين تساق عرضاً إلى الحديث عن لعب الشطرنج في أثناء السفر لم يدع الأمر يمر هكذا، بل أشار إلى الحكم الفقهي لهذا اللون من التسلية، وبين أن بعض المسلمين يجوزونه وبعضهم يحرمونه. قال عن نوع من الهولاج يجلس فيه لثنان متقابلين كل منهما في ناحية من الجمل وتسمى "الشقادف" : " فيكون الراكب فيها مع عذيله في كن من لفح الهاجرة ويقعد مستريحاً في وطائه ومتكئاً، ويتناول مع عذيله ما يحتاج إليه من زاد وسواه، ويطلع متى شاء المطالعة في صحف أو كتاب. ومن يشاء ممن يستجيز اللعب بالشطرنج أن يلاعب عذيله تفكها وإجماعاً للنفس لأغبه " (١).

ومن هنا فالفكاهة عنده قليلة، وهي لاتعدو أن تكون دعاية طائفة. أما الجنس فهو معدوم. إنه مثلاً ليس كأسلمة بن مقفد، الذي يسخر ويتهم ويصمى بسخريته وتهكمه، والذي لا يتحرج أن يطرق الموضوعات الجنسية ويحكى حكاياتها وليس كلن فضلان، وكان فقيها مرسلًا في مهمة سفارية بين الخليفة العباسي وملك البلغار، ومع ذلك لم يترك شيئاً رآه إلا وسجله، حتى المرأة التي كانت جالسة معهم برفقة زوجها، ثم بغتة كشفت عن... وحكته أمام الجميع، وماعلق به على ذلك زوجها، الذي لم ير أية غضاة فيما فعلت لمرأته.

لما ابن جبير فإنه يحاسب نفسه حساباً شديداً لقد رأى مثلاً في صور، وكانت تحت يد الصليبيين آنذاك، غزوا صليبا قومفه، ووصف العروس، وكان وصفه لها على النحو التالي : " خرجت تهادى بين رجلين يمسكها من يمين وشمال - وهي في أبهى زى وأفخر لباس تسحب أذيال الحرير المنصب - وعلى رأسها عصبة، وهي راقلة في حليها وحللها، تمشي

ولا يلبس " (١). " يائسين من فلاح الدنيا، متحققين لأشراط الآخرة والله الأمر من قبل ومن بعد " (٢). " وسيرة هذا الأمير بالرفق بالحاج والاحتياط عليهم والاحتراش لمقنمتهم وساقتهم، وضم نشر ميمنتهم وميسرتهم سيرة محمودة " (٣). " وكل منهم بقدر من سكرته ماصحاً " (٤). " فالناس ليلاً ونهاراً من تملدى العبور فيها في نزوة متملة رجالاً ونساءً " (٥). " فلاتخلو القسراءة منه صباحاً ولا مساءً " (٦). " ولم يميز لديهم الرئيس والمرؤوس " (٧). " فحرس الله هذه البقعة من رجس الكفرة ببركة هذا القبر المقدس " (٨). " فلقمنا بها نضرب البحر طولاً وعرضاً " (٩).

١-ص/٤٦

٢-ص/٨٠

٣-ص/١٩١

٤-ص/٢٠٠

٥-ص/٢٠١

٦-ص/٢٤٤

٧-ص/٢٦٩

٨-ص/٢٧٦

٩-ص/٢١٩

فترا في فتر مشى الحملة أو سير الغلمة " (١) . ومع أنه وصف بوىء لافحش فيه ولا عوى ولا يستثير الشهوة ولا يخرج عن حدود الاحتمال فإنه سرعان ما يقب قائلًا : " نعوذ بالله من فتنة المناظر " . ولا يكفي بذلك ، بل يعود بعد سطور فيقول : " فاذلنا الاتفاق (أى المصادقة) إلى رؤية هذا المنظر الزخرفى المستعذ بالله من الفتنة فيه " (٢) . كما أنه بعد أن وصف ملابس نساء صقلية ، وهى نفسها (كما يقول) زى نساء المسلمين ، وذكر أنهن يلبسن الحرير المنصب ويتقبسن بالنقب الملونة ، ويتعلن الأخفاف المنمبة ويتخضبن ويتطرون كما تفعل المسلمات ، واستشهد بقول الأخطل :

إن من يدخل الكنيسة يوما
يلسق فيها جافرا وظبا

سرعان ما يثور ضميره الورع قائلًا : " ونعوذ بالله من وصف يدخل مدخل اللغو ، ويؤدى إلى أباطيل اللهو ، ونعوذ به من تقييد يؤدى إلى تفيد . إنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة " (٣) .

لا أمل إذن أن يتطرق ابن جبير إلى أية موضوعات خارجة لما الفكاهة فليسس إلا الدعاية الخفيفة بين الحين والحين البعيد

ومن ذلك مثلا تصويره فزع من ينام من الحجاج فى الطريق أن يكون الطبل المؤذن بالرحيل قد دق : " وربما كان النائم منهم يهذى بقر الكؤوس (الطبل) فيقوم عجلا وجلا ، ثم يتحقق أنها من أصفاء أحلامه فيعود إلى منامه " (٤) .

لما التهمك عنده فهو مجرد لمسة خفيفة إنه يتهمك مثلا بعقيدة الشيعة فى اشتقاق حجر بأحد المساجد قرب دمشق . فانظر ماذا يقول : " وفى المحراب حجر عظيم قد شق بنصفين والنجم

بينهما ولم ين النصف عن النصف بالكلية . يزعم الشيعة أنه لعل ، رضى الله عنه ، إما بضربة سيف أو بأمر من الأمور الإلهية على يديه . ولم يذكر عن على ، رضى الله عنه ، أنه دخل قط هذا البلد ، اللهم إلا إن زعموا أنه كان فى النوم ، فلعل جهة الرؤيا تصح لهم إذ لاتصح لهم جهة اليقظة " (١) . فتأمل كيفية هدوء تهكمهم بهم ، حتى لكأنه يخشى أن يؤلمهم .

وربما كان أشد فكاهته هذه القصة التى يرويها عن أحوال مجانيين دمشق : " وتندر من بعضهم النواذر الظريفة حسبما كنا نسمع به . ومن أعجب ما حدثت به من ذلك أن رجلا كان يعلم القرآن ، وكان يقرأ عليه أحد أبناء وجوه البلد من أوتى منحة جمال ، واسمه نصر الله . وكان المعلم يهيم به ، فزاد كلفه حتى اختبل وأدّى إلى المارستان . واشتهرت علته وفضيحتة بالمصبي . وربما كان يدخله أبوه إليه ، فيقول له : اخرج وعذ لما كنت عليه من القرآن . فقال متاجنا تماجن المجانيين : وأى قراءة بقيت لى ؟ مابقى من حفظى من القرآن شيء سوى : " إذا جاء نصر الله " ، فضحك منه ومن قوله " (٢) ومع ذلك فإنه لا ينسى بعد هذا كله أن يعقب بالدعاء له وللمسلمين أجمعين : " ونسأل الله العافية له ولكل مسلم ، فلم يزل كذلك حتى ثوى ، سمح الله له " .

على أن السرو اليمينيى هم العائزون بأكثر نصيب من وصفه المضحك وتعليقاته الفكاهية النزرة . وهؤلاء السرو اليمينيون هم قوم من اليمن فقراء يفدون على مكة موسم الحج ومعهم أنواع الأطعمة التى يتاجرون فيها ويخفون بها عن الحجاج تخفيًا كبيرًا لقلة الطعام وغلاته فى الحجاز آنذاك . وهم ، رغم نيتهم السليمة وسداجة نفوسهم وطواياهم البريئة ، لا يكادون يعرفون من أمور دينهم شيئًا . فصلاتهم مضحكة وحجهم وما يحدث لهم فيه من الفصول أكثر إضحًا :

١- ص ٢٥٢

٢- ص ٢٥٦

١- ص ٢٧٨

٢- ص ٢٧٩

٣- ص ٣٠٧

٤- ص ١٩٠

" والقوم عرب صرخاء فصحاء جفافة أصحاباء ، لم تغنم الرقة الحضرية ولا هنتهم السير المدنية ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية ، فلانجد لبيهم من أعمال العبادات سوى صدق النية . فهم إذا طفقوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البين على الأم المشقة لاثنين بجوارها متعلقين بأستارها ، فحيشا عقلت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها . على أنهم طول مقلهم لا يتمكن معهم طواف ولا يوجد سبيل إلى استلام الحجر .

وإذا فتح الباب الكريم فهم الداخلون بسلام ، فترام في محاولة دخولهم يتسلسلون كأنهم بعض ببعض مرتبطون ، يتصل منهم على هذه الصفة الثلاثون والأربعون إلى أزيد من ذلك ، والسلسل منهم يتبع بعضهم بعضا . وربما انفصلت بواحد منهم يميل عن المطلع المبارك إلى البيت الكريم فيقع الكل لوقوعه ، فيشاهد الناظر لذلك مرأى يؤدي إلى الضحك .

ولما صلاتهم فلم يذكر في مضحكات الأعراب أطراف منها . وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون دون ركوع وينقرون بالسجود نقرا . ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ، ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلا دون تسليم ولا جلوس للشهد . وربما تكلموا في أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ثم عاد إلى سجوده ، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة " (١) .

وذكرني هذا بعمل الحجاج التكروريين الآن في الطواف حول الكعبة ، إذ تكون كل طائفة منهم سلسلة بشرية تكتسح من يوقعه حظه السوء في طريقها ، ولا يتورعون عن لكز الحجاج الآخرين ليفسحوا لهم مثل هذا العمل ينم عن أن صاحبه يظن أن الحجاج مسابقة بنية لا تخرج عن المغالبة وليست عبادة ورياضة روحية سلمية .

ونأتى إلى الوصف في الرحلة . والوصف عند ابن جبير لا يكاد يفادر شيئا . فرحلتنا قد وصف البحر وهيجانه ، ووصف الجبارك وقسوة تحصيل الضرائب فيها وكيف أخذوا رقيقه في

الرحلة لاستجوابه ، ووصف البلاد التي مر بها منذ نزوله الإسكندرية إلى عودته إلى الأندلس معطيا لها من الوصف والتفصيل حسب أهميتها وما فيها من مناظر وأثار ، ووصف عادات أهل كل بلد وتقاليدهم وأخلاقهم ، ووصف المناخ في كل بلد حل به ، ووصف الطرق وصهاريج المياه المتناثرة عليها ، ووصف الأهرام وأبا الهول والمعابد الفرعونية ، ووصف المساجد والأضرحة ، ووصف البيت الحرام ومسجد الرسول عليه السلام وقبره ، ووصف مدن الصليبيين في الشام وما يميزها عن مدن المسلمين ، ووصف العرس الصليبي الذي شاهده في صور ، ووصف العلاقات السيلسية والاجتماعية بين المسلمين والصليبيين ، ووصف الكنائس ، ووصف صقلية ومن فيها من مسلمين ونصارى وسياسة ملكها تجاه الأولين ، ووصف السفينة وبنائها وكيفية قيادة رأسها لها في الأتوال ، ووصف تحطم سفينة العودة عند صقلية .

وابن جبير في وصفه دقيق لا يهمل شيئا ، بل يورد كل التفاصيل المهمة ولذلك نراه يستعين بقياس أطوال الأشياء الموصوف إن كان ما يقاس ، فينزع مثلا طول بهو ما وعرضه وارتفاعه ولون بلاطته ، ويتوقف عند ما فيه من زينة فيصور أشكالها والصفة التي أنفقت فيها ، وهكذا .

وابن جبير من دقة يحيط بكل ما يساعد على تمثيل الموصوف ، فيذكر الأشكال والأضواء والظلال والألوان والأصوات والحركات .

وهو في أثناء ذلك كله يورد القصص والحكايات والتواريخ والأحداث التي تقع من حوله . وهو يمزج ذلك كله في كثير من الأحيان بوصف لرائه ومشاعره مدحا أو قدحا ، أو موافقة أو تنقيدا ، أو إعجابا أو خوفا ، أو ابتهاجا أو يأسا ، حسب طبيعة الموقف .

ومحصل ابن جبير اللغوي واسع لا يعجز عن وصف أي شيء ، حتى في مجال العمارة حيث الأقواس ، والقرنصة ، والتعاريج ، والتشجير ، والتقسيم ، والتفصيل ، والتزيين ، والتوريق ، والتكفيت والتجزيع . وهلم جرا . فكان ابن جبير قد ولد مهندسا معماريا وفنانا تشكليا .

ولا أدري هل يمكن لأي مؤرخ أو ناقد أو معاصري في العصر الحديث أن يزيد على مقالته ابن جبير ، اللهم إلا بتفسير لفظة هنا أو هناك ؟

ونتيجة لذلك ، فإنني في كثير من الأحيان كنت أحس أنني جزء من المنظر الذي يصفه :
أشاهد الأنوار ، وأسمع الجلبة ، وأحس ضغط الرخام على بلنني - إلخ .

ذلك ، وقد أثنى على هذا الجانب في أسلوب ابن جبير كثير ممن كتبوا عنه ، ككراتشكوفسكي وعبد القدوس الأنصاري (١) .

على أنه قبل إبراد الشواهد المصورة للقدرة الوصفية عند ابن جبير لابد من الإقرار بأن في كلام كراتشكوفسكي عن الإملاذ الذي يسببه للقارى العادى وصفه للأبنية كثيرا من الصحة (٢) .
ومع ذلك فينبغى الاحتراز بأن ذلك الإملاذ مقصور على الجوانب الفنية في وصفه للأبنية من القياسات والتصميمات وما إلى ذلك . وفيما عدا هذا فليس في وصفه هذا الصيب المشار إليه .

وأخيرا ، هذه شواهد على الوصف عند ابن جبير :

قال عن مكس الإسكندرية : " فمن أول ماشاهنا فيها يوم نزولنا أن طلع أناء إلى المركب من قبل السلطان بها لتقييد جميع ما جلب فيه . فلستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحدا واحدا ، وكتب أسماءهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد منهم عما لديه من سلع أو ناض (أموال سائلة) ليؤدى زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو مالم يدخل وكان أكثرهم متشخصين لأدلة الفريضة لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم ، فلزموا أداة زكاة ذلك دون أن يسأل أحال عليه الحول أم لا . واستنزل أحمد بن حسان ليُسأل عن ألباء المغرب وطلع المركب ، فطيف به مرقبا على السلطان أولا ثم على القاضي ثم على أهل الديوان ثم على جماعة من من حاشية السلطان وفي كل يُسْتَفْهَم ثم يُقَيَّد قوله . فخلّى سبيله

١- انظر كراتشكوفسكي / تاريخ الأدب الجغرافى العربى / القسم الأول / ٢٠٠-٢٠١ . وعبد القدوس الأنصاري / مع ابن

جبير فى رحلته / ٢٩٦ . وما بعد ما حيث يكثر من الاستشهاد على الوصف عند ابن جبير .

٢- انظر كراتشكوفسكي / تاريخ الأدب الجغرافى العربى / القسم الأول / ص ٢٠١ .

وأمر المسلمون بتزليل أسباجهم ومافضل من أزدوتهم . وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم ويحصل جميع ما أنزلوه إلى الديوان . فلستحضر واحدا واحدا وأحضر ما لكل واحد من الأسباب . والديوان قد غص بالزحام . فوقع التفتيش لجميع الأسباب ماذق منها وماجل ، واختلط بعضها ببعض ، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثا عما عسى أن يكون فيها ، ثم استخلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ماوجدوا لهم أو لا . وفى أثناء ذلك ذهب كثير من أسباب الناس لاختلاط الأيدي وتكاثر الزحام ، ثم أطلقوا بعد موقف من النذل والخزى عظيم ، نسأل الله أن يعظم الأجر بذلك . وهذه لامحالة من الأمور الملبس فيها على السلطان الكبير المعروف بمصالح الدين . ولو علم بذلك ، على ما يؤثر عنه من العدل وإيثار الرفق ، لأزال ذلك ، وكفى الله المؤمنين تلك الخطة الشاقة . ولستودوا الزكاة على أجمل الوجوه . ومالينا ببلاد هذا الرجل ما لم يلم به قبيح لبعض الذكر سوى هذه الأحذوتة التى هى من نتائج عمال الديوان " (١) .

وقال من وصف عمارة المسجد الحرام : " وفى ارتفاع جدار هذا الججر الرخامى خمسة أشرار ونصف ، وسعته أربعة أشرار ونصف . وداخل الججر بلاط واسع ينطف عليه الحجر كأنه ثلث دائرة . وهو مفروش بالرخام المجزّع المقطّع فى دور الكف إلى دور الدينار إلى ما فوق ذلك ، ثم ألصق بانتظام بديع وتأليف معجز الصنعة غريب الإتقان رائق الترميع والتجزيع رائع التركيب والرصف ، ييمر الناظر فيه من التعاريج والتقاطيع والخوائيم والأشكال الشطرنجية وسواها على اختلاف ألوانها وصفاتها مليقيد بصره حسنا ، فكأنه يجيله فى أزهار مفروشة مختلفات الألوان ، إلى محاريب قد انعطف عليها الرخام انعطاف القسي وداخلها هذه الأشكال الموصوفة والصنائع المذكورة . وبإزائها رخامتان متصلتان بجوار الججر المقابل للميزاب أحدث الصانع فيها من التوريق الرقيق والتشجير والتقريب مالا يحدثه الصنع اليدين فى الكاغذ قطعا بالجلمين ، فمرأى عجب أمر بصنعتيها على هذه الصفة إمام المشرق

أبو العباس أحمد الناصر بن المستضيء بالله أبي محمد الحسن بن المستجد بالله
أبي المظفر يوسف العباسي، رضى الله عنه " (١).

وقال واصفا موكب خاتون بنت الملك مسعود (خاتون بنت قلع أرسلان بن مسعود): " وفي تلك
العشية التي رحلنا فيها فجلنا خاتون المسعودية المترفة شباها وملكا، وهي التي
استقلت في هودج موضوع على خشبتين مقترضتين بين مطيتين، الواحدة أمام الأخرى، وعليهما
الجلال المنمبة، وهما تسيروا بها سير النسيم سرعة ولينا، وقد فتح لها أمام الهودج وخلفه
بابان، وهي ظاهرة في وسطه متقبة، وعصابة ذهب على رأسها، وألمها رجيل من فتيانها
وحنما، وعن يمينها جنائب المطايا والهماليج العتاق، ووراءها ركب من جوليتها قد ركب
المطايا والهماليج على السروج المنمبة، وعمن رؤوسهن بالعصائب النحيات والنسيم
يتلاعب بعنباتهن، وهي يسرن خلف سيدتهن سير السحاب، ولها الرايات والطبول والبوقات
تضرب عند ركوبها وعند نزولها، وأبصرنا من نخوة الملك النسائي واحتفاله رتبة تهز الأرض
هزا، وتسحب أذيال الدنيا عزا، ويحق أن يخلعها العز ويكون لها هذا الهر، فإن مسافة ملكة
أبيها نحو الأربعة أشهر، وصاحب القسطنطينية يؤدي إليه الجزية، وهو من العدل في رعيته
على سيرة عجيبة، ومن موالاة الجهاد على سنة مرضية " (٢).

وفي موكب الخاتون ذاتها عند دخولها الموصل: " دخلت خاتون المسعودية تقود عسكر
جوليتها وألمها عسكر رجالها يطوفون بها، وقد جللت قبتها كلها سبائك ذهب مصوغة أمانة
ودنانير سعة الأكف وسلاسل وتمثيل بديعة الصفات، فلاتكاد ثين من القبة موضعا، ومطياتها
تزحفان بها زحفا، ومخبط ذلك الحلى يسد المسامع، ومطاياها مجللة الأعناق بالذهب،
ومراكب جوليتها كذلك، مجموع ذلك الذهب لا يحصى تقديره، وكان مشهدا أبهر الأبصار،

حدث الاعتبار، وكل ملك يفنى إلا ملك الواحد القهار، لا شريك له " (١).

وأقسم بالله أنني ملن مرة ذكرت فيها هذا الوصف إلا تراءت أمام عيني حلى الذهب، وخيل
أنني أسمع وسوستها وصليها يملأ الأفق كأنه زقزقة صادرة من مئات العصافير في شجرة
من الأوراق عند الغروب.

وقال يصور عرسا مليا في مدينة "صور": " ومن مشاهد زخارف الدنيا المحتث بها زفاف
وس شاهناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالا ونساء
بطفوا ساطين عند باب العروس المهداة، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات
نوية، حتى خرجت تهلدي بين رجلين يسكنانها من يمين وشمال، كأنها من ذوى أرحلها،
في أبي زى وأفخر لباس، تسحب أذيال الحرير المنمب سحبا على الهيئة المعهودة من
هم، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حُفَّت بشبكة ذهب منسوجة، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم، وهي
في حليها وحللها تمشي فترا في فتر مشى الحملة أو سير الغمامة، نعوذ بالله من فتنة
الظفر، وألمها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية تشحَب أذيالها خلفهم،
رأما أكفأوها ونظراؤها من النصرانيات يتهلدين في أنفس الملابس ويرفلن في أوفل
على، والآلات اللهوية قد تقلمتهم، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في
هم ساطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك، فساروا بها حتى لدخلوها دار بعلمها،
لما يومهم ذلك في وليمة، فلأنا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله
الفتنة فيه " (٢).

إنني لأحسب نفسي في حلم وقد وقفت تحت طنف بيت في نهاية الشارع عند منعطفه، وموكب
يس قادم من بعيد مقبلا على، وأنا أطلع إليه مسحورا مبهورا، وكل ذلك بفضل ابن جبر

وأسلوبه الحي وقدرته الوصفية الهائلة . إنه لم يترك وضعا أو حركة أو ملبسا أو صوتا إلا صورته وأبدع في تصويره . على أن الذي فاق كل شيء جمالا وروعة هو وصفه مشية العروس . هذا مصور سينمائي في يده آلة التصوير والتسجيل الصوتي لا كاتب ممسك قلم يصف العرس من الذاكرة بعد انقضاءه !

وفي وصف بداية رحلة العودة في البحر المتوسط : " واتصل جرينا والريح الموافقة تأخذ وتدع نحو خمسة أيام . ثم هبت علينا الريح الغربية من مكمنها دافعة في وجه المركب ، فأخذ رئيسه ومديره الرومي الجنوي . وكان بصيرا بصنفته خلخا في شغل الرئاسة البحرية . يراوغها تارة يميناً وتارة شمالاً ، طمعا ألا يرجع على عقبه . والبحر في أثناء ذلك رهو ساكن . فلما كان نصف الليل أو قريب منه ، ليلة السبت التلمع عشر لرجب المذكور والسابع والعشرين لأكتوبر . ترددت علينا الريح الغربية فقصفت ثرية الصاري المحروف بالأردمون ، وألقت نصفها في البحر مع ما اتصل بها من الشراع . وعصم الله من وقوعها في المركب لأنها كانت تشبه الصاري عظاما وضخمة . فتبادر البحريون إليها ، وحط شراع الصاري الكبير . وعطل المركب من جريه . وصيح بالبحريين الملازمين للصاري المرتبط بالمركب . فقصروا إلى نصف الخشبة الواقعة في البحر وأخرجوها مع الشراع المرتبط بها ، وحصلنا في أمر لا يعلبه إلى الله تعالى . وشرعوا في رفع الشراع الكبير ، وأقاموا في الأردمون شراعا يعرف باللون . وبتنا ليلة شهاب إلى أن وضع الصباح . وقد من الله عز وجل بالسلامة . وشرع البحريون في إصلاح ثرية أخرى من خشبة كانت معلقة عندهم . والريح الغربية على أول لجأها ، ونحن بين اليأس والرجاء . نتردد مقلين حسن الثقة بجميل صنع الله تعالى وحفي لطفه ومعهود فضله . سبحانه هو أهل ذلك . جلت قدرته وتناهت عظمتة . لا إله سواه " (١) .

على أن الرحلة ليست هي كل ما وصلنا من نشر ابن جبير . فقد أورد لسان الدين بن الخطيب

في " الإحاطة " له عددا من الأقوال الحكيمة . مثل : " إن شرف الإنسان فشرف وإحسان . وإن فاق فتفضل وإرفاق " . و " شغل الناس عن طريق الآخرة بزخارف الأغراض ، فلجوا في الصدود عنها والإغراض . أثروا دنيا هي أضغاث أحلام . وكم خفت في حبها من أحلام . أطلوا منها آمالهم وقصروا أعمالهم . ملالهم لم يتفرغ لغيرها بالهم ؟ ومالهم في غير ميدانها استباق ولا بسوى مواعيد لشتاق " .

وهذه الأقوال تغطي صفحة من القطع المتوسط ، وهي أقوال تتميز بالقصر وحرص كاتبها على التوقيع الموسيقي . سجعاً وجناساً ومطابقة ، وروحها روح وعظ وإرشاد وتزويد في الدنيا وحث على العلم والاستعداد للآخرة . وعليها مسحة من تشاؤم . وقد أراه لها ابن جبير أن تبقى بعده وتحفظها الأذهان ويرددها اللسان . فلذلك أتى بها مركزة تركيزاً شديداً ، ووفر لها نصيباً غير قليل من الرنين .

وماك بضعة أقوال أخرى منها :

" ينبغي أن يحفظ الإنسان لسانه . كما يحفظ الجفن إنسانه . فرب كلمة تقال . تحدث عشرة لاتقال " .

" كم كست فلتات الألسنة الحداد . من ورائها ملابس حداد " .

" نحن في زمن لا يحظى فيه بنفاق . إلا من عمل بنفاق " (٢) .

وهي . كما ترى ، حكم عامة يعرفها القاصي والداني . ولا خصوصية فيها لابن جبير سوى الصياغة . على أنها ليست صياغة قيمة . بعكس ما يراهما عبد القدوس الأنصاري (٣) ، فقد صيغت في أسلوب مصطنع ليس له رونق أسلوب الرحلة . لضيق المجال ألممه عن الانطلاق في الوصف والتصوير والتعبير عن المشاعر المتبانية في المواقف المختلفة .

١- يرجع إلى " الإحاطة " لسان الدين بن الخطيب / مجلد ٢ / ص ٢٧٢-٢٧٨ .

٢- انظر " الإحاطة " / ص ٢٦ و " مع ابن جبير في رحلته " / ص ٩٢ .

الفهرس

٢	المقدمة
٥	من كتب رحلة ابن جبير ؟
١٧	المفردات
٦٧	صيغ المفردات
١٢٥	العبارات
١٦١	التراكيب
١٨٣	الصور والمحسنات
١٩٩	الفكاهة والوصف
٢١١	الفهرس